إدواردو غاليانو



نصوص

أفواه الزمن

ترجمة : صالح علماني


أفواه الزمن
محمد خطاب



اسم المؤلف : إدواردو غاليانو
عنوان الكتاب : أفواه الزمن
المترجم : صالح علماني
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠٧

Author : Eduardo Galeano
Title : Bocas del tiempo
Translator: Saleh Almani
Al- Mada P.C.
First Edition : 2007

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣-٧١٧٠ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
www.almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

إدواردو غاليانو

أفواه الزمن

ترجمة: صالح علماني




محمد خطاب

الزمن يقول

من زمنٍ نحن.
نحن أقدام الزمن وأفواهه.
وعاجلاً أو آجلاً، مثلما هو معروف، ستمحو رياح الزمن الآثار.
عبور اللاشيء، خطوات اللاأحد؟ أفواه الزمن تروي الرحلة.

الرحلة

أوريول فال الذي يتولى العناية بحديثي الولادة في أحد مستشفيات برشلونة، يقول إن أول حركة للكائن البشري هي العناق. فبعد الخروج إلى الدنيا، في بدء أيامهم، يحرك حديثو الولادة أيديهم، كما لو أنهم يبحثون عن أحد.

أطباء آخرون، ممن يتولون رعاية أناس عاشوا طويلاً، يقولون إن المسنين، في آخر أيامهم، يموتون وهم يرغبون في رفع أذرعهم.

هكذا هو الأمر، مهما قلّبنا المسألة، ومهما وضعنا لها من كلمات. ففي هذا، ببساطة، يُختزل كل شيء: بين خفقتين بالأذرع، دون مزيد من التفسيرات، تنقضي رحلة الحياة.

شهود

البروفيسور والصحفي يتمشيان عبر الحديقة.

وفي أثناء ذلك، يتوقف البروفيسور جان ماري بيل، يشير بإصبعه ويقول:

- *أقدم لك جداتنا.*

ينحني الصحفي جاك جيراردن، ويكتشفُ كرةً من الرغوة تطل من بين العشب.

إنها قرية طحالب ميكروسكوبية زرقاء. في أيام الرطوبة الشديدة، تصبح الطحالب الزرقاء مرئية. وهكذا، كلها مجتمعة، تبدو أشبه ببصقة. يفرك الصحفي أنفه: يمكننا القول إن أصل الحياة ليس له مظهر شديد الجاذبية، ولكن من هذه الرغوة، من هذه القذارة، جئنا نحن جميع من لنا أرجل، أو قوائم، أو جذور، أو أجنحة، أو أشباه أجنحة.

قبل الماقبل، في أزمنة طفولة العالم، عندما لم تكن ثمة ألوان أو أصوات، كانت هي، الطحالب الزرقاء، موجودة. وكانت تطلق أوكسجيناً، فمنحت لوناً للبحر والسماء. وفي يوم طيب، في يوم استغرق ملايين السنين، خطر لطحالب زرقاء كثيرة أن تتحول إلى طحالب خضراء. وراحت الطحالب الخضراء تُوَلّد، قليلاً قليلاً، إشنيات، فطوراً، وتولّد كل الألوان والأصوات التي أتت، أتينا، في ما بعد، لنملأ البحر والبر بالصخب.

غير أن طحالب زرقاء أخرى، فضّلت أن تبقى مثلما كانت.

وهي ما زالت كذلك.

ومن العالم القديم الذي كان، تنظر هذه الطحالب إلى العالم الذي صار.

لا أحد يعرف رأيها في ذلك.

اخضرار

عندما كان البحر بحراً، لم تكن اليابسة سوى صخرة عارية.

الطحالب الآتية من البحر، شكلت المروج. غزت مملكة الحجر واقتحمتها، وكستها بالخضرة.

حدث ذلك في أمسٍ أمسٍ بعيد، وما زال يحدث حتى الآن. فحيث لا يعيش شيء، تعيش الطحالب: في السهوب المتجمدة، وفي الصحارى الملتهبة، وفي أعالي أعلى الجبال.

الطحالب تعيش ما دام هناك تزاوج بين الإشنيات وأبنائها الفطور.

وإذا ما تحلل الزواج، تحللت الطحالب.

أحياناً، يقع الطلاق بين الفطور والإشنيات، بسبب مشاجرات ونزاعات. والسبب حسب ما تقوله هي، إنهم «هم» يبقونها حبيسة، ولا يسمحون لها برؤية النور. أما حسب قولهم هم، فإنهن «هن» يضجرونهم لكثرة ما يقدمن لهم من السكر ليلاً ونهاراً.

آثار خطى

زوجان يمضيان ماشيين عبر السافانا، في شرق أفريقيا، بينما موسم الأمطار يولد. تلك المرأة وذلك الرجل ما زالا ـ والحقيقة يجب أن تقال ـ يشبهان القرود كثيراً، وإن كانا يمشيان منتصبين، وليس لهما ذيل.

بركان قريب، يدعى الآن بركان ساديمان، كان يقذف رماداً من فمه. وقد حفظ حقل الرماد، منذ ذلك الزمن، وعبر كل الأزمنة، خطوات الزوجين. وظلت آثار الأقدام سليمة، تحت فراش الرماد الرمادي. وآثار هذه الأقدام تقول لنا، الآن، إن تلك الحواء وذلك الآدم كانا يمشيان معاً، عندما توقفت هي في نقطة من الطريق، وغيَّرت اتجاهها، ومشت بضع خطوات بمفردها. وبعد ذلك، رجعت إلى الطريق المشترك.

أقدم آثار بشرية خلّفت علامة تردد.

وقد مضت بعض السنوات منذ ذلك الحين. لكن التردد لا يزال قائماً.

ألعاب الزمن

يقال عن القائلين إن صديقين كانا يتأملان، ذات مرة، لوحة رسم. وكان الرسم ـ ومن يدري لمن هو ـ آتياً من الصين. رسمُ حقل أزهار في موسم الحصاد.

أحد الصديقين ـ ومن يدري لماذا ـ كان يصوب نظره إلى امرأة.. واحدة من نساء كثيرات في اللوحة، يجمعن زهور البرقوق في سلالهن.

كان شعرها المنفلت يهطل مطراً على كتفيها.

وأخيراً، بادلته هي النظرة، ثم أفلتت سلّتها، ومدّت ذراعيها ـ من يدري كيف ـ وأخذته إليها.

استسلم هو للذهاب ـ من يدري إلى أين ـ وأمضى مع تلك المرأة الليالي والأيام ـ من يدري كم منها ـ إلى أن انتزعته ريح قوية من هناك، وأعادته إلى القاعة، حيث لا يزال صديقه واقفاً قبالة اللوحة.

كانت قصيرة جداً تلك الأبدية، حتى إن الصديق لم ينتبه لغيابه. ولم ينتبه كذلك إلى أن تلك المرأة، واحدة من نساء كثيرات في اللوحة، يجمعن البرقوق في سلالهن، صار شعرها الآن، مربوطاً فوق رقبتها.

أزمنة الزمن

إنه واحد من الأشباح. هكذا يدعو أهالي سانت إيله المسنين القلائل الذين لا يزالون غارقين في الوحل، يطحنون أحجاراً، يكشطون رماداً، في هذا المنجم المهجور الذي لم توجد فيه مقبرة قط، لأن الموتى أنفسهم لم يشاؤوا البقاء هناك.

منذ نصف قرن، وصل هذا المنجمي، القادم من بعيد جداً، إلى ميناء كايينّا، وتوغل بحثاً عن الأرض الموعودة. وكانت قد أزهرت هنا، في ذلك الزمن، حديقة ثمار الذهب، والذهب يفتدي أي غريب ميت من الجوع، ويعيده إلى بيته سميناً بالذهب، إذا ما شاء له الحظ ذلك.

الحظ لم يشأ. لكن هذا المنجمي مازال هنا، دون أية ملابس سوى خرقة حول خصره، يأكل لا شيء، ويأكله البعوض. يقلّب الرمل يوماً بعد يوم، بحثاً عن لا شيء، وهو جالس وأمامه طبق التنقيب عن الذهب، تحت شجرة أشد منه نحولاً، تكاد لا تحميه من ضراوة الشمس.

يصل سيباسياو سالغادو إلى هذا المنجم المنسي الذي لا يزوره أحد، ويجلس إلى جانب الرجل. فيقول له صياد الذهب الذي لم تبق في فمه سوى سن وحيدة، سن ذهبية، تلمع في ليل فمه عندما يتكلم:

- ***زوجتي جميلة جداً.***
ويعرض صورة ممزقة الحواف وممحوة.
- ***إنها تنتظرني*** - يقول.
إنها في العشرين من عمرها.
منذ نصف قرن وهي في العشرين من عمرها، في مكان ما من العالم.

كلمات ضائعة

في الليل، ينجز آبيل دي ألينكار مهمته المحظورة.
بينما هو مختبئ في مكتب، في برازيليا، يستنسخ، ليلة بعد ليلة، أوراقاً سرية من أرشيف جهاز الأمن العسكري: تقارير، بطاقات، ملفات تسمي عمليات التعذيب تحقيقاً، والاغتيالات مواجهات مسلحة.
خلال ثلاث سنوات من العمل السري، استنسخ آبيل مليون صفحة. إنه سِجِلُ اعترافٍ متكامل للدكتاتورية التي كانت تعيش آخر أزمنة سلطتها المطلقة على حيوات ومعجزات البرازيل كلها.
في إحدى الليالي، بين صفحات الوثائق العسكرية، اكتشف آبيل وجود رسالة. وكانت الرسالة مكتوبة قبل خمسة عشر عاماً، لكن القبلة التي تختمها، بشفتي امرأة، كانت سليمة.
لقد وجد، منذ ذلك الحين، رسائل كثيرة. وكل واحدة منها مرفقة بالمغلف الذي لم يصل إلى المرسل إليه.
لم يكن يدري ما يمكنه أن يفعل. فقد انقضى زمن طويل. ولم يعد هناك من ينتظر هذه الرسائل، كلمات مرسلة من المنسيين والميتين إلى أماكن لم تعد هي نفسها، وإلى أشخاص لم يعودوا موجودين. إنها كلمات ميتة. ومع ذلك، عندما يقرؤها، يشعر آبيل أنه يقترف انتهاك حرمة. هو لا يستطيع أن يعيد هذه الكلمات إلى سجن الملفات، ولا يمكنه اغتيالها بتمزيقها.
في نهاية كل ليلة، كان آبيل يدس الرسائل التي يجدها في مغلفاتها، ويلصق عليها طوابع جديدة، ويلقي بها في صندوق البريد.

قصة مَرَضية

أكدت أنها تعاني من تسرع في القلب كلما رأته، ولو من بعيد.

أعلنت أن غددها اللعابية تجف عندما ينظرُ إليها، ولو عرضاً.

أقرت بإفراط في إفراز غددها العرقية كلما تحدث إليها، ولو للرد على تحيتها.

وافقت على أنها تعاني من عدم توازن خطير في ضغط الدم حين يلمسها، ولو عن طريق الخطأ.

اعترفت بأنها تصاب من أجله بحالات دوار، وأن نظرها يغيم، وركبتيها ترتخيان. وأنها لا تتوقف، في النهار، عن التفوه بحماقات، وفي الليل لا تتمكن من النوم.

- ***كان ذلك منذ زمن بعيد يا دكتور*** - قالت - ***ولم أعد أشعر أبداً بأي شيء من هذا كله يا دكتور.***

قوّس الطبيب حاجبيه:

- ***لم تعودي تشعرين أبداً بشيء من هذا؟***

وشخَّص الحالة:

- ***وضعك خطير جداً.***

المؤسسة الزوجية

النقيب كاميلو تيتشيرا يمضي على الدوام واسم الرب على لسانه، صباح الخير إن شاء الله، إلى اللقاء في الغد إن شاء الله.

عندما وصل إلى ثكنة المدفعية، اكتشف أنه لا وجود فيها لجندي واحد متزوج مثلما يشاء الله، وأنهم جميعهم يعيشون في الخطيئة، يرتعون في الرذيلة مثل بهائم البريّة.

وليضع حداً لتلك الفضيحة التي تُغضب الرب، أمر باستدعاء القس الذي يقود القداس في مدينة ترينيداد. وفي يوم واحد، نظّم الكاهن وضع جنود الوحدة، كل واحد مع واحدته، وجرى طقس الزواج المقدس

باسم النقيب، والأب، والابن، والروح القدس.

كل الجنود صاروا أزواجاً منذ يوم الأحد ذاك.

وفي يوم الاثنين، قال أحد الجنود:

- *هذه المرأة لي.*

وغرس السكين في بطن جاره الذي كان ينظر إليها.

ويوم الثلاثاء، قال جندي آخر:

- *لكي تتعلمي.*

ودق عنق المرأة التي كان عليها أن تطيعه.

ويوم الأربعاء...

مشاجرات زوجية

في أحد أزقة مركز مدينة سنتياغو دي تشيلي، كان هناك عجوز مهلهل، يبيع سجائر مهربة. يجلس على الأرض، ويشرب من فوهة الزجاجة. تقبلتُ جرعة من نبيذه الذي يؤدي إلى تشمع كبد فوري، وتوقفتُ لحظة لتبادل الحديث معه.

وعندما كنت أدفع له ثمن السجائر، جاءت «الدوامة». وفجأة، هرب الذباب، وانقلب النبيذ، وطارت المنضدة الصغيرة، وأنهضت امرأةٌ عاتية الرجلَ العجوز بلكمةٍ.

رحتُ أجمع البضاعة المبعثرة على الأرض، بينما السيدة تهز الرجل الضعيف وتصرخ به: يا زير النساء، يا ملاحق المومسات، ماذا تظن نفسك أيها الصفيق الماجن، يا من تمضي الوقت في العهر مع إيفا، ومع لوسي. ويتلعثم هو: هذه الأخيرة لا أعرفها... يا من تقلبت مع مارتيتا، تلك الفرس، ومع العاهرة تشاريتو، ومع بيتي، وباتي. كل هذا أمام عدم مبالاة الناس الذين لا يُبدون أدنى اهتمام بهذا الاستعراض لأسماء الشقراوات المفضضات ذوات الرموش المستعارة وجزمات جلود الأفاعي.

كانت الغاضبة تثبِّت المتهم إلى الجدار، ممسوكاً من خناقه، بينما هو يتلعثم مقسماً الأيمان، بأنك أنت امرأتي الوحيدة، أنت

كاتدرائيتي، أما الأخريات فلسن سوى كنائس صغيرة وحسب، إلى أن أفلتته هي، وكانت تضغط لتخنق، وألقت به إلى الأبد، قالت آمرة: انصرف، اذهب، لا أريد رؤيتك مرة أخرى، وإذا ما رأيتك...

ودون كلمات، أعلنت العقاب المروع. غرست عينيها في مواضعه المقدسة، وقصت الهواء بإصبعيها كشفرتي مقص.

عندئذ، وبكل شجاعة، انصرفتُ مبتعداً.

الخطايا السبع الكبرى

جاثياً أمام مقصورة الاعتراف، وافق نادمٌ على أنه مذنب بخطايا الجشع، والنهم، والشبق، والكسل، والحسد، والتكبر، والغضب.

لم أعترف قط. لأنني لا أريد لكم أنتم الكهنة، أن تستمتعوا بخطاياي أكثر مني، فاحتفظتُ بها بدافع الجشع.

النهم؟ منذ المرة الأولى التي رأيتها فيها، أعترفُ بأن أكل اللحم البشري لم يبدُ لي سيئاً.

هذه المرأة هي الشيء الوحيد في العالم الذي لم يكن يسمح لي بالكسل.

كنت أشعر بالحسد. الحسد من نفسي. أعترف بذلك.

وأعترف بأنني اقترفت بعد ذلك التكبر في الاعتقاد أنها أنا.

وأردت أن أكسر هذه المرآة، مجنوناً من الغضب، عندما لم أر نفسي.

سراديب الليل

لأن هذه المرأة لا تكف أبداً عن الكلام، ولأنها تتذمر دوماً، ولأنه ليس هناك تفاهة إلا وتكون في نظرها مشكلة، ولأنه ملّ من العمل كحمار حمولة، ومن تحمُّل هذه السمجة، فوق ذلك، مع كل أقربائها؛ ولأنه مضطر، في السرير، إلى التوسل كشحاذ؛ ولأنها أقامت علاقة مع آخر، وتتظاهر بأنها قديسة؛ ولأنها تؤلمه مثلما لم يؤلمه أحد من قبل قط؛ ولأنه لا يستطيع العيش من دونها، ولكنه لا يستطيع العيش معها

كذلك؛ وجد نفسه مضطراً إلى دق عنقها كما لو أنها دجاجة.

لأن هذا الرجل لا يسمع أبداً، ولأنه لا يهتم بها مطلقاً، ولأنه ليست هناك مشكلة في نظره إلا وتكون تفاهة؛ ولأنها ملّت من العمل كبغلة، ومن تحمل هذا القاتل، فوق ذلك، مع كل أقربائه؛ ولأنه عليها أن تنصاع في السرير كعاهرة؛ ولأنه أقام علاقة مع أخرى وروى ذلك للجميع؛ ولأنه يؤلمها مثلما لم يؤلمها أحد من قبل؛ ولأنها لا تستطيع العيش من دونه، ولكنها لا تستطيع العيش معه كذلك؛ لم تجد مفراً من دفعه من طابق عاشر، كما لو أنه حزمة خرق.

في آخر تلك الليلة، تناولا الفطور معاً. مثلما يفعلان كل يوم، وكان المذياع يبث موسيقى وأخباراً. لم يلفت انتباههما أي خبر. لأن نشرات الأخبار لا تولي اهتماماً للأحلام.

أخلاق وعادات حميدة

حبسوها في غرفة، مقيدة إلى السرير.

وكل يوم كان يدخل عليها رجل، هو الرجل نفسه على الدوام.

وبعد بضعة شهور، حبلت السجينة.

عندئذ أجبروها على الزواج منه.

لم يكن السجانون شرطيين ولا جنوداً، بل كانوا أبا تلك الفتاة، شبه الطفلة، وأمّها. فقد باغتوها وهي تقبّل وتداعب رفيقتها في الدراسة.

في زيمبابوي، أواخر العام 1994، سمع بيف كلارك قصتها.

أسماك

سيد أم سيدة؟ أو كلاهما معاً؟ أو يكون هو أحياناً هي، وتكون هي في أحيان أخرى هو؟ في أعماق البحر، لا يمكن معرفة ذلك أبداً.

أسماك الميرو، وأسماك أخرى، بارعة في فنون تغيير الجنس دون جراحة. الإناث تتحول إلى ذكور، والذكور يتحولون إلى إناث بسهولة

مذهلة؛ ولا يتعرض أحد منها للسخرية أو الاتهام بخيانة الطبيعة أو شريعة الرب.

عصافير

البيت، بناء من قش وأغصان صغيرة، أكبر بكثير من ساكنه.

ولكن بناء البيت، بين الآجام الشوكية، لا يتطلب أكثر من أسبوعين. أما الفن بالمقابل، فيتطلب زمناً طويلاً من العمل.

لا وجود لبيتين متماثلين. فكل واحد يطلي مسكنه مثلما يشاء، بطلاء مصنوع من عنبيات مهروسة. وكل واحد يزيّن بيته على طريقته، ويُجمِّل ما حوله بكنوز منتزعة من الغابة أو من زبالة قرية بعيدة: حصوات صغيرة، أزهار، دروع حلزونات، أعشاب، طحالب، توضع كلها بإرادة في التناسق والانسجام؛ وأغطية قناني البيرة، وفتات الزجاج الملون، مع تفضيل الأزرق منها، ترسم أشكالاً دائرية أو مروحية على الأرض. وتبدل الأشياء مواقعها ألف مرة، إلى أن تجد أفضل مكان تتلقى فيه الضوء كل يوم.

لهذا السبب يُطلق على هذه العصافير اسم *البيتية*. وهي أشد المهندسين المعماريين مرحاً في جزر أقيانوسيا.

عندما ينهي كل عصفور منها إبداع بيته وحديقته، يبدأ الانتظار. ينتظر، مغنياً، أن تمرَّ العصفورات. وأن توقف إحداها طيرانها وتنظر إلى عمله، وتختاره.

الديوك البرية

يمضي الشتاء، وفي غابات أشجار الزان في أستوريا، ينقشع الضباب الجليدي حيث تعشش الساحرات والبوم.

عندئذ تغني الديوك البرية، المعروفة باسم الأوروغايو، من بين الأغصان. إنهم يستدعونهن، وتأتي الإناث مستجيبات. ويكون الليل مازال مخيماً عندما يبدأ الرقص في ساحات الغناء. أقنعة حمراء

مناقير بيضاء، لحى سوداء: الديوك البرية والدجاجات البرية تتمايل مترنحة مثل أقنعة كرنفال.

يكمن الصيادون في الغابة، وأصابعهم على الزناد.

من الصعب اصطياد الديكة البرية التي تعيش في مخابئها الخفية، بمنجى من أي خطر. لكن الصيادين يعرفون أن هذه الحفلات، حفلات رقصة اللقاء، تصيب الديوك البرية بالعمى والصمم طوال استمرارها.

عناكب

خطوة صغيرة فخطوة، خيط فخيط، يدنو العنكبوت من العنكبوتة.

يقدم لها موسيقى، محولاً خيوط بيته إلى قيثارة، ويرقص لها. ويأخذ في أثناء ذلك، شيئاً فشيئاً، بمداعبة جسدها المخملي.

عندئذ، وقبل أن يحتضنها بأذرعه الثمانية، يلف العنكبوت العنكبوتة بنسيجه، ويقيدها جيداً. وإن لم يفعل، فإنها تلتهمه بعد ممارسة الحب.

العنكبوت لا تروقه أبداً عادة العنكبوتة تلك، لهذا فإنه يحبها ويهرب، قبل أن تستيقظ السجينة وتطلب خدمة السرير والطعام كاملة.

من يفهم العنكبوت؟ فقد استطاع أن يمارس الحب دون أن يموت، لقد وجد الحيلة لإنجاز هذه المأثرة، وهو الآن بمنجى من غضب العنكبوته، ولكنه يحن إليها.

أفاع

تتوهج الجمار، تقطر قطع السجق عصارتها، ومن اللحم الذهبي يفوح عبق ضياع. أمام بيته الحجري، في سلسلة جبال ميناس، في أعماق الجبل، يقدم دون فيناثيو وليمة شواء لحم لأصدقائه القادمين من المدينة.

كانوا على وشك البدء بالأكل، عندما أعلن الابن الأصغر، وهو صغير جداً:

ـ هناك حية فـي البيت.
وطلب، وهو يرفع عصى:
ـ أأقتلها أنا؟
سُمح له بذلك.
فـي مـا بعـد، دخـل دون فـيناثيو وتأكـد: عمـل جيـد. وعلـى الـرأس المهشم بالضربات، ما زال يظهر رسم صليب أصفر. إنها أفعى كوسيرا، ومن أكبرها. طولها متران، وربما ثلاثة.
هنأ دون فيناثيو ابنه، قدم الشواء وجلس. استمرت الوليمة طويلاً، بعدة دفعات شواء متتالية، وكثير من النبيذ.
وأخيراً، رفع دون فيناثيو نخب قاتل الحية، وأعلن أنه سيعطيه جلد الأفعى، غنيمته، ودعا الجميع:
ـ تعالوا لرؤيتها. إنها ضخمة ابنة العاهرة.
ولكنهم عندما دخلوا إلى البيت، لم تكن الأفعى موجودة.
غمغم دون فيناثيو مستاءً، وقال من بين أسنانه إنه يجب تقبّل الأمـر وحسب:
ـ لقد حملها رفيقها إلى الجحر.
وقـال إن الأمـر يحـدث علـى ذلـك النحـو دومـاً. سـواء أكـان ثعبانـاً أم حية، ذكراً أم أنثى، الميت منهما يجد دوماً من يأتي للبحث عنه.
عندئذ رجع الجميع إلى المائدة، إلى النبيذ والحديث والمزاح.
جميعهم عـادوا، باسـتثناء واحـد منهم. بينـو أونخيفـيلد وجـد مشقة فـي الخروج. لقد بقي فـي البيـت، لوقـت طويـل، مسـمراً قبالـة بقعـة الـدم السوداء المتيبسة على الأرض.

حياة فائضة عن الحاجة

كانت الشمس آخذة بالاختفـاء وراء أشـجار السـرو، عنـدما وصلت آورورا ميلوني إلى مقبرة سان أنطونيو دي أريكو. لقد اتصلوا بها:
ـ إننـا بحاجـة إلى المكـان. أنـاس كـثيرون يموتـون، وحضـرتك تتفهمين الوضع.

يقول لها موظف:

- تشرفت بلقائك يا سيدتي. ثلاثمئة بيزو. تفضلي.

ويسلمها كيساً من تلك التي تستخدم لرمي القمامة.

سيارة هائلة تنتظرها.

السائق الذي يرتدي السواد، من القبعة حتى الحذاء، يقود السيارة بصمت.

تشكر هي هذا الصمت.

في الجانب الآخر من النافذة، يركض العالم إلى الوراء. في أرض خلاء، بعض الفتية يلعبون كرة القدم. وآورورا لا تتحمل هذه السعادة المريحة، فتدير وجهها. تنظر إلى قذال السائق. لا تنظر إلى الكيس الذي على أرضية السيارة.

في كيس البلاستيك ذاك، من يوجد؟ أهو دانييل؟ ذلك الفتى الذي كان يبيعُ معها جبناً بيتياً وحلوى الحليب في أسواق مونتيفيديو الشعبية؟ ذاك الذي كان يهدد بتغيير العالم، وانتهى على طريق مثل هذا، وفي جسده ست وثلاثون رصاصة؟ لماذا لم يخبرهما أحد بأن كل شيء لن يدوم إلا قليلاً؟ أين هي الكلمات التي لم يقولاها؟ الأشياء التي لم يفعلاها؟ أين هي؟

الذين أطلقوا النار، القتلة ذوو الزي العسكري، مازالوا حيث كانوا. أما هي، فأين هي؟ في هذه السيارة التي بلا نهاية، في هذا البعبع الجنائزي المستأجر، أهي نفسها؟ أهي هذه المرأة التي تعض شفتيها وتشعر بوخزات في عينيها؟ أتكون هذه سيارة؟ أم أنه ذلك القطار الشبح الذي هرب مرة عن السكة، وهي في داخله، وحملها إلى اللامكان؟

أفخاخ الزمن

جالسةً القرفصاء على السرير، نظرت مطولاً، جابت جسده العاري من الرأس حتى القدمين، كما لو أنها تتفحص النمش والمسامات، وقالت:

- الشيء الوحيد الذي سيتبدل فيك هو العنوان.

ومنذ ذلك الحين عاشا معاً، مضيا معاً، وكانا يستمتعان بالشجار على الجريدة في موعد الفطور، ثم يتصالحان مخترعين المصالحات، وينامان متشابكين.

هذا الرجل، الأبتر منها الآن، يريد أن يتذكرها مثلما كانت. مثلما كانت أي واحدة من اللواتي كانتهن هي نفسها، كل واحدة بظرافتها وقوتها، لأن هذه المرأة كانت تتميز بعادتها المذهلة في الولادة مراراً وتكراراً.

ولكن لا. الذاكرة ترفض. الذاكرة لا تريد أن تعيد إليه إلا ذلك الجسد المتجمد الذي لم تكن هي فيه، ذلك الجسد الخاوي من النساء الكثيرات اللواتي كانتهن.

الجسد الواحد

بمساعدة عكازيهما الأبيضين وبضعة كؤوس، كانا يشقان طريقهما، كيفما اتفق، في أزقة تلاكيباكي.

يبدوان كما لو أنهما على وشك الوقوع، ولكن لا: فعندنا تتعثر هي، يسندها هو؛ وعندما يترنح هو، تساعده هي على التماسك. كانا يمشيان كثنائي.. وكثنائي يغنيان. يتوقفان دائماً في المكان نفسه، في ظل القناطر ويغنيان، بصوت معذب، أغنيات مكسيكية قديمة عن الحب وعن الحرب. كانا يستخدمان آلة موسيقية ما، ربما جيتار ـ لستُ أتذكر ـ يساعدهما في النشاز. وبين أغنية وأغنية، يهزان علبة الصفيح التي يجمعان فيها قطع النقد من الجمهور المحترم.

ثم ينصرفان بعد ذلك. يتقدمهما عكازاهما الأبيضان، ويمران وسط الزحام تحت الشمس، ويختفيان هناك في البعيد، مهلهلين، محطمين، وكل منهما يتشبث جيداً برفيقه، ويلتصق أحدهما بالآخر في تقلبات العالم.

القبلة

اختار أنطونيو بوخيا، مصادفة، إحدى كتل رخام كارارا التي اشتراها على امتداد السنوات.

كانت لوحة قبر. إنها آتية من قبر ما، من يدري من أي مكان. وليست لديه أدنى فكرة عن الطريقة التي وصلت بها إلى مشغله.

وضع أنطونيو لوحة القبر على قاعدة استناد، وبدأ يعمل. كانت لديه فكرة ما عما يريد نحته، أو ربما لم تكن لديه أية فكرة محددة. بدأ بمحو الكتابة: اسم رجل، وسنة الميلاد، وسنة النهاية.

وبعد ذلك توغل الإزميل في الرخام. ووجد أنطونيو مفاجأة بانتظاره داخل الحجر: كانت لعروق الرخام هيئة وجهين متقابلين، شيء أشبه ببروفيلين ملتصقين وجهاً لوجه، الأنف ملتصق بالأنف، والفم ملتصق بالفم.

انصاع النحات للحجر. وراح يحفر، برفق، إلى أن اكتسب ذلك اللقاء الذي تضمنه الحجر ملامح محددة.

في اليوم التالي، اعتبر عمله ناجزاً. وعندئذ، حين رفع المنحوتة، رأى ما لم يكن قد رآه من قبل. فعلى قفا الحجر، كانت هناك كتابة أخرى: اسم امرأة، وسنة الولادة، وسنة النهاية.

أكبر معمّر في العالم

كان صيفاً، وكان موسم وفرة الأسماك، ومنذ كمية لا تحصى من الأصياف، ودون فرانثيسكو باريوسنويفو موجود هناك.

- *إنه آكل السنين* – قالت الجارة – *فهو أكبر سناً من السلاحف.*

وكانت الجارة تنزع بالسكين حراشف سمكة، بينما الذبابات تحك قوائمها قبالة المأدبة، ودون فرانثيسكو يشرب عصير جوافة. وكان غوستافو، القادم من بعيد، يوجه إليه الأسئلة في مسمعه.

عالم راكد، هواء ساكن. فالجميع ينامون القيلولة في قرية ماخاغوال، تلك الدسكرة المنسية في منطقة المستنقعات.

سأله غوستافو عن حبه الأول. وكان عليه أن يكرر السؤال عدة

مرات، الحب الأول، *الحب الأول، الحب الأول*. وكان العجوز الهرم يدفع أذنه بيده:

- *ماذا؟ ماذا تقول؟*

وأخيراً:

- **آه، أجل.**

قطب حاجبيه وهو يتأرجح في الكرسي الهزاز، وأغمض عينيه:

- *حبي الأول...*

انتظر غوستافو. انتظر بينما كانت الذاكرة تبحر، كزورق بالٍ، كانت الذاكرة تتعثر، تغرق، تضيع. إنه إبحار يمتد إلى أكثر من قرن من الزمان، وكان هناك في مياه الذاكرة الكثير من الضباب. كان دون فرانثيسكو يمضي بحثاً عن المرة الأولى، وجهه مغضن، مشقق بألف تجعيدة؛ فاتجه غوستافو بنظره إلى جهة أخرى، وانتظر.

وأخيراً تلعثم دون فرانثيسكو، بما يشبه السر: *إيزابيل*.

غرس عكازه الخيزراني في الأرض، ونهض عن مقعده مستنداً إلى العكاز، منتصباً مثل ديك، وصاح:

- **إيزاااااااابيـــــل!**

صفحات الزمن

«متى»، كانت تسأل، *«متى»*.

مرة كل أسبوع، كان ميغيل ميغليونيكو يمر من هناك. يجدها دوماً في الدهليز، مسمرة على كرسيها الخيزراني، ووجهها إلى الشارع، وتحاصره دونيا إليفيريتا بالأسئلة عن حمل زوجته.

- *متى؟*

ويكرر ميغيل: *في حزيران*.

ثياب بيضاء، شعر أبيض. وعلى الدوام متأهبة ومسرحة الشعر، كانت دونيا إليفيريتا تشع بالسلام، وبوقار الزمن، وتقدم النصائح.

- *داعب بطنها، فذلك يجلب الحظ.*

- اجعلها تشرب جعة سوداء، أو مالتا، كي يكون حليبها وافراً.
- نفذ رغباتها، وكل ما تتوحم عليه، لأن المرأة إذا ابتلعت رغباتها، يأتي الوليد مبقعاً.

كل يوم جمعة، تنتظر دونيا إلفيريتا مجيء ميغيل. الجلد الذي يغطي جسدها مثل دخان وردي، يشف تفرعات الأوردة المضطربة بفعل الفضول:

- وبطنها، هل هو مدبب؟ الأمر مؤكد إذن: سيكون الوليد ذكراً.

كانت رياح الجنوب تهب باردة، وكان الخريف يتأهب لمغادرة شوارع مونتيفيديو.

- لم يبق إلا القليل، أليس كذلك؟

وذات مساء، مرّ ميغيل مستعجلاً:

- الطبيب يقول إنها مسألة ساعات. اليوم أو غداً.

فتحت دونيا إلفيريتا عينيها على اتساعهما:

- أحان الموعد؟

يوم الجمعة التالي، كان كرسي الخيزران فارغاً. لقد ماتت دونيا إلفيريتا في السابع عشر من حزيران 1980، بينما كان يولد في بيت الزوجين ميغليونيكو طفل سُمي مارتين.

الأم

خف أدراس صغير،
رسالة حب بتوقيع غير مقروء،
عشر مزهريات صغيرة فيها أزهار بلاستيكية،
سبع بالونات ملونة،
ميل كحلة للرموش،
قلم أحمر شفاه،
فردة قفاز،
طاقية،
صورة قديمة لآلان لاد،



ثلاث سلاحف نينجا،
كتاب حكايات،
خشخيشة،
أربعة عشر دبوس شعر،
وبضع لعب سيارات صغيرة، تشكل كلها جزءاً من غنائم هرة تعيش في حي أبييّانيدا، وتسرق من البيوت المجاورة.
تتسلل على السطوح وعلى أفاريز الأبنية، وتسرق لابنها المشلول الذي يعيش محاطاً بتلك الهدايا المسروقة.

الأب

غابت فيرا عن المدرسة. ظلت طيلة اليوم معتكفة في بيتها. وفي الليل، كتبت رسالة إلى أبيها. كان أبو فيرا مريضاً جداً، في المستشفى. وقد كتبت:
- أقول لك أن تريد نفسك، أن تعنى بنفسك، أن تحمي نفسك، أن تدلل نفسك، أن تشعر بنفسك، أن تحب نفسك، أن تستمتع. أقول لك إنني أريدك، أعنى بك، أحميك، أدللك، أشعر بك، أحبك، أستمتع بك.
هكتور كارنيفالي عاش بضعة أيام أخرى. بعد ذلك، ورسالة ابنته تحت الوسادة، ذهب في النوم.

الجدة

عندما تنظر إلى جبل، ترغب ميريام ميغيث في اختراقه بنظرها، كي تدخل إلى الجانب الآخر من العالم. وعندما تنظر إلى طفولتها، ترغب أيضاً في اختراق هذه السنوات المنقضية، كي تدخل إلى الجانب الآخر من الزمن.
في الجانب الآخر من الزمن، هناك الجدة.
في بيتها في قرطبة، كانت الجدة تخبئ بعض العلب السرية. وفي بعض الأحيان، عندما تكون ميريام والجدة وحدهما، وليس هناك خطر

أن يدس دخيل أنفه، كانت الجدة تفتح كنوزها قليلاً، وتسمح للحفيدة برؤيتها.

تلك الخرزات البراقة، والميداليات الصغيرة، ورياش العصافير، والمفاتيح القديمة، ودبابيس الملابس، الشرائط الملونة، الأوراق الجافة، وقصاصات المجلات تبدو أشياءً؛ ولكنهما كلتاهما كانتا تعرفان أنها أكثر بكثير من مجرد أشياء.

عندما ماتت الجدة اختفى كل ذلك، ربما أُحرق أو ألقي به إلى القمامة.

لدى ميريام، الآن، علبها السرية الخاصة... وهي تفتحها أحياناً.

الجد

كان الجيولوجيون ينقبون عن بقايا منجم نحاس صغير، سمي في زمانه كورتاديرا، كان موجوداً ولم يعد، ولم يكن مثبتاً على أية خريطة.

في قرية ثيريّوس، قال لهم أحدهم:

ـ هذا، لا يعرفه أحد. ولكن من يدري إذا ما كان العجوز هونوريو يعرف.

دون هونوريو، المهزوم بالنبيذ وتوعكات الشيخوخة، استقبل الجيولوجيين وهو طريح الفراش. تكلفوا جهداً لإقناعه. وبعد بضع زجاجات نبيذ وكثير من السجائر، ونعم، ولا، وسنرى، وافق العجوز على مرافقتهم في اليوم التالي.

انطلق في الرحلة مثقلاً، متعثراً.

في البدء، كان يمشي وراء الجميع. لم يكن يتقبل مساعدة، وكان لا بد من انتظاره. وبمشقة بالغة تمكن من الوصول إلى مجرى النهر الجاف.

وبعد ذلك، قليلاً قليلاً، استطاع أن يثبت خطواته. وعلى امتداد الجرف الجبلي، وعبر الأرض الحصوية، راح جسده المنحني ينتصب.

ـ ***من هنا! من هنا!*** ـ كان يشير إلى الاتجاه، ويتهلل صوته عندما يتعرف على أماكنه الضائعة.

بعد يوم كامل من المسير، كان دون هونوريو الذي بدأ أبكم، هو

أكثر المتحدثين. كان يصعد مرتفعات، ويعيد ارتقاء سنوات: وعندما نزلوا إلى الوادي، كان يمضي في مقدمة الشباب المستنفدين.

نام ووجهه إلى النجوم. وكان أول المستيقظين. كان يتعجل الوصول إلى المنجم، ولم ينحرف عن الطريق، ولم يشغله شيء عن هدفه.

ـ ***هذه هي آلة الحفر*** ـ أشار. ودون أدنى تردد، حدد فتحات الأنفاق، والأماكن التي كانت فيها أفضل عروق المعدن، والحدائد الميتة التي كانت آلات، والأنقاض التي كانت بيوتاً، والقنوات الجافة التي كانت مصارف ماء. وأمام كل مكان، قبالة كل شيء، كان دون هونوريو يروي قصة، وكل قصة كانت مليئة بالناس والضحك.

عندما رجعوا إلى القرية، كان قد صار أصغر بكثير من أحفاده.

المخاض

عند الفجر، وصلت دونيا توتا إلى مستشفى في حي لانوس. كانت تحمل طفلاً في بطنها. وعند عتبة المستشفى، وجدت نجمة، على شكل مشبك زينة، ملقاة على الأرض.

كانت النجمة تلمع من جانب، ومن الجانب الآخر لا. هذا ما يحدث للنجوم، في كل مرة تسقط فيها، وتتمرغ على الأرض: فهي في أحد وجهيها من فضة؛ وفي الجانب الآخر من صفيح وحسب.

تلك النجمة التي من فضة وصفيح، المشدودة في قبضتها، رافقت دونيا توتا في المخاض.

وقد سُمي الوليد الجديد دييغو أرماندو مارادونا.

الولادة

المستشفى العام، القائم في الحي الأكثر ازدحاماً في ريو دي جانيرو، يتولى رعاية أكثر من ألف مريض في اليوم. وجميعهم، جميعهم تقريباً، فقراء أو مدقعون.

طبيب مناوب روى لخوان بيبويان:

- في الأسبوع الماضي، كان عليّ أن أختار بين طفلتين حديثتي الولادة. فهنا لا يوجد سوى جهاز تنفس اصطناعي واحد. وقد رأتا النور في الوقت نفسه، وكانتا تحتضران، وكان علي أن أقرر أيهما تعيش.

وفكر الطبيب: لست أنا من يقرر. فليحسم الرب ذلك.

ولكن الرب لم يقل شيئاً.

الطبيب سيقترف جريمة، أياً كانت التي سيختارها منهما. لكنه سيقترف جريمتين إذا لم يفعل شيئاً.

لم يكن ثمة وقت للتردد. الوليدتان كانتا في النفس الأخير، وبدأتا تغادران هذا العالم.

أغمض الطبيب عينيه. إحداهما حُكم عليها بالموت، والأخرى حُكم عليها بالحياة.

التعميد

عاصفة هوجاء كانت تضرب مدينة بوينس آيرس.

انتزع الأبُ الوليدَ من ذراعي أمه، وحمله إلى السطح ورفعه عالياً وعارياً، تحت المطر الجيلدي. وعرضه على ضوء البروق:

- بني، فلتباركك أمواه السماء!

نجا الوليد، لا أحد يعرف كيف، من الموت بنزلة صدرية.

ونجا كذلك من تسميته «عطلة الأحد». فأبوه، وهو فوضوي فقير وشاعر، مطارد على الدوام من الشرطة والدائنين، أراد تسميته بذلك الاسم تكريماً للانتصار العمالي الجديد، ولكن السجل المدني لم يوافق على الاسم. عندئذ اجتمع الأصدقاء، وهم فوضويون فقراء وشعراء، مطاردون على الدوام من الشرطة والدائنين، وناقشوا المسألة. وكانوا هم من قرروا أنه سيكون للطفل قدر أدبي، وأنه يستحق أن يسمى كاتولو، مثل الشاعر اللاتيني.

وفي السجل المدني أضافوا تشديداً على اسم كاتولو كاستييّو،

مبدع *السَّكرة الأخيرة* وأغنيات تانغو أخرى من تلك التي يسمعها المرء واقفاً باحترام، والقبعة في يده.

الاسم

قرية ثيرو تشاتو (الجبل الأفطس) لم يكن فيها قط أي جبل، لا أفطس ولا مرهف. ولكن خابيير ثاباِيّوس يتذكر أنه كان في ثيرّو تشاتو بالفعل، في أزمنة طفولته، ثلاثة مفوضي شرطة، وثلاثة قضاة، وثلاثة دكاترة.

أحد الدكاترة، وكان يعيش في مركز القرية، كان بوصلة الطلبيات. فقد كانت أم خابيير توجهه كالتالي:

- *من بيت الدكتور غالارثا، تذهب شارعين إلى أسفل.*
- *هذا المكان عند ناصية بيت الدكتور غالارثا.*
- *اذهب إلى الصيدلية وهي وراء بيت الدكتور غالارثا.*

وإلى هناك كان يذهب خابيير. وفي أي ساعة يمر من هناك، تحت الشمس أو القمر، يكون الدكتور غالارثا على الدوام جالساً في دهليز بيته، المتة في يده، ويرد باحترام على تحيات الجيران، ***صباح الخير يا دكتور، مساء الخير يا دكتور، طابت ليلتك يا دكتور.***

كان خابيير قد صار رجلاً كبيراً، عندما خطر له أن يسأل لماذا لا توجد للدكتور غالارثا عيادة طبية ولا مكتب محاماة. وعندئذ عرف. لم يكن دكتوراً، وإنما يسمى كذلك. هكذا سُجل في السجل المدني؛ الاسم: «دكتور». الكنية: «غالارثا».

أبوه كان يريد ابناً يحمل شهادة، ولم يبدُ له ذلك الابن جديراً بالثقة.

عيد الميلاد

بوجه نملة باسمة، وعجيزة ضفدع، وقائمتي فروج؛ كانت سالي تكمل سنتها الأولى في الدنيا.

احتُفل بالحدث احتفالاً كبيراً. بسطت الأم، بياتريث مونيغال، على

الأرض سماطاً هائلاً مطرزاً بأزهار، من منشأ غير معترف به. وأشعلت الشمعة على سارية قالب الحلوى الذي اشترته دَيناً لن يدفع أبداً، من متاجر «إمبوريو دي لوس ساندويتش» الكبرى.

وفي طرفة عين، اختفى قالب الحلوى، وبدأ الرقص، بينما المحتفى بها تنام نوماً عميقاً، ملفوفة بثياب نظيفة ومنشاة، في سلة خضار.

وفي الساعة الثالثة إلا ربعاً فجراً، عندما لم تبق هناك قطرة نبيذ واحدة في الدمجانات؛ التقطت بياتريث آخر الصور، وأطفأت المذياع، وأخرجت المدعوين، وجمعت حاجياتها بسرعة.

في الساعة الثالثة تماماً، دوت صفارة سيارة الشرطة. كانت بياتريث قد اقتحمت ذلك البيت الكبير قبل حوالي شهرين، ومعها أبناؤها الكثيرين وحبيبها الجديد، وهو رجل قوي وجيد في فتح البيوت بالركلات. عندما دخل رجال الشرطة، ومعهم أمر الإخلاء، كانت بياتريث قد بدأت هجرتها الجديدة.

كانت تمضي في منتصف الشارع، تدفع عربة ممتلئة بالأطفال والخرق، يتبعها رجلها وأبناؤها الكبار. تمضي بحثاً عن بيت آخر تقتحمه، وكانت ضحكتها تمزق صمت ليل مونتيفيديو.

الاكتشاف

مواطن جديد، وصل إلى الدنيا للتو، كان ينام عارياً في المهد.

أخته، إيفون غاليانو، نظرت إليه، وخرجت راكضة. طرقت أبواب جاراتها الصغيرات، وكانت تضع إصبعها على فمها وهي تدعوهن لرؤية المشهد. تركن دُماهن دون أن يكملن إلباسها، ودون أن يكملن تجميلها، ومشين على رؤوس أصابعهن، ممسكات بأيدي بعضهن البعض، وتطلعن إلى مهد الوليد. لم تحمر وجوههن حسداً، ولم تشحب بعقدة الإخصاء. بل علقن، وهن يكبحن ضحكاتهن:

ـ انظري ما الذي جاء به هذا المجنون معه من أجل التبول!

الريح

أربع سنوات أتمها دييغو لوبيث، وكان قلبه يطفر في ذلك الصباح من السعادة. وكان الفرح برغوثاً يقفز على ضفدع تقفز على كنغر يقفز على نابض، بينما الشوارع تطير مع الريحِ، والريحُ تضرب النوافذ. احتضن دييغو جدته غلوريا، وأمرها هامساً، في أذنها:

- ***هلمي بنا ندخل في الريح.***

وانتزعها من البيت.

الشمس

في مكان ما من بنسلفانيا، كانت آن ميراك تعمل مساعدة للشمس.

إنها تمارس هذا العمل منذ امتلكت الذاكرة. في نهاية كل ليلة، ترفع آن ذراعيها وتدفع الشمس، كي تظهر في السماء؛ وفي نهاية كل يوم، تُنزل ذراعيها، وتُنَوِّم الشمس في الأفق.

كانت صغيرة جداً عندما بدأت هذه المهمة، ولم تتخلف قط عن عملها.

قبل نصف قرن، اعتبروها مجنونة. ومنذ ذلك الحين، تنقلت آن في مستشفيات عديدة للمجانين، وعالجها كثير من الأطباء النفسانيين، وابتلعت الكثير الكثير من أقراص الدواء.

ولكنهم لم يتمكنوا قط من شفائها.

لحسن الحظ.

الكسوف

عندما يطفئ القمر الشمس، يطلق هنود كايابو سهام نار باتجاه السماء، كي يعيدوا إلى الشمس ضوءها المفقود. وهنود باري يقرعون الطبول، كي ترجع الشمس. وهنود أياماراس يبكون، ويتوسلون إلى

الشمس صارخين ألا تهجرهم.

في أواخر عام 1994، حدث هلع في بوتوسي. خيم الليل في عز الصباح، وصارت السماء سوداء فجأة، وامتلأت بالنجوم. في ذلك العالم المتجمد موتاً، عالم نهاية الزمن، بكى الهنود، نبحت الكلاب، اختبأت العصافير، وفي مثل لمح البصر ذبلت الأزهار.

هيلينا بيياّغرا كانت هناك. وعندما انتهى الكسوف، أحست أن هناك نقصاً في أذنها. فأحد قرطيها، وهو شمس صغيرة من فضة، أفلت منها. بحثت عن تلك الشمس الصغيرة على الأرض، لوقت طويل، مع أنها كانت تعرف أنها لن تجدها أبداً.

الليل

هناك في الطفولة، تظاهرت هيلينا بأنها نائمة، وهربت من الفراش.

لبست ثياباً بيضاء ناصعة، كما لو أن اليوم هو الأحد، وبكل خفة تسللت إلى الفناء، وجلست لتكتشف أسرار ليل توكومان.

كانت تريد أن ترى كيف يكبر الليل، وكيف يسافر القمر والنجوم. فقد أخبرها أحدهم بأن الكواكب تتحرك، وأنها تسقط أحياناً، وأن السماء تبدل لونها بينما الليل يتقدم.

في تلك الليلة، ليلة اكتشاف الليل، كانت هيلينا تنظر دون أن ترمش. أحست بألم في رقبتها، وبألم في عينيها، كانت تعصر عينيها وتعاود النظر. لم تتبدل السماء، والقمر والنجوم ظلت ساكنة في أماكنها.

أيقظتها أضواء الفجر. دمعت عينا هيلينا.

بعد ذلك، واست نفسها بالتفكير في أن الليل لا يحب أن يتجسسوا على أسراره.

القمر

القمـر الناضـج يحبّـل الأرض، ويجعـل الشـجرة المقطوعـة تواصـل الحياة في خشبها.

القمر المكتمل يهيج غريبي الأطوار، والشاذين، والنساء، والبحر.

القمر الأخضر يقتل الزروع.

القمر الأصفر يأتي بعاصفة.

القمر الأحمر يأتي بالحرب والطاعون.

القمر الأسود، اللاقمر، يخلّف العالم كئيباً والسماء بكماء.

عنـدما كانـت كاتالينـا ألفاريـث إنسـوا تخطـو خطواتهـا الأولى، كانت ترفع ذراعيها إلى السماء التي بلا قمر، وتنادي:

- قمر، تعال يا قمر!

أهل النور

كـان لكاتالينـا كثير مـن الأصـدقاء المـرئيين، ولكـن لا يمكـن حملهم معها.

أما غير المـرئيين بالمقابـل، فكـانوا يرافقونهـا إلى كـل مكـان. هـي تقول إنهم عشرون. فهي لا تعرف أن تعدّ أكثر من ذلك.

حيثما تذهب، تذهب معهم. تُخرجهم من جيوبها، تضعهم على راحة يدها وتتبادل الحديث معهم.

بعد ذلك تقول لهم «تشاو، إلى اللقاء غداً»، وتنفخ عليهم باتجاه الشمس.

وكان المرئيون ينامون في الضوء.

مرجان

كانت الشمس تمسك به، ومرجان يهرب. يطير على الرمل، يتمـاوج مع الموج. وكان ذلك الاندفاع الأحمر يبعث الرغبة في التصفيق.

لكـن مرجـان يـدعى بهـذا الاسـم بسـبب عادتـه فـي القرصـنة،

وضحاياه لا يعتبرونه مدهشاً. مرجان النطاط النباح، تلاحقه الشمس، ويلاحقه كذلك صاحب كرة تنس، أو سندويش، أو فردة خف، أو لباس داخلي سرقه ليغطس في الماء والغنيمة بين أسنانه.

لم تكن ثمة طريقة لجعله يتعقل. فحتى الآن، وليكن ذلك معلوماً، لم يره أحد هادئاً، ولم يُبدِ قط أدنى ملامح التعب أو الندم.

كانت قد مضت على مرجان أربع سنوات وهو يمارس هذه الألعاب الكلبية في الدنيا، عندما جلس مانويل مونتيفيردي، وهو في مثل سن مرجان، على صخرة ليفكر في المسألة، ثم قال:

- أجل، صحيح أن مرجان يسيء السلوك. ولكنه يُضحكنا.

ليو

أحس ريكاردو مارتشيني أن ساعة الحقيقة آتية، فقال:

- هلم بنا يا ليو، علينا أن نتكلم.

مضيا كلاهما معاً، صعوداً في الشارع. مشيا لوقت لا بأس به في حي سابيدرا، متجولين، بصمت. كان ليوناردو يتخلف كثيراً، مثلما هي عادته؛ ثم يسرع الخطى بعد ذلك ليلحق بريكاردو الذي يمشي ويديه في جيبيه، وجبينه مقطب.

عند الوصول إلى الساحة، جلس ريكاردو. ابتلع لعاباً، ضغط وجه ليوناردو بين يديه، وناظراً إلى عينيه، انطلق في الكلام:

- انظر يا ليو، اعذرني لأني أخبرك، ولكنك لست ابن بابا وماما، ومن الأفضل أن تعرف يا ليو أنك التُقطت من الشارع.

تنهد بعمق.

- كان عليّ أن أخبرك بذلك يا ليو.

لقد عُثر على ليوناردو في القمامة، وهو حديث الولادة، ولكن ريكاردو كان يفضل أن يخفي عنه هذه التفاصيل.

عندئذ رجعا إلى البيت.

كان ريكاردو يمشي وهو يصفر.

وكان ليوناردو يتوقف عند جذوع أشجاره المفضلة، ويحيي الجيران بهز ذيله، وينبح على ظل قط هارب.

كان الجيران يحبونه لأنه بني وأبيض، مثل قميص «البلاتنسي»، نادي كرة القدم في الحي، والذي لم يكن يكسب أي مباراة تقريباً.

لورد تشتشستر

على أحد شواطئ التخييم الكثيرة في بوينس آيرس، سمعته راكيل يبكي. أحدهم ألقى به بين السيارات.

انضم إلى البيت، وسُمي لورد تشتشستر. كان حديث الولادة، ولكنه باهت اللون وعنيد. وصار أعور فيما بعد، عندما كبر وخاض مبارزة حب من أجل القطة ميلونغا.

في إحدى الليالي، بينما كانت راكيل وزوجها خوان أمارال غارقين في أعمق نوم، جعلتهما زعقات مواءٍ شرسة يقفزان من السرير. كان لورد تشتشستر يزعق كما لو أنهم يسلخونه. أمر غريب، لأنه كان قبيحاً، ولكنه صموت.

- ***لا بد أن شيئاً يؤلمه كثيراً*** - قال خوان.

تتبعا أثر الصرخات، ووصلا إلى أقصى الممر. أرهفت راكيل سمعها، وأبدت رأيها:

- ***إنه ينبهنا إلى وجود تسرب ماء.***

تجولا في أنحاء البيت الكبير القديم، إلى أن حددا موضع التسرب في الحمام.

- ***هذا الأنبوب يتسرب منه الماء دائماً*** - قال خوان.

- ***سوف ينفجر*** - قالت راكيل متخوفة.

تجادلا متبادلين هذا الرأي أو ذاك، إلى أن نظر خوان إلى الساعة، إنها تقارب الخامسة صباحاً، فتوسل وهو يتثاءب:

- ***فلنذهب للنوم.***

وأصدر حكمه:

- لورد تشتشستر مجنون تماماً.

وكانا على وشك دخول غرفة النوم، يلاحقهما زعاق الهرّ، عندما تململ السقف القديم المشقق، وانهار على السرير.

بيبا

كانت بيبا لومبين منهوكة جداً بفعل السنين. لم تعد تنبح؛ وصارت تقع وهي ماشية. دنا منها القط مارتينهو ولحس وجهها. كانت بيبا توقفه عند حده دائماً، تزمجر وتكشف له عن أسنانها؛ ولكنها في هذه المرة الأخيرة، تركته يقبلها.

صار البيت صامتاً، فارغاً من دونها.

وفي الليالي التالية، حلمت هيلينا بأنها تطبخ في قدر مثقوبة القعر، وحلمت أيضاً بأن بيبا تتصل بها بالهاتف، غاضبة لأننا وضعناها تحت التراب.

بيريث

عندما أكملت ماريانا ماكتاس ست سنوات، أهدى إليها أحد الجيران في كاليّا دي لا كوستا صوصاً أزرق.

لم يكن للصوص ريش أزرق، يطلق ومضات ضاربة إلى البنفسجية تحت الشمس وحسب، بل كان يبول كذلك زرقة، ويزقزق زرقة. لقد كان معجزة من الطبيعة، ربما بمساعدة حقنة أنيلين في البيضة.

عمدته ماريانا باسم بيريث. وكانا صديقين. يمضيان ساعات في تبادل الحديث على المصطبة، بينما بيريث ينقر فتات الخبز.

لم يعش الصوص إلا قليلاً. وعندما وصلت تلك الحياة الزرقاء القصيرة إلى نهايتها، جلست ماريانا على الأرض، كما لو أنها لا تريد النهوض إلى الأبد. وأكدت، ونظرها مصوب إلى بلاطة في الأرضية:

- العالم محزن من دون بيريث.

أناس فضوليون

سوليداد في الخامسة من العمر، ابنة خوانيتا فيرناندث:

- ***لماذا لا تأكل الكلاب الحلوى؟***

فيرا في السادسة من العمر، ابنة إلسا فيياغرا:

- ***أين ينام الليل؟ أينام هنا، تحت السرير؟***

لويس في السابعة من العمر، ابن فرانثيسكا بيرموديث:

- ***هل سيغضب الرب، إذا كنت لا أؤمن به؟ أنا لا أدري كيف أقول له ذلك.***

ماركوس في التاسعة، ابن سيلفيا عوّاد:

- ***إذا كان الرب قد صنع نفسه بنفسه، فكيف استطاع أن يصنع ظهره؟***

كارليتوس في الأربعين، ابن ماريا سكاغليوني:

- ***أماه، في أي سن فطمتني عن ثديك؟ طبيبتي النفسية تريد معرفة ذلك.***

مؤشر الوفيات الطفلية

عندما كان عمر مانويل سنة ونصف السنة، أراد أن يعرف لماذا لا يستطيع إمساك الماء بيده. وفي الخامسة، أراد أن يعرف لماذا يموت الناس:

- الموت، ما هو؟

- جدتي ماتت لأنها كانت عجوزاً هرمة؟ ولماذا مات طفل صغير مثلي، رأيته أمس في التلفزيون؟

- المرضى يموتون؟ ولماذا يموت من هم غير مرضى؟

- هل الموتى يموتون لبعض الوقت، أم يموتون نهائياً؟

كانت لدى مانويل، على الأقل، إجابة على السؤال الذي يؤرقه أكثر من سواه:

- ***أخي فيليبه لن يموت أبداً، لأن لديه رغبة دائمة في اللعب.***

همس

كانت ليزا جاغواريبي تلعب في حديقتها، في ضواحي باسو فوندو. وكانت تعدّ أزرار فستانها وهي تقفز على ساق واحدة:

- واحد، اثنان، فاصولياء مع الرز.

وبينما هي تعدّ الأزرار، كانت تتكهن الزوج الذي سيمنحها إياه القدر. أتتزوج من ملك أم من قائد عسكري، من جندي أم من وغد؟

- ثلاثة، أربعة، فاصولياء في الطبق.

نطت حول نفسها في الهواء، وفتحت ذراعيها، وغنَّت:

- خمسة، ستة، سأتزوج الملك!

وحين استدارت، اصطدمت بساقيّ أبيها ووقعت على الأرض. الأب الهائل، وهي تراه من الأرض، قال لها:

- يكفي يا ليزينها. لقد انتهى الأمر.

هكذا عرفت أن العم مورو لم يعد موجوداً.

لقد ذهب إلى السماء، هكذا قالوا لها. وقالوا لها إن عليها أن تبقى هادئة وصامتة.

انقضت عدة أيام، وجاءت الأعياد.

على ذلك العشاء في عيد الميلاد، اجتمع الأهل. واكتشفت ليزا أقارب لم تكن قد رأتهم من قبل، حشد من أناس بملابس الحداد.

العمة جيسيلا جلست على رأس المائدة الطويلة. الفستان الأسود بياقته العالية المزررة، بدا بديعاً عليها، إنها ملكة؛ ولكن ليزا لم تتجرأ على قول ذلك.

برأسها المرفوع، ونظرتها الساهمة في الهواء، لم تذق العمة جيسيلا لقمة واحدة، ولم تقل شيئاً. إلى أن تكلمت عند انتصاف الليل، في ذروة الصخب:

- يقولون إن حب الرب واجب. أما أنا فأكرهه.

قالت ذلك بنعومة، بما يشبه الصمت تقريباً. ولم يسمعها أحد سوى ليزا.

كلمات بذيئة

كانت «شيمينا داهم» تتنقل بتوتر كبير جداً، لأنها ستبدأ في ذلك الصباح حياتها المدرسية. فكانت تركض من مرآة إلى أخرى في أرجاء البيت كله؛ وفي واحدة من حركات الذهاب والإياب تلك، اصطدمت بحقيبة ووقعت مبعثرة على الأرض. لم تبك، ولكنها غضبت:

_ ***ما الذي تفعله هذه الخراء هنا؟***

فمارست الأم التربية:

_ ***بنيتي، هذه كلمات لا تقال.***

فردت شيمينا وهي ما تزال مطروحة أرضاً، بفضول:

_ ***ولماذا توجد يا أماه الكلمات التي لا تقال؟***

تدريبات عملية

خواكين دي سوثا كان يتعلم القراءة، ويمارسها بقراءة الإعلانات التي يراها. وكان يظن أن الميم هو أهم حرف في الأبجدية، لأن كل شيء يبدأ به:

ممنوع المرور
ممنوع إدخال الكلاب
ممنوع إلقاء القمامة
ممنوع التدخين
ممنوع البصق
ممنوع الوقوف
ممنوع لصق الإعلانات
ممنوع إشعال النار
ممنوع الضجيج
ممنوع...



أنظمة

تشيما كان يلعب بالكرة، الكرة كانت تلعب مع تشيما، كانت الكرة عالماً من الألوان، وكان العالم يطير، حراً ومجنوناً، يطفو في الهواء، ينط أينما شاء، يحط هنا، يطفر هناك؛ ولكن الأم جاءت وأمرت بالتوقف.

التقطت مايا لوبيث الكرة وخبأتها وراء قفل. قالت إن تشيما خطر على الأثاث، على البيت، على الحي، وعلى مدينة مكسيكو، وأجبرته على انتعال الحذاء، وعلى الجلوس كما يجب، وعلى إنجاز واجباته للمدرسة.

- ***الأنظمة هي الأنظمة*** - قالت.

رفع تشيما رأسه:

- ***أنا أيضاً لي أنظمتي*** - قال. وقال إنه يجب على الأم الطيبة، في نظره، أن تنصاع لأنظمة ابنها:

- ***أن تسمحي لي باللعب طوال الوقت الذي أريده، وأن تتركيني أمشي حافياً، وألا ترسليني إلى المدرسة ولا إلى أي مكان مشابه، وألا تجبريني على النوم مبكراً، وألا نبدل بيتنا في كل يوم.***

ثم أضاف وهو يتطلع إلى السقف، كمن هو غير راغب في الأمر:

- ***وأن تكوني خطيبتي.***

العافية

في إحدى المحطات، اندفع حشد من الصبية إلى حافلة الأمنيبوس.

كانوا محملين بكتب ودفاتر وأحمال متنوعة؛ ولم يكونوا يتوقفون عن الكلام والضحك. يتكلمون جميعهم معاً، بأصوات صارخة، متدافعين، متمايلين، ويضحكون من أي شيء ومن لا شيء.

توجه سيد إلى أندريس براليتش، وهو أحد أكثرهم صخباً، ووبخه قائلاً:

- ***ما الذي أصابك أيها الصبي؟ هل أنت مريض بداء الضحك؟***

وبالعين المجردة كان يمكن التأكد من أن جميع ركاب ذلك الأمنيبوس قد خضعوا لعلاج، وأنهم قد شفوا تماماً.

المعلم

كان تلاميذ الصف السادس، في إحدى مدارس مونتيفيديو، قد نظموا مسابقة للروايات.

جميعهم شاركوا في المسابقة.

وكنا ثلاثة في لجنة التحكيم. المعلم أوسكار: معصما قميص باليان، وراتب بائس؛ إضافة إلى تلميذة، تمثل المشاركين، وأنا.

في حفل توزيع الجوائز، مُنع دخول الآباء والكبار الآخرين. وقدمنا نحن أعضاء لجنة التحكيم قراءة للمحضر الذي أبرز مزايا كل واحد من الأعمال. وقد كسبت جميعها الجائزة، ونال كل فائز موجة من التصفيق، ومطراً من القصاصات والأشرطة الورقية الملونة، وميدالية مقدمة من جواهري الحي.

بعد ذلك، قال لي المعلم أوسكار:

- إننا نشعر بأننا متحدين معاً إلى حدّ أرغب معه في جعلهم جميعهم يرسبون.

إحدى التلميذات، وقد جاءت إلى العاصمة من قرية ضائعة في الريف، وقفت تتبادل الحديث معي. قالت لي إنها لم تكن، من قبل، تتكلم كلمة واحدة، ثم أوضحت لي وهي تضحك بأن المشكلة الآن في أنها لا تستطيع التوقف عن الكلام. وقالت لي إنها تحب المعلم، تحبه كثيررررررا، لأنه علّمها التخلص من خوفها من أن تخطئ.

التلاميذ

إذا ما سألتهم المعلمة ماذا يريدون أن يصيروا عندما يكبرون، البنات يصمتن. وبعد ذلك، يتكلمن بصوت خافت، معترفات: أن أصير أكثر بياضاً، أن أغني في التلفزيون، أن أنام حتى الظهيرة، أن أتزوج من شخص لا يضربني، أن أتزوج من شخص يملك سيارة، أن أذهب بعيداً وألا يجدوني أبداً.

والصبيان يقولون: أن أصير أكثر بياضاً، أن أصير بطلاً عالمياً بكرة القدم، أن أصير رجلاً عنكبوتاً وأمشي على الجدران، أن أسطو على مصرف ولا أشتغل بعدها، أن أشتري مطعماً وآكل دائماً، أن أذهب بعيداً ولا يجدوني أبداً.

إنهم لا يعيشون بعيداً جداً عن مدينة توكومان، ولكنهم لا يعرفونها ولو بالرؤية. يذهبون إلى المدرسة، مشياً على الأقدام أو على حصان، يذهبون يوماً، ويتغيبون اثنين، لأنهم يتناوبون مع أخوتهم استخدام صدرية المدرسة الوحيدة، وزوج الأحذية الوحيد. وأكثر ما يسألون المعلمة عنه هو: متى تأتي وجبة الغداء.

كوندورات

على متن بغلة، على متن دراجة نارية، على متن نفسه بالذات، يجوب فيدريكو أوكارانثا جبال سالتا. يتنقل معالجاً الأفواه في تلك العزلات، في مراتع الفقر تلك. وكان وصول طبيب الأسنان، عدو الألم، خبراً طيباً؛ وقد كانت الأخبار الطيبة قليلة هناك، مثلما هو قليل كل شيء.

كان فيدريكو يلعب كرة القدم مع الأطفال الذين نادراً ما يذهبون إلى المدرسة. فهم يتعلمون ما يعرفونه في أثناء رعيهم الماعز ومطاردتهم كرة من الخرق بين الغيوم.

وبين هدف وهدف، كانوا يتسلون بالسخرية من نسور الكوندور. فهم يستلقون على الأرض الصخرية، فاتحين أذرعهم كصليب، وعندما تنقض نسور الكوندور مندفعة، يقفز الصغار المتظاهرون بالموت.

يد عاملة

محمد أشرف لا يذهب إلى المدرسة.

منذ طلوع الشمس إلى أن يطل القمر، يقطع، ويعيد التقطيع، ويثقب، ويركب ويخيط كرات قدم، تخرج متدحرجة من قرية عمر كوت الباكستانية، إلى ستادات العالم.

محمد عمره إحدى عشرة سنة. وهو يفعل هذا منذ الخامسة من عمره.

لو كان يعرف القراءة، والقراءة بالإنكليزية، لاستطاع فهم الكتابة التي يلصقها على كل كرة ينجزها: ***هذه الكرة لم تصنع للأطفال.***

التعويض

دون بيت ودون وجهة، دون حيث ودون إلى أين، عاش خوسيه أنطونيو غوتيريث وترعرع في شوارع مدينة غواتيمالا.

كي يتجنب الجوع، كان يسرق. وكي يتجنب الوحدة، يستنشق غراء كيماوياً ويتحول عندئذ إلى نجم هوليودي.

في أحد الأيام مضى، مضى بعيداً، إلى الشمال، إلى الجنة. متجنباً الشرطة، متسللاً إلى أربعة عشر قطاراً، وسائراً ألف ليلة وليلة، وتمكن من الوصول إلى كاليفورنيا. وهناك حشر نفسه وبقي.

بعد ست سنوات، في أشد أحياء العاصمة الغواتيمالية بؤساً، أيقظت الطّرقات إننغراثيا غوتيريث. سادةٌ يرتدون الزي العسكري جاؤوا ليعلموها بأن أخاها خوسيه أنطونيو، الذي انضم إلى قوات المارينز، قد مات في العراق.

طفل الشوارع ذاك، كان أول إصابة في صفوف القوات الغازية في حرب عام 2003.

لفت السلطات نعشه براية الخطوط والنجوم، وقدمت إليه التشريفات العسكرية. وجعلوا منه مواطناً للولايات المتحدة، وهي الجائزة التي كانوا قد وعدوه بها.

التلفزيون الذي نقل الاحتفال في بث حي ومباشر، أشاد ببطولة الجندي الشجاع الذي سقط وهو يقاتل ضد القوات العراقية.

بعد ذلك عُرف أنه قُتل ***بنيران صديقة***، وهي التسمية التي يطلقونها على الرصاص الذي يخطئ في إصابة العدو.

الحصان

مساء بعد مساء، كان باولو فرييري يتسلل خلسة إلى صالة السينما في حي كاسا فورتي، في مدينة ريسيفي، ليرى ويعيد رؤية أفلام توم ميكس دون أن يرمش.

كانت مآثر «*الكابوي*» ذي القبعة المجنحة، الذي ينقذ السيدات المسالمات من أيدي الأشرار، تبدو له مسلية، غير أن ما كان يستثير إعجاب باولو حقاً هو تحليق حصان توم. ولكثرة ما رأى الحصان وأُعجب به، صار صديقاً له؛ ومنذ ذلك الحين رافقه حصان توم ميكس مدى الحياة.

تجول باولو كثيراً. عمله كمربٍ ثوري، كرجل يُعلّم ليتعلم، قاده إلى دروب العالم. وعلى امتداد الدروب والسنين والجوائز والعقوبات، ظل ذلك الحصان الذي بلون الضوء يعدو في ذاكرته، وفي أحلامه، دون أن يتعب قط.

كان باولو يبحث عن أفلام طفولته تلك.

- *توم ماذا؟*

لم يكن لدى أحد أدنى فكرة عنه.

إلى أن وجد الأفلام أخيراً، وهو في الرابعة والسبعين، في مكان في نيويورك. وعاد لرؤيتها. كان شيئاً لا يصدق: فالحصان المضيء، صديقه منذ الأزل، لا يشبه في شيء، ليس فيه أدنى شبه بحصان توم ميكس.

عندما عانى من هذا الكشف، دمدم باولو:

- *ليس الأمر مهماً، لكنه مهم.*

الشقاوة الأخيرة

بالاستماع إلى حكايات الكاتب مونتيرو لوباتو أو قراءتها، تعلم أطفال البرازيل أن يكونوا برازيليين وسحرة. وعندما توفي الكاتب، كانوا هم أيتامه.

ولكن الأطفال لم يذهبوا إلى المقبرة. خطيبان متقدمان في السن،

ألقيا كلمات الوداع لمونتيرو لوباتو. وكل واحد منهما ادعى بأنه كان عضواً في حزبه: روسيني كامارغو غوارنيني ودع الرفيق الشيوعي، وفيبوس جيكوفاتي تحدث مكرِّماً الرفيق التروتسكي.

ما كادا ينتهيان من خطابيهما التأبينيين، حتى اشتبك الاثنان في جدال فظ. كانا يتجادلان بصيغة الجمع، مثلما يليق بشؤون الثورة العالمية:

- *مرتدون!*
- *تحريفيون!*
- *بيروقراطيون!*
- *استفزازيون!*
- *منتحلون!*
- *خونة!*
- *قتلة!*

كانت التهم تذهب وتجيء. وراحت نبرة المعركة الإيديولوجية تتصاعد، إلى أن انتقل المتجادلان إلى القبضات، وفي تبادلهما الضربات، سقط كلاهما في القبر المفتوح.

دونيا بوريزينها، أرملة الكاتب، كانت ترفع ذراعيها متوسلة احترام المتوفى.

ربما لم تكن تعلم أن مونتيرو لوباتو كان يموت ثانية، ولكنه كان يموت من الضحك. فهو من كان يوجه المشاجرة.

قارورة مع التيار

ذات صباح، فقد خورخي بيريث عمله. لم يتلق أي تفسير، ولم يكن هناك أي تحذير: ففجأة، في طرفة عين، طُرد من عمله الذي مارسه لسنوات طويلة في مصفاة البترول.

راح يمشي. مشى دون أن يدري لماذا، ودون أن يدري إلى أين، منصاعاً لساقيه اللتين كان فيهما من الحياة أكثر مما فيه. في الوقت

الذي لا يخلّف شيء أو أحد ظلاً في الدنيا، قادته قدماه على امتداد الشاطئ الجنوبي لبويرتو روساليس.

وفي أحد المنعطفات، رأى قارورة. وكانت القارورة، العالقة بين القصب، مغلقة بسدادة وشمع. بدت كما لو أنها هدية من الرب، سلوى لنكبته، لكن خورخي نظفها من الوحل وتبين له أنها غير مملوءة بالنبيذ، وإنما بأوراق.

أفلتها من يده، وواصل المشي.

وبعد أن مشى قليلاً، كرّ عائداً.

كسر عنق القارورة على حجر، ووجد فيها بعض الرسوم، مطموسة قليلاً بفعل الماء المتسرب. كانت رسوم شموس ونوارس. شموس تطير، ونوارس تتلألأ. وكانت هناك رسالة أيضاً، آتية من بعيد، مبحرة عبر البحر، وموجهة إلى من يجد هذه الرسالة:

مرحباً، أنا مارتين.

أنا أحب البيض المقلي واللون الأخضر.

أنا أحب الرسم.

أنا أبحث عن صديق عبر دروب الماء.

دروب الماء

بدا له لطيفاً جداً. ولم يكن كايتانو يعرفه. فالفتى الذي كان يمضي على الشاطئ ويبيع السرطانات، دعاه للقيام بجولة في زورقه.

- ***أرغب في ذلك*** - قال كايتانو - ***ولكنني لا أستطيع. هناك أشياء يتوجب عليّ القيام بها. مشتريات، معاملات...***

ذهبا معاً. ذهبا في الزورق إلى السوق وإلى المصرف وإلى البريد وإلى كل الأمكنة. على امتداد الشاطئ، من الضفاف، توغلا في المدينة؛ ولمجرد المتعة في النظر إليها، تأخرا طويلاً وهما يطفوان على الماء الساكن.

هكذا جرى الاكتشاف الثاني لمدينة سان سلفادور دي باهيا.

فهناك مدينة هي مدينة المشي، ذلك الصخب الذي لا يهدأ أبداً، ومدينة أخرى مختلفة جداً هي مدينة الإبحار. لم يكن كايتانو فالوسو قد جابها بهذه الطريقة قط، في جانبها المبلل، في جانبها الساكن.

ومع المساء، أعاد الزورق كايتانو إلى الشاطئ الذي حمله منه. وعندئذ رغب في أن يعرف اسم الصبي الذي كشف له عن المدينة الأخرى التي كانت عليها المدينة. وواقفاً في الزورق، وجسده الأسود يلمع تحت أضواء الشمس الأخيرة، أخبره الصبي باسمه:

- اسمي ماركو بولو. ماركو بولو ميندیس بيريرا.

الماء

في بداية الأزمنة، لم يكن خصر النملة نحيلاً.

يقول ذلك سفر التكوين، حسب النسخة المتداولة شفاهاً على الساحل الكولومبي على المحيط الهادي: النملة كانت مكورة وممتلئة كلها بالماء.

ولكن الرب نسي أن يبلل العالم. وعندما تنبه إلى سهوه، طلب منها المساعدة. فرفضت النملة ذلك.

عندئذ ضغطت أصابع الرب على كرشها.

وهكذا ولدت البحار السبعة والأنهار جميعها.

أسياد الماء

هناك شركات مثل هذه النملة، ولكنها أكبر منها بكثير.

في أواخر القرن العشرين، اندلعت حرب المياه في كوتشابامبا.

عندما عمدت شركة بكتل الأمريكية إلى مضاعفة التعرفة بين عشية وضحاها، انطلقت تجمعات السكان الأصليين من الوديان وحاصرت كوتشابامبا، وانتفضت المدينة نفسها كذلك، وانتصبت متاريس، وأضرمت النار بفواتير الماء، في محرقة كبيرة، في ساحة السلاح.

ردت عليهم حكومة بوليفيا بالرصاص، مثلما هو معهود. فُرضت

حالة الطوارئ، وكان هناك قتلى ومعتقلون، ولكن الانتفاضة استمرت، لا يمكن وقفها، يوماً بعد يوم، وليلة بعد ليلة، طوال شهرين، إلى أن تمكن أهالي كوتشابامبا، في الهجمة الأخيرة، من كسر خصخصة الماء واستعادوا القدرة على ري جسومهم ومزروعاتهم.

في مدينة لاباز، بالمقابل، لم تَحُل الاحتجاجات دون أن تسيطر شركة سويز الفرنسية على المياه. التعرفة صعدت حتى السحاب، ولم يستطع أحد دفع الحساب. ما هو السبب يا ترى، تساءل الخبراء الأوروبيون والحكام المحليون. وكان السبب واضحاً: إنه التخلف الثقافي. فالبوليفيون الفقراء، وهم جميع البوليفيين تقريباً، يجهلون أنه عليهم الاستحمام مرة في اليوم، مثلما هي العادة في أوروبا منذ حوالي خمس عشرة دقيقة، ويجهلون كذلك أنه عليهم أن يغسلوا السيارة التي لا يملكونها.

ماركات الماء

أبدوا إيماءة استنكار حيال كؤوس الماء العادي، وعلى الفور ظهر الجرسون المختص بالمشروبات عند المائدة، وقرأ بصوت عالٍ قائمة طويلة من أصناف المياه المعبأة في قوارير.

تذوق الزبائن بعض الماركات المجهولة في كاليفورنيا، كل قارورة منها بحوالي سبعة دولارات.

شربوا عدداً من القوارير، بينما هم يأكلون. وقد بدا لهم رائعاً ماء ***الأمازون***، من الغابة البرازيلية، ورائعة الماركات الإسبانية من جبال البيرينيه، ولكن الأفضل كان ماء دي روبين[1].

ومن روبين، من الصنبور، أتت كلها. القوارير ذات البطاقات المطبوعة في مطبعة متواطئة، مُلئت جميعها من صنبور المطبخ نفسه.

جرى تصوير هذا الغداء، بكاميرا خفية، في مطعم غالٍ ومشهور في لوس أنجلوس. وعُرض في التلفزيون، في برنامج بن آند تيلر.

---

[1] ماء دي روبين Eau du Robinet بالفرنسية في الأصل، وتعني ماء الصنبور.

النافورة

في القرن الثاني عشر، عندما كان الماء مجانياً مثل الهواء، ولم تكن ماركات الماء قد وُجدت بعد، التقى البابا والذبابة عند حافة النافورة.

البابا هو أدريان الرابع، الحبر الأعظم الإنكليزي الوحيد في تاريخ الفاتيكان كله، عاش حياة شديدة الاضطراب بحروبه المتواصلة ضد وليم الشرير وفريديك برباروجا. أما عن حياة الذبابة، فلم تُعرف أحداث تستحق الذكر.

بمعجزة إلهية، وبقدرية القدر، التقت دروبهما عند نافورة الماء في ساحة قرية «أغناني»، في ظهيرة يوم صيفي من عام 1159.

عندما فتح الأب المقدس الظمآن فمه ليتلقى دفقة الماء، دخلت الحشرة المجنحة في حلقه. اندست الذبابة خطأ في ذلك المكان الذي لم يكن مشوقاً بأي حال، لكن جناحيها لم يستطيعا الخروج، ولم تستطع أصابع البابا إخراجها.

وفي المعركة، مات كلاهما. البابا المختنق، مات بالذبابة. والذبابة الحبيسة، ماتت بالبابا.

البحيرة

كان هولدن كالفيلد يستمع إلى هذر أستاذه في صف التاريخ. ولكي يهرب من تلك الرتابة الفظيعة، راح يفكر في بطات السنترال بارك في نيويورك. أين يذهب البط في الشتاء، عندما يغطي الجليد البحيرة؟ وكانت المسألة تهمه أكثر من اهتمامه بالمصريين ومومياءاتهم.

لقد روى ذلك سالينجر في رواية مشهورة له.

بعد سنوات من ذلك، كان أدولف جيلي يتمشى دون وجهة معينة، ووصل إلى السنترال بارك. لم يكن هناك جليد. كانت ظهيرة يوم خريفي، وكان هناك أستاذ يقرأ هذه الصفحات من رواية سالينجر، بصوت عال، على تلاميذه.

وكان التلاميذ يجلسون في حلقة.

عندئذ اقترب سرب من البط سابحاً بأقصى سرعة. وظلت البطات هناك، ملتصقة بالضفة، بينما الأستاذ يقرأ الكلمات التي تتحدث عنها.
بعد ذلك، ذهب الأستاذ، يتبعه تلاميذه. وذهبت، كذلك، البطات.

النهر

قبل ثلاثة قرون، هرب النهر من الفرنسيين. وفي ما بعد، لم يستطع الإنكليز أيضاً الإمساك به. فهو لم يكن يوماً في المكان الذي تقول الخرائط إنه موجود فيه. كان أحد المستوطنين يرسم مساره في أحد الأيام، وفي ليلة ذلك اليوم، يهرب النهر ويمضي مندفعاً في اتجاه آخر.

في العام 1830، جرى اصطياده. نمت مدينة شيكاغو مسمرة على ضفافه، كيلا يهرب بعدها أبداً. وفي نهاية القرن التاسع عشر، أكملت المدينة تحضير المتوحش بإجباره على التدفق في اتجاه معكوس، وبحبسه بين جدران إسمنتية عالية.

في صباح يوم من ربيع 1992، وبعد أن كان النهر قد أمضى سنوات طويلة من حسن السلوك، استيقظت المدينة لتجد أقدامها مبللة. إنها طريقة سيئة في الاستيقاظ. كانت أنفاق المترو ترشح، والأقبية ترشح. فالنهر المكبوح قد أفلت، ولم تكن هناك طريقة لوقفه: كان ينبثق من مسامات الجدران، في قطرات أول الأمر، وبعد ذلك في دفقات، إلى أن داهم المدينة وأغرق الشوارع.

بعد عدة أيام من العراك، أُلحقت الهزيمة بالمتمرد.

ومنذ ذلك الحين صارت المدينة تنام وهي تغمض عيناً واحدة فقط.

أصوات

مشى بيدرو سعد على مياه نهر الفولغا التي جمدها الشتاء. كان ذلك في وسط روسيا، في مساء يوم شديد البرودة. كان وحيداً، ولكنه مع رفقة: فبينما هو يمشي، كان يشعر، من خلال نعلي حذائه السميكين، بنبض النهر الحي تحت الجليد.

الفيضان

كانت الشوارع كأنها من شغل محل أزهار؛ والكنائس كأنها روائع مشغل حلويات؛ والقصور كأنها ألعاب هدايا.

ولكن أنتيغوا الجميلة، عاصمة غواتيمالا، كانت تعيش وقلبها في فمها، ما بين قيء الأرض الغاضبة وهزاتها. وما لا يُدفع دموعاً، يمضي في التنهدات.

في 1773، احدودبت الأرض كما لم يحدث من قبل. وكان الأسوأ أن النهر خرج من مجراه وأغرق الناس والبيوت. ومن ظلوا على قيد الحياة، لم يجدوا مفراً من الهرب فوراً لتأسيس مدينة أخرى، في مكان بعيد.

النهر الذي فاض كان يسمى، وهو مازال يسمى، ***بينساتيفو*** (المستغرق في التفكير).

حلزونات

نطلب العون من الآلهة، من الشياطين، من نجوم السماء. أما من الحلزونات، فليس هناك من يطلب عوناً.

ولكن، بفضل الحلزونات لا يموت هنود سيبيبو غرقاً، في كل مرة يتعكر فيها مزاج نهر أوكايالي، وتطغى مياهه الصاخبة على الأرض، وتحمل معها كل ما تجده في طريقها.

الحلزونات تنذر. فقبل كل نكبة، تترك بيوضها ملتصقة بجذوع الأشجار، أعلى من المستوى الذي تصله مياه الفيضان. وهي لا تخطئ أبداً في حساباتها.

الطوفان

ضَجِراً من كثرة العصيان والخطيئة، قرر الرب أن يمحو، عن وجه الأرض، كلَّ اللحم الذي خلقته يداه. سيُباد الناس والبهائم والأفاعي، وحتى طيور السماء.

عندما أعلن العالم جوهانس ستوفير عن الموعد الدقيق للطوفان الكوني الثاني، والذي سيدفن كل شيء تحت الماء في اليوم الرابع من شباط 1524، هز كونت إيغلهيم كتفيه بازدراء. ولكن، كان أن ظهر له الرب شخصياً عندئذ، في الحلم، بلحية من الصواعق، وصوت راعد، أعلن له:

- *ستموت غرقاً*.

وكونت إيغلهيم الذي كان قادراً على ترتيل الكتاب المقدس كاملاً عن ظهر قلب، غادر الفراش وأمر بإحضار أفضل نجاري المنطقة على وجه السرعة. وفي مثل لمح البصر، كانت هناك سفينة هائلة تطفو على مياه نهر الراين، بارتفاع ثلاثة طوابق، مصنوعة من أخشاب راتنجية ومجلفطة من الداخل والخارج. دخل الكونت فيها مع أسرته وكل خدمه، ومع فائض من المؤونة، وحمل إلى السفينة زوجاً، من ذكر وأنثى، من كل الدواب التي تملأ الأرض والهواء. وراح ينتظر.

هطل المطر في اليوم الموعود. ليس كثيراً، بل أقرب إلى الرذاذ؛ لكن القطرات الأولى كانت كافية لإطلاق الهلع، واقتحمت جموع أصابها الجنون المرسى وسيطرت على السفينة.

أبدى الكونت مقاومة، فألقي به إلى مياه النهر، حيث مات غرقاً.

شباك

على رمال الجرف الرملي لغواراتيبا، ترن قهقهات النوارس. فالقوارب تُفرغ أسماكاً وأحداثاً.

أحد الصيادين، ويدعى كلاوديونور دا سيلفا، عصر رأسه، وأنَّ بندم. كان قد اصطاد سمكة قُجَاج ضخمة الحجم، ولكن السمكة أشارت إلى الوراء بذيلها، وقالت: «هناك ورائي سمكة أخرى، أكبر حجماً مني بكثير». فصدقها وتركها تهرب.

جورج أنتونس يعرض ملابسه الجديدة: كان قد أمضى عدة أيام تائهاً في البحر، وقد خلفته موجة عنيفة عارياً، وحملت معها جركن الماء العذب. وكان قد استسلم للموت من الشمس والعطش، عندما جلبت له الشبكة سمكة قرش، في بطنها علبة كوكاكولا مبردة

جيداً، وقبعة، وبنطالاً وقميصاً جديدين.

ويضحك رينالدو ألفيس بكل أسنانه الاصطناعية، ويقول: ليست مسألة ازدراء، ولكنه حسن طالع، وما يسمى حسن الطالع، ناله هو. فبينما هو في ذروة الإبحار، فَقَدَ أسنانه الاصطناعية. عطس، فطارت أسنانه الاصطناعية إلى الماء. غطس، بحث عنها، ولم يجدها. وبعد يومين من ذلك، حالفه الحظ باصطياد سمكة موسى التي كانت تستخدم أسنانه.

القريدس

في ساعة وداع الشمس، يهيئ الصيادون شباكهم على شواطئ خليج كاليفورنيا.

وعندما تلقي الشمس، هذه الساحرة العجوز، وميضها الأخير، تكون الزوارق قد بدأت تتسل بين جزر الساحل الصغيرة. وهناك تبقى بانتظار القمر.

خلال النهار، تكون قشريات القريدس مختبئة في أعماق الماء، ملتصقة تماماً بالوحل أو الرمل. وما إن يتبدى القمر في السماء، حتى تصعد. ضوء القمر يدعوها، وإليه تمضي. عندئذ يلقي الصيادون الشباك، المطوية على الأكتاف، فتنفتح الشباك مثل أجنحة في الهواء، وتحتجز القريدس عند سقوطها.

هكذا، وهي مسافرة نحو القمر، تجد قشريات القريدس نهايتها وضياعها.

لا يمكن لأحد، حين يراها، أن يقول إن لهذه الحيوانات الملتحية كل ذلك الميل إلى الشِّعر، على الرغم من شدة قبحها؛ ولكن بإمكان أي فم بشري أن يصادق على ذلك، حين يتذوقها.

اللعنة

ولدت وهي تدعى لانغلاند. إنها سفينة ذات ثلاثة صوارٍ وهيكل حديدي، كانت تحمل ملح البارود من تشيلي والغوانو من البيرو.

عندما أتمت عشرين سنة، تحول اسمها إلى ماريا مادري؛ وعندئذ بدأ سوء طالعها. واصلت القيام برحلاتها في اجتياز البحر، ولكن النكبات كانت تلاحقها، وكانت تمضي من سيئ إلى أسوأ.

في مطلع القرن، وكانت تعاني آلاماً من كثرة الأعطال، علقت السفينة في مرفأ بايساندو، وظلت هناك أسيرة، طوال أربعين سنة، بسبب نزاع قضائي معقد حول عقد لم تنفذه.

في 1942، أعيد تعويمها. وبدلت من جديد اسمها. صارت تدعى كلارا، وعادت إلى البحر. أبحرت بحمولة ألف طن من الملح.

بعد قليل من انطلاقها، وبينما كانت كلارا تهم بالخروج من نهر لابلاتا، تعالت في الأفق غمامة هائلة، لها شكل عمود من الغبار. علامة شؤم: انقضت ريح سهوب البامبا على السفينة، فحطمتها إلى فتات، وألقت ببقاياها إلى اليابسة. سقطت كلارا ميتة على شاطئ لاس ديليثياس، عند أقدام بيت. وكان بيت المصيف الذي يملكه لورينثو مارثينارو، الرجل الذي عمدها في المرة الثالثة، هناك في مرفأ بايساندو.

منذ ذلك الحين، لم تعد أي سفينة تجرؤ على تبديل اسمها في مياه الجنوب تلك. صحيح أن البحر حرّ؛ ولكن أبناء البحر ليسوا كذلك.

البحر

كان رافائيل ألبيرتي قد أمضى قرابة القرن في العالم، ولكنه كان يتأمل خليج قادش كما لو أنه يراه أول مرة.

من الشرفة، وهو مستلق تحت الشمس، كان يتابع دون تعجل النوارس والمراكب الشراعية، والنسيم الأزرق، وذهاب الزبد ومجيئه في الماء والهواء.

والتفت إلى ماركوس آنا، الصامت بجانبه، وقال له وهو يشدّ على ذراعه، كما لو أنه لم يعرف ذلك قط، كما لو أنه يعلم الأمر للتو:

- كم هي قصيرة الحياة.

العقاب

ملكةً وسيدةً كانت مدينة قرطاج، على الساحل الإفريقي. وصل محاربوها إلى أبواب روما، الخصم، العدو، وكانوا على وشك سحقها تحت سنابك خيولهم وأقدام فيلتهم.

بعد سنوات من ذلك، انتقمت روما. أُجبرت قرطاج على تسليم كل أسلحتها وسفنها الحربية، وقبلت مذلة التبعية ودفع الجزية. قبلت قرطاج كل شيء، أحنت رأسها. ولكن عندما أمرت روما بأن يغادر القرطاجيون البحر، ويذهبوا للعيش في الأراضي الداخلية، بعيداً عن الساحل، لأن البحر هو سبب كبريائهم وجنونهم الخطر، رفض القرطاجيون الذهاب: لن نقبل بهذا، لن نقبل أبداً. لعنت روما قرطاج، وحكمت عليها بالفناء. وإليها توجهت الجيوش الرومانية.

محاصرة من البر والبحر، صمدت المدينة ثلاث سنوات. لم يبق هناك ثقب في أهراء الحبوب يمكن البحث فيه، وكان أهلوها قد أكلوا حتى القردة المقدسة في المعابد. ومنسية من آلهتها، ومسكونة بأشباح، سقطت قرطاج. ستة أيام وست ليال استمر الحريق.

بعد ذلك، كنس المحاربون الرومان الرماد المدّخن، وغطوا الأرض بالملح، كيلا ينمو شيء أو أحد هناك.

مدينة كارتاخينا، على الساحل الإسباني، هي ابنة قرطاج. ومدينة كارتاخينا دي إندياس، في كولومبيا، التي ولدت بعد زمن طويل من ذلك، هي حفيدة قرطاج. وفي إحدى الليالي، كنت أتبادل الحديث، بصوت خافت، مع كارتاخينا دي إندياس، فاعترفت لي بسرها. قالت لي، إذا ما أراد أحد إجبارها يوماً على الذهاب بعيداً عن البحر، فإنها ستختار الموت أيضاً، مثلما ماتت جدتها.

عقاب آخر

ليس بسبب النفي وحده تفقد البلدات البحرية بحارها.

باليوم، وغداً، وفي كل يوم، ينقض المد الأسود، اللزج والقاتل،

على المياه وضفافها. في أواخر العام 2002، انشطرت ناقلة بترول إلى نصفين، وتقيأت سمومها على غاليسيا وما حولها.

الشواطئ السوداء بالبترول، امتلأت بالصلبان. الأسماك الميتة والطيور الميتة طفت على نتانة الماء.

الدولة؟ عمياء. والحكومة؟ صماء.

ولكن الصيادين، بزوارقهم الراسية، وشباكهم المعلقة، لم يكونوا وحيدين.

آلاف وآلاف المتطوعين واجهوا، معهم، الغزو المعادي. مسلحين بالرفوش والقدور وبما استطاعوا العثور عليه، راحوا يُعَرُّون بجهد، يوماً إثر يوم، وأسبوعاً إثر أسبوع، الرمال والصخور التي ألبسها البترول ثوب الحداد.

هل كانت تلك الأيادي الكثيرة بكماء؟ لم تُلق خطابات مسرحية. ولكنها كانت تقول بالغاليسية: *لن نسمح بهذا ثانية.*

وابل

انشقت السماء، انفتحت في شق طويل، وأفرغت كل ما فيها من مياه. أمطرت كما لو أن السماء تريد أن تُفرغ ما لديها إلى الأبد؛ وهطل المطر كله على البحر.

وعبر المياه الممتدة، الصاخبة، من الأفق إلى الأفق، كانت تبحر سفينة حربية. وعلى سطح السفينة، كان جندي شاب يستلقي، مستسلماً للبلل، ويداه تحت رقبته. وكان مستغرقاً في التساؤلات.

مع أنه كان يؤدي الخدمة العسكرية، إلا أن اختصاصه الحقيقي هو العلم. وهو لم يرَ من قبل قط، هطول المطر في أعالي البحار. وكان يبحث عن تفسير لمثل ذلك الخطأ الفاحش. وكعالم جيد، اعتقد ذلك الجندي، أو رغب في الاعتقاد، بأن الطبيعة تصاب بالجنون أحياناً، تتظاهر بالبلاهة، ولكنها تعرف دوماً ما الذي تفعله.

أمضى إسحاق أسيموف ساعات وساعات مستلقياً هناك، يتلقى زخات رصاص السماء، ولم يجد أية إجابة. لماذا تلقي الطبيعة الماء إلى البحر، وفيه فائض من الماء، بالرغم من وجود الكثير من الأراضي الميتة ظمأً، تتوسل من السحب عطاءها؟

الجفاف

توقف لامين سيناه وأخوته عن اللعب. فمنذ أن بدأ الجفاف، انهمكوا، دون جدوى، في حفر الأرض التي تقصفها الشمس.

عرّت الأم أذنيها وعنقها، باعت أقراطها وعقودها، ثم بدأت تبيع بعد ذلك ثيابها وأشياء البيت.

وفي وسط البيت الذي لم يعد فيه شيء، كانت تشعل النار، كل يوم، من أجل طهو القليل الذي يطفو في القدر.

أكلوا آخر الحبوب.

وكانت الأم تواصل إشعال النار، كي يرى الجيران الدخان.

طويلاً كان الحصار. ومحاصرون بالجفاف، كان لامين وأخوته يقضون الليالي وعيونهم مفتوحة، ويقضون النهارات وهم يتثاءبون دون توقف ويرتجفون كما لو أن الجو بارد. كانوا يجلسون حول النار، وأذرعهم النحيلة على ركبهم، حتى إنهم لم يعودوا يتوسلون المطر من السماء.

عندئذ ذهبت الأم، ورجعت دون الملعقة الفضية التي كانت تحتفظ بها، مخبأة، تحت الأرضية.

الملعقة، كنزها السري، كانت لأجداد أجدادها، قبل وقت طويل من تحول غامبيا، بلادها، إلى بلاد.

هذا البيع الأخير وفر لهم لقمة يأكلونها.

- ***أما هي فانطفأت*** - يروي لامين.

فالأم لم تعد تستطيع النهوض. ولم تعد هناك نار في وسط البيت.

الصحراء

عندما بدأ العالم يصير عالماً، فقدت تونويا، سلسلة الجبال، ابنها. وانتقمت من الموت برش الأرض بحليب حامض من صدرها. فتحول السهب الأنديزي الغارق بذلك الحليب، إلى صحراء ملح لامتناهية.

أرض أويوني الملحية التي ولدت من ذلك الحقد، تبتلع من يمشون فيها؛ ولكن رومان موراليس انطلق لاجتيازها، من الضفاف التي توقف حيوانات اللاما والفيكونيا خطواتها عندها.

بعد قليل من المشي، اختفت عن نظره آخر علامات العالم.

مضت الساعات، والأيام، والليالي، بينما الزجاج الملحي يصر تحت نعلي جزمته.

أراد الرجوع، فلم يعرف كيف. وأراد التقدم، فلم يعرف إلى أين. ومهما فرك عينيه، لم يكن يتوصل إلى العثور على أي أفق. مبهور النظر بالنور الأبيض، كان يمشي دون أن يرى شيئاً سوى بياض العدم في بريق الملح.

كل خطوة تؤلم.

كان رومان قد فقد حساب الزمن.

انهار مرات عديدة. ومرات عديدة استيقظ متلقياً ركلات برد الليل أو شواظ النهار، فكان ينتصب ويواصل المشي، بساقين لم تعودا ساقيه.

عندما وجدوه، مطروحاً على الأرض، بالقرب من قرية ألتوتشا، كان الملح قد التهم، منذ وقت طويل، جزمته. ولم تكن هناك قطرة ماء واحدة في زمزمياته.

انبعث من العدم. وعندما اقتنع بأنه ليس في النعيم، ولا في الجحيم. تساءل رومان: ***من الذي يفكر في اجتياز هذه الصحراء؟***

الفلاح

أنجلو جيوسيب رونكالي، ولد وترعرع في بستان بائس، ولم يكن يبكي تأثراً عندما يتذكر طفولته الفلاحية.

اعتاد القول:

- لدى الرجال ثلاث طرق لتدمير حياتهم: النساء، وألعاب القمار، والزراعة. وقد اختار أبي أشدها ضجراً.

ولكنه كان يصعد، كل يوم، إلى برج الريح، أعلى أبراج الفاتيكان، ويجلس هناك لينظر. كان يحمل منظاراً، فيلقي نظرة سريعة على الشوارع، ثم يبحث بعد ذلك عن الهضاب السبع خارج روما، حيث الأرض لا تزال أرضاً. وفي تأمله الخضرة البعيدة، تتقضي الساعات، إلى أن يضطره الواجب لقطع تلك المناولة.

عندئذ يرتدي أنجيلو الرداء الأبيض، ويعلق صليبه على صدره - ممتلكاته الوحيدة في هذا العالم - ويرجع إلى العرش، حيث يصير من جديد البابا يوحنا الثالث والعشرين.

أقرباء

في العام 1992، بينما كان يجري الاحتفال بمرور خمسة قرون على شيء يسمونه خلاص أميركا، وصل قس كاثوليكي إلى قرية هندية منسية في منخفضات جنوب شرقي المكسيك.

قبل القداس، جرى الاعتراف. وبلغة توخولوبال، عدد الهنود خطاياهم. وقد بذل كارلوس لينكيرسدورف كل ما يستطيعه من جهد في ترجمة الاعترافات، اعترافاً بعد آخر، مع أنه كان يعرف جيداً أنه من المستحيل ترجمة تلك الأسرار:

وقد ترجم كارلوس خطايا الهنود:

- يقول إنه قد هجر الذرة. ويقول إن حقل الذرة حزين جداً. فمنذ أيام كثيرة لم يذهب إليه.

- يقول إنه قد أساء إلى النار. وإنه ضرب الموقد، لأنه لا يشتعل جيداً.

- يقول إنه قد دنس حرمة الدرب، وإنه سار فيه وهو يضرب بمنجله الماتشيتي دون سبب.

- يقول إنه سبب الأذى للجاموس.

- يقول إنه قد قطع الشجرة، ولم يخبرها لماذا فعل ذلك.

لم يعرف القس ما عليه عمله بهذه الخطايا، فهي غير واردة في قائمة موسى.

أسرة

جيرونيمو، جد جوزيه ساراماغو، لم يكن أديباً، ولكنه كان حكيماً؛ وكان يصمت عما يعرفه.

عندما مرض، عرف أن ساعته قد أزفت. وبصمت مشى إلى البستان، تنقل من شجرة إلى أخرى، وعانقها واحدة فواحدة. عانق شجرة التين، وشجرة الغار، وأشجار الزيتون الثلاث أو الأربع.

على الطريق، كانت هناك سيارة بانتظاره.

وقد حملته السيارة إلى لشبونة، إلى الموت.

التقدمة

كان عيد ميلاد إنريكي كاستانياريس، وأقيمت حفلة.

مانويلا غودوي لم تتلق دعوة؛ ولكن أصوات الجيتارات استدعتها.

لم تكن ممن يتقربون من الناس. لأنها لا تتعاطى مع أحد. فدون أحد، ومن أجل لا أحد، عاشت سنواتها وشريتها. ولم يكن هناك من يعرف عدد تلك السنوات، فهي معتكفة طوال الوقت في كوخها، خارج قرية روبليس. معروف أنها فقيرة جداً، حتى إنه لا توجد عندها براغيث، وأنها وحيدة، حتى إنها تنام وهي تحتضن زجاجة شراب.

ولكن مانويلا في تلك الليلة، في ليلة الحفلة، راحت تحوم حول بيت آل كاستانياريس، تتطفل من خلال النوافذ، إلى أن عرضوا عليها الدخول، وانضمت إلى الرقص.

رقصت دون توقف، إلى أن أتعبتهم جميعاً، وشربت كل النبيذ.

كانت الأخيرة في الانصراف. لفوا لها بعض شرائح الشواء، وبضع

فطائر؛ وبهذه الحمولة على ظهرها انصرفت، في آخر الليل. دخلت مترنحة إلى حقل الذرة، واختفت فيه.

في صباح اليوم التالي، عندما أطل إنريكي، صاحب عيد الميلاد، من الباب، كانت هي هناك، تنتظر.

ـ *هل أضعت شيئاً يا دونيا مانويلا؟*

نفت هي ذلك برأسها. وفي يديها، كما في كأس، كانت تلمع يقطينة صغيرة. كانت أول يقطينة من محصولها الخاص.

ـ *هذه كلها لك* ـ قالت.

الأعناب

لم تكن فرقعات احتفال، بل كان دوي حرب.

الرشاشات والقنابل تدوخ سماء زغرب التي يتقاطع فيها الرصاص المتبادل.

كانت السنة المنصرمة تحتضر، وكانت يوغسلافيا تحتضر، بينما فرانك سيفيا ينهي إرسال تقريره الصحفي الأخير في تلك السنة إلى مدريد، إلى الإذاعة الوطنية.

أغلق فرانك الهاتف ونظر إلى الساعة، على ضوء ولاعة. ابتلع اللعاب. إنه وحيد، في فندق خاوٍ، دون رفقة سوى لعلعة صفارات الإنذار ودوي القصف، ولم تبق سوى لحظات ليولد العام الجديد. ومضات الحرب التي تدخل من النافذة، هي النور الوحيد في الغرفة.

انتزع فرانك، وهو مستلق على السرير، اثنتي عشرة حبة عنب من عنقود. وعند انتصاف الليل بالضبط، أكلها.

وبينما هو يأكل حبات العنب، واحدة فواحدة، كان يقرع اثنتي عشرة مرة، بشوكة، على زجاجة نبيذ فاخر من ريوخا، أحضرها معه من إسبانيا.

هذا القرع على الزجاجة تعلمه من أبيه، عندما كان فرانك طفلاً، يعيش على ضفاف مدريد، في حي لا توجد فيه نواقيس.

النبيذ

لا يوجد ما يشي بعمر لوثيلا إسكوديرو.

كانت قد دفنت سبعة أبناء، ومازالت تنظر إلى العالم بعيني من جاءته للتو. تتنقل في أفناء بيتها الثلاثة في سنتياغو دي تشيلي، ثلاث غابات صغيرة تسقيها هي نفسها كل يوم؛ وبعد أن تتحدث إلى نباتاتها، تخرج للمشي في الشوارع المجاورة، متجاهلة أحزانها وتوعكاتها وكل أصوات الزمن الحزينة.

ولوثيلا تؤمن بالجنة، وتعرف أنها تستحقها، ولكنها تشعر بأنها في حالة أفضل بكثير في بيتها. ولكي تغافل الموت، تنام كل ليلة في مكان مختلف. ولم تكن تفتقد أحد أحفاد أبنائها ليدفع لها السرير، وينقله من مكان إلى آخر. وكانت ضحكتها تمتد من إحدى أذنيها حتى الأذن الأخرى عندما تفكر بالخيبة التي سيصاب بها ملاك الموت عندما يأتي بحثاً عنها.

وعندئذ تشعل آخر سيجارة في اليوم، بعد وضعها في مبسمها الطويل المزخرف، وتملأ كاس نبيذ أحمر من أعناب وادي مايبو، وتغفو شيئاً فشيئاً وهي تشرب النبيذ في رشفات، رشفة بعد كل «آمين»، وهي تردد «أبانا الذي في السماء» و«يا قديسة مريم».

مشرب النبيذ

يدعى «*الشباك*» بسبب الشباك التي تنسجها العنكبوتة رامونا في السقف، دون توقف، مقدمة للجيران في منطقة ميناء بوينس آيرس، مثلاً يحتذى في حب العمل.

إنه محل لبيع الخضار في النهار ومشرب نبيذ في الليل. وتحت النجوم، كنا نحن زبائن الليل، نشرب ونغني ونتبادل الأحاديث.

وكانت الديون تُسجل على جدار، وراء منضدة الكونتوار.

ـ ***هذا الجدار سيسقط من شدة اتساخه*** ـ يعلق بذلك الزبائن، بصورة عابرة، بين كأس وأخرى.

وكـان الأخـوان داليسـاندرو، وليتـو ورافـا، البـدين والنحيـل، يتظاهران بالصمم، إلى أن لم يعد هناك متسع يدونان عليه الأرقام.

عندئذ جاءت ليلة الغفران، وبيّض الكلس الحسابات.

الزبائن القدماء احتفلوا بالحدث، والزبائن الجدد جرى تعميدهم بلمسة من النبيذ على جباههم.

الجعة

هذا الإكسير يقود إلى الضياع. إلى ضياع الحلزونات.

فعندما يخيم الظلام، تخرج الحلزونات من مخابئها، وبإيقاع الحلزون تتقدم مستعدة لالتهام لحم النباتات الأخضر.

في منتصف البستان، هناك كأس نبيذ يقوم بالحراسة. إنه إغراء لا يُقاوم. والحلزونات التي تجتذبها الرائحة تتسلق إلى أعلى الكأس. ومن حافة الهاوية، تطل على الرغوة اللذيذة، وتنزلق إلى أسفل، مستسلمة للسقوط. وفي بحر الجعة، سكرى، سعيدة، تغرق الحلزونات.

الثمرة المحرمة

كان داماسو رودريغيث يملك أبقاراً، ولكنه لا يملك مرعى. وكانت الأبقار تمضي في كل اتجاه، تتسكع هنا، تتسكع هناك، ولدى أول سهو من صاحبها، تدخل قرية أورينيا وتتوجه إلى حديقة غواياتها.

تمضي مباشرة إلى حقل المانجا الكبير في الحديقة. وهناك كانت الأشجار المثقلة، الطافحة، بل هناك أيضاً سجادة من ثمار المانجا مبعثرة على الأرض.

رجال الشرطة يقطعون عليها المأدبة. يقتادون البقرات بالعصي ويحبسونها في الزنزانة.

كان داماسو يمضي ساعات في قسم الشرطة، متحملاً الانتظار

والمواعظ، إلى أن يدفع في نهاية الأمر الغرامة ويطلق سراح بقراته.

وكانت ابنته أورا ترافقه أحياناً. وتعود باكية، بينما الأب يشرح لها أن السلطات تعرف ما تفعله. فمع أن ثمار المانجا كثيرة، ومع أنها تجف ملقاة على الأرض هناك، فإن الحيوانات لا تستحق مثل تلك اللذائذ. فالأبقار ليست جديرة بمثل ذلك الطعام الذهبي ذي الرحيق الكثيف المهيأ للبشر، سلوى للعيش.

- لا تبكي يا بنيتي. فالسلطة هي السلطة، والأبقار هي أبقار، والرجال هم رجال.

فتشد على يده أورا التي ليست سلطة، ولا بقرة، ولا رجلاً.

خطيئة اللحم

قام هو نفسه بالعدّ، مثلما هي العادة. فالرجال لا يتقنون الحساب، أو أنهم يكذبون حين يحسبون. أعاد العملية، وتأكد: هناك عجل ناقص.

أمسك بالعامل المشبوه، وقيده بحبل، ثم امتطى الحصان، واقتاده جرجرة إلى مكان بعيد.

وسحلاً على الحجارة، وصل العامل وهو ميت أكثر مما هو حي، ولكن السيد كارمن إيترياغو أخذ وقته، وثبته بالأوتاد بإحكام. غرس الأوتاد، واحداً فواحداً، وإلى كل وتد ربط، بأغصان رطبة، يدي وقدمي، وخصر وعنق المحكوم.

وكانت بقايا العامل تبكي:

- أنا سأدفع لك ثمن العجل، يا دون كارمن. سأقدم لك أي شيء، سأعطيك حياتي.

- *حياتك... أخيراً وجدت من هو متفق معي* – قال السيد المالك من فوق صهوة الجواد. ومضى مبتعداً، يخب وسط الغبار.

لم يكن هناك شهود، باستثناء الحصان، وهو قد مات. أما العامل الذي أكلته النمال والشموس، فلم يُحفظ حتى اسمه: لم يبق منه سوى

العظام، بذراعين مفتوحتين مثل صليب على الأرض الحمراء. ولم يكن دون كارمن من الرجال الذين يحبون التحدث عن هذه الأمور، لأن الملكية الخاصة تشكل جزءاً من الحياة الخاصة، والحياة الخاصة هي شأن من شؤون المرء.

ومع ذلك، فإن ألفريدو آرماس ألفونثو روى الحادثة. لقد كان موجوداً دون أن يكون، ورأى دون أن يرى، مثلما رأى كثيراً من الأمور التي جرت، منذ أن كانت الدنيا دنيا، في الوادي الفسيح الذي يقسمه نهر أوناري من منتصفه.

لحم الصيد

أكمل أرنالدو بويسو الخامسة عشرة من عمره.

احتفل ذووه بعيد ميلاده في حفلة صيد كبرى في الغابة، على ضفة نهر أخاغوال. ولأنه كان يشارك أول مرة، فقد خصصوا له مكاناً في المؤخرة. تركوه في مكان من الدغل الكثيف، مع تعليمات بعدم التحرك من هناك. وهناك بقي، ينظر إلى البندقية 22 التي تنظر إليه، بينما الصيادون يفلتون كلابهم، ويدفعون خيولهم للجري.

أبتعد النباح، وتلاشت ضجة الأصوات.

البندقية معلقة بحزام طويل مربوط بغصن شجرة.

لم يكن أرنالدو يتجرأ على لمسها. كان مستلقياً ويداه تحت رقبته، يتسلى بتأمل الطيور التي تتقافز في الدغل. كان الانتظار طويلاً. وعلى هدهدة العصافير، نام.

أيقظه صوت تكسر الأوراق اليابسة. أصابه الخوف بالشلل. وتمكن من رؤية غزال ضخم يتجه نحوه، باندفاع صاعق: قفز الغزال، فتشابك بحزام البندقية، سمع أرنالدو صوت الطلقة. وسقط الحيوان جثة هامدة.

احتفلت قرية سانتا روسا دي كابون كلها بالمأثرة. إنه أمر لم يُشهد مثله قط: طلقة صائبة من أسفل، في لحظة القفز، تصيب القلب مباشرة.

بعد سنوات من ذلك، وفي بيته، قطع أرنالدو جولة شرب روم

حماسية مع أصدقائه. طلب الصمت، كما لو أنه سيبدأ خطاباً. وأشار إلى القرنين الضخمين اللذين يؤكدان مجده الأول والأخير في حياته كصياد، واعترف:

- لقد كان انتحاراً.

لحم الإهانة

رجل وحيد، أسير الشهوة، يمضي في العراء... تلال الريف الصغيرة، غير بعيد عن مونتيفيديو، تتكور في انحناءات صدور وأفخاذ مُهيِّجة. ينظر باكو إلى أعلى، راغباً في الهرب من إغراء اللحم، ولكن السماء ترفض منح السلام لعينيه: فهناك في الأعلى، تتحرك الغيوم متراخية، متهادية، عارضة نفسها.

كانت فكتوريا، شقيقة باكو، وصاحبة الكوخ، قد حذرته:

- لا. طبخ الدجاج، لا. فالدجاجات لا تمس.

ولكن باكو إسبينولا كان قد درس الكتّاب الاغريق، وكان يعرف شيئاً ما عن شؤون القدر. مشت قدماه نحو المنطقة المحرمة، وانصاع هو لأصوات الأقدار، وأسلم نفسه لها.

بعد وقت طويل من ذلك، رأته فيكتوريا راجعاً من الحظيرة. بخطوات بطيئة. كان باكو يحمل حزمة تتأرجح من إحدى يديه. وعندما انتبهت فيكتوريا إلى أن تلك الحزمة هي دجاجة ميتة، اعترضت سبيله وهي تتأجج بالغضب.

طلب منها باكو الصمت، وأخبرها بالحقيقة.

لقد دخل إلى الحظيرة طلباً للظل، فرأى دجاجة ذات ريش مائل إلى الحمرة. ألقى إليها حفنة من حبات الذرة، فتناولتها الدجاجة وقالت: «شكراً جزيلاً».

عندئذ تقدمت منه دجاجة بيضاء بلون الثلج، وكانت مؤدبة وحسنة التربية أيضاً، فأكلت وشكرت.

- وبعد ذلك جاءت هذه – قال باكو وهو يعرض الدجاجة المذبوحة -

فقدمتُ إليها بعض الحبوب، ولكنها لم تتنازل بلمسها، فسألتها: «ألا تأكلين أنت يا عزيزتي؟» فرفعت عرفها وقالت لي: «اذهب إلى أمك العاهرة التي أنجبتك». أتلاحظين يا فيكتوريا؟ تقول هذا عن أمنا يا فكتوريا! عن أمنا!

الحمية

كانت سارا تارلير بيرغولز قصيرة جداً. لم يكن عليها أن تجلس من أجل أن يسرح لها أحفادها شعرها الذي يهوي في تجعدات حلزونية، من وجهها اللطيف حتى السرة.

وكانت سارا سمينة إلى حد لم تعد تستطيع معه التنفس. في أحد مستشفيات شيكاغو، قال لها الطبيب إنه أمر لا بد منه: من أجل استعادة التناسب بين طول القامة وحجم الجسم، عليها الالتزام بحمية صارمة والتخلص من الشحوم.

كان لها صوت من حرير. أشد تأكيداتها اندفاعاً تبدو أشبه بمناجيات. ومتكلمة كما في السر، نظرت إلى الطبيب بثبات، وقالت:

- أنا لا أعرف إذا ما كانت الحياة تستحق العيش من دون سجق السالامي.

ماتت، معانقة صحيفتها، في السنة التالية. خذلها قلبها. بالنسبة للعلم، كانت الحالة واضحة؛ ولكن لم يُعرف قط إذا ما كان القلب قد ملّ السالامي، أو أنه تعب من النبض.

الأكل

عمة نيكولاسا علمتها المشي والطبخ.

إلى جانب الموقد، كشفت لها العمة أسرار لذائذ الأطعمة الموروثة أو المبتكرة التي كانت تولد من يدها. هكذا نمت نيكولاسا وهي تكتشف أسرار المائدة المكسيكية القديمة، وتعلمت كذلك إقامة حفلات زفاف

مذهلة بين طعوم وتوابل لم تُتح لهم من قبل قط متعة معرفتها.

عند موت العمة، جاءت شكاوى من المقبرة. فالموتى لا يستطيعون النوم، بسبب الضجة التي تصدر عن قبرها. فهي لن ترقد بسلام، ما لم تُطبخ وصفات مأكولاتها.

لم تجد نيكولاسا بداً من إقامة مطعم صغير. وصارت تقدم هناك أطعمة ستروق جداً للآلهة، لو أنهم ليسوا منكوبين بالعيش بعيداً جداً عن مطعمها.

طبيعة حية

أراد ألفريدو ميريس أورتيث أن يجمع ذاكرة العادات والأزمنة في كاخامركا. وأشار له أهالي المنطقة إلى بعض موضوعات العمل:

الكسوف،

المطر،

الفيضان،

الضباب،

الصقيع،

العاصفة،

الزوبعة.

هز ألفريدو رأسه قائلاً:

- آه، أجل، ظواهر طبيعية.

ومع مرور السنوات تعلّم ألفريدو.

تعلّم أن الكسوف يحدث لأن الشمس والقمر زوجان على علاقة سيئة، شمس نار، وقمر ماء، وعندما يلتقيان يتشاجران، فتحرق الشمس القمر أو يبلل القمر الشمس ويطفئها؛

وتعلّم أن المطر هو شقيق الأنهار؛

وأن ما يجري في الأنهار هو دم الأرض، وأن الفيضان يحدث عندما يراق الدم؛

وأن الضباب يموت من الضحك ساخراً من السائرين؛
وأن الصقيع أعور، ولهذا يحرق الزرع من جانب واحد؛
وأن العاصفة تتجمل بأكل البذور المزروعة في القمر الأخضر؛
وأن الزوبعة تدور وتدور لأنها لا تملك إلا ساقاً واحدة.

روح في الهواء

حسب ما تقوله بعض التقاليد القديمة، شجرة الحياة تنمو بالمقلوب. الجذع والأغصان إلى أسفل، والجذور إلى أعلى. قمتها مغروسة في الأرض، والجذور تتطلع إلى السماء. لا تُظهر ثمارها، وإنما أصلها. لا تخبئ تحت التراب ما هو أشد حميمية، وما هو أشد وقاراً، وإنما تعرضه في العراء: تسلم جذورها، مكشوفة، لرياح العالم.

- ***إنها أمور الحياة*** - تقول شجرة الحياة.

شجرة الجينكو

إنها أقدم الأشجار. فهي في العالم منذ أزمنة الديناصورات.

يقال إن أوراقها تحمي من الربو، وتسكّن آلام القلب، وتهدئ توعكات الشيخوخة.

ويقال أيضاً إن الجينكو هي أفضل علاج لضعف الذاكرة. ولكن، هناك ما هو مؤكد بالفعل. فعندما حولت القنبلة الذرية مدينة هيروشيما إلى صحراء من السواد، سقطت شجرة جينكو مصعوقة بالقرب من مركز الانفجار. تفحمت الشجرة مثل المعبد البوذي الذي كانت تظلله. بعد ثلاث سنوات، اكتشف أحدهم أن نوراً ضئيلاً أخضر يطل من الفحم. فالجذع الميت أعطى برعماً. والبرعم تفتح، فتح ذراعيه، وأزهر.

هذا الناجي من المجزرة لا يزال هناك.

لكي تُعرف الحكاية.

تاريخ حي

هذا البيت، حسب ما يُحكى في فيراكروث، هو أول بيت بناه هيرنان كورتيس في أراضي المكسيك.

أمر كورتيس أن يبنى البيت من اللبن، مع أحجار من نهر هيويزيلابان ومرجان من الأرصفة البحرية، بالقرب من المكان الذي ربط فيه سفينة قيادته.

البيت، وهو لا يزال قائماً، يبدو حياً؛ ولكنه يموت اختناقاً. فشجرة هائلة خنقت، بألف ذراع، بيت الفاتح.

شجرة الكوكسين

هناك ولدت، وهناك خطت خطواتها الأولى.

عندما تمكنت ريغوبيرتا من العودة، بعد سنوات، إلى غواتيمالا، لم تكن قريتها موجودة. فالجنود لم يخلّفوا شيئاً حياً في القرية التي كانت تدعى «لاج تشيميل»، أي تشيميل الصغيرة، التي يمكن أن تتسع لها راحة اليد. قتلوا القرويين والذرة والدجاج. أما الهنود القليلون الذين هربوا، فاضطروا إلى خنق كلابهم، كيلا يشي بهم النباح في الأدغال.

جالت ريغوبيرتا مينتشو في أرضها العالية عبر الضباب، صاعدة جبلاً، ونازلة جبلاً، بحثاً عن جداول طفولتها، ولكن لم يكن هناك وجود لأي جدول منها. لقد جف فيها الماء الذي استحمت فيه، أو ربما رحل بعيداً.

ومن أقدم الأشجار التي كانت تظن أنها ستظل منتصبة إلى الأبد، لم تبق سوى بقايا متعفنة. هذه الأغصان المتينة استخدمت لتعليق المشانق، وهذه الجذوع تحولت إلى جدران للإعدام رمياً بالرصاص؛ وبعد ذلك استسلمت الأشجار للموت.

واصلت ريغوبيرتا السير في الضباب، في ما وراء الضباب، كقطرة بلا ماء، كورقة بلا غصن: بحثت عن صديقتها كوكسين، بحثت عنها حيث كانت تعيش، ولم تجد سوى جذورها جافة في الهواء.

هذا كل ما بقي من الشجرة التي كانت تزورها، خلال سنوات المنفى، في الأحلام، وكانت وارفة دائماً ومترعة بأزهار بيضاء ذات قلب أصفر.

لقد هرمت شجرة الكوكسين في لحظة واحدة، وانتزعت نفسها من الأرض مع جذورها وكل شيء فيها.

شجرة تتذكر

سبع نساء جلسن في دائرة.

ومن بعيد جداً، من قريتهن في مومو ستينانغو، حمل إليهن هومبرتو أكابال بعض الأوراق الجافة، جمعها هو من تحت شجرة أرز.

كل واحدة من النساء سحقت ورقة، برفق، عند أذنها. وهكذا انفتحت لهن ذاكرة الشجرة:

إحداهن سمعت الريح تهب في أذنها.

أخرى، سمعت الأغصان تتأرجح برفق.

أخرى، خفق أجنحة عصافير.

وقالت أخرى إن المطر يهطل في أذنها.

وأخرى سمعت وقع خطوات بهيمة تركض.

أخرى، صدى أصوات.

وأخرى، حفيف خطوات بطيء.

زهرة الذكريات

تبدو أوركيدا، لكنها ليست كذلك. تعبق برائحة الغاردينيا، لكنها ليست غاردينيا أيضاً. بتلاتها الكبيرة، أجنحة بيضاء، تخفق راغبة في الطيران، في الانفصال عن الساق.. ولا بد أن هذا هو السبب في أنهم، في كوبا، يسمونها *الفراشة*.

زرعت إليساندرا ريكيو، في أرض نابولي، بصيلة فراشة، جاءت بها من هافانا. أنبتت الفراشة في الأرض الغريبة أوراقاً، ولكنها لم

تزهر. ومرت الشهور والسنون، وبقيت دون أي شيء آخر سوى الأوراق عندما حضر بعض أصدقاء أليساندرا الكوبيين إلى نابولي، وأقاموا في بيتها أسبوعاً.

عندئذ رنّت وتعالت، حول النبتة، أصوات من أرضها، طريقة جزر الأنتيل في التكلم المغنى: استمعت النبتة إلى موسيقى الكلمات تلك طوال سبعة أيام وسبع ليال، لأن الكوبيين كانوا يتكلمون في يقظتهم، وفي نومهم أيضاً.

عندما ودّعت أليساندرا أصدقاءها، ورجعت من المطار، وجدت في بيتها زهرة بيضاء حديثة التفتح.

الجاكاراندا

في الليل، كان نوربيرتو باسو يحمّل أكياساً في مرفأ بوينس آيرس.

وفي النهار، بعيداً عن المرفأ، كان يبني هذا البيت. وكانت بلانكا تناوله الآجر ودلاء خليط الطين، فتعلو الجدران حول الفناء الترابي.

كان البيت نصف منتهٍ عندما أحضرت بلانكا نبتة جاكاراندا من السوق. شجيرة صغيرة، دفعت مقابلها مبلغاً محترماً. فهز نوربيرتو رأسه قائلاً لها:

ـ **أنت مجنونة.** *ثم ساعدها في زرع النبتة.*

عندما أنهيا بناء البيت، ماتت بلانكا.

لقد مرت الآن السنون، ونوربيرتو لا يخرج إلا قليلاً. يسافر ساعة كل أسبوع ليصل إلى مركز المدينة، ويجتمع هناك مع مسنين آخرين يحتجون لأن المعاش التقاعدي مجرد براز لا يكفي لشراء حبل يشنق به المرء نفسه.

وعندما يرجع نوربيرتو، في وقت متأخر من الليل، تكون الجاكاراندا بانتظاره.

شجرة البلاتنو

كان معلمه قد مات ميتة مشؤومة، معلقاً على صليب في القدس. وبعد عشرين قرناً من ذلك، مزقت صدر كارلوس موخيكا زخة من الرصاص في أحد شوارع بوينس آيرس.

أورلاندو يوريو، أخوه في الإيمان، أراد أن يغسل دماء كارلوس. أحضر دلو ماء ومكنسة؛ لكنِ رجال الشرطة لم يسمحوا له. وظل أورلاندو واقفاً أمام البيت، حاملاً المكنسة في يده، وعيناه مصوبتان إلى بركة الدم الكبيرة كما لو أنها دماء كثيرين.

فجأة انهمر المطر، دون إشعار مسبق، بكل قوة، وحمل الدماءَ حتى أصل شجرة بلاتنو. فشربتها الشجرة حتى آخر قطرة.

حوار أخضر

تبدو جامدة، ولكنها تتنفس وتمشي، بحثاً عن ضوء.

وتتكلم.

لا يُعرف إلا القليل عن ذلك؛ ولكن الثابت والمؤكد، على الأقل، أنه عندما تتعرض شجرة للضرب أو لجراح، فإنها تدافع عن نفسها بإفراز سُمّ، وتطلق إشارة تنبيه إلى الأشجار القريبة. فتنتشر في الهواء كلمات بلغة شجرية تقول: **خطر**، وتقول: ***انتبهوا***. وعندئذ تدافع الأشجار القريبة عن نفسها أيضاً وتفرز سمّاً.

ربما كان الأمر كذلك منذ انتصبت أول الأشجار على الأرض، وتكاثرت، وصارت الغابات هائلة الاتساع، بحيث كان يمكن لسنجاب، كما تقول التقاليد، أن يجوب العالم متنقلاً من غصن إلى آخر.

والآن، الأشجار المتبقية على قيد الحياة، ما بين صحراء وصحراء، تحافظ على تلك العادة القديمة بين الجيران الطيبين.

بُكم

كثيرة هي الحلقات التي رسمتها سنوات عمرها في جذوعها. هذه لأشجار، هذه العمالقة المعمّرة، أمضت قروناً وهي مسمرة في أعماق الأرض، ولا يمكنها الهرب. إنها عزلاء حيال المناشير الكهربائية، تئن، وتهوي. ومع انهيار كل شجرة ينهار العالم؛ وتصير العصافير بلا بيوت.

تموت الأشجار الهرمة المكدرة غيلة. وفي مكانها تنمو أشجار فتية عالية المردود. الغابات الأصلية تترك المكان لغابات اصطناعية. والنظام، النظام العسكري، النظام الصناعي، ينتصر على الفوضى الطبيعية. صفوف أشجار الصنوبر والأكاليبتوس المزروعة للتصدير، تبدو أشبه بجنود، مسافرين إلى السوق الدولية.

Fast food, fast wood ***(وجبات سريعة، غابات سريعة)***: الغابات الاصطناعية تنمو في برهة، وتباع بسرعة. إنها مصدر عملة صعبة، نموذج للتطور، رمز للتقدم. مزارع الأخشاب هذه تجفف التربة وتخرب الأرض.

لا تغرد الطيور فيها.

والناس يسمونها ***غابات الصمت***.

وحيدون

كانت الببغاء لا تزال فرخاً صغيراً جداً عندما قطعوا الشجرة التي عليها عشها.

وسجينة في قفص، بين أربعة جدران بيت، أمضت حياتها كلها.

عندما ماتت صاحبة البيت، صارت الببغاء مهجورة. أخذتها أسرة شلينكر التي تملك، على مقربة من كيتو، ملجأ حيوانات حزينة.

هذه الببغاء لم تر من قبل أحداً من أقربائها. وهي لا تتفاهم الآن مع الببغاوات التي من فصيلتها، ولا مع أي من أبناء عمومتها في أسرة الببغاوات.

ولم يكن التفاهم معها ممكناً أيضاً. كانت تقبع في ركن،

ترتجف وتزعق، تنزع ريشها بضربات من منقارها، وكان جلدها عارياً ونازفاً.

يا للطائر المسكين، أقول. لا يمكن أن تكون هناك وحدة أشد من هذه، مستحيل. ولكن أبدون أوبيديا الذي أخذني إلى الملجأ، عرفني على الوحيد الأشد وحدة في العالم.

إنه الأرنب الأمريكي أو «كوي الجبل» الأخير، يقضي الليالي سائراً في دائرة، ويقضي النهارات مختبئاً تحت الجذع الأجوف لشجرة مقطوعة. إنه الوحيد المتبقي حياً من جنسه في تلك المنطقة. لقد أبيد معشره جميعهم.

وبينما هو ينتظر الموت، ليس لديه من يتبادل معه الحديث.

هوديني

خاطفوها قصوا أحد جناحيها عندما اصطادوها في الغابة. وجدتها كيتي هيشتير في سوق بويرتو بايارتا. أشفقت عليها، فاشترتها لتطلق سراحها. ولكن الببغاء لم تكن قادرةً على تدبر أمورها بمفردها. فهي في حالتها تلك، مقصوصة الجناح، تشكل لقمة سائغة لأي فم. قررت كيتي أن تحملها، في قفص، في شاحنتها الصغيرة. وكانت تنوي إدخالها، خلسة، عبر الحدود. لتكون مهاجراً آخر من آلاف وآلاف المكسيكيين غير الشرعيين في الولايات المتحدة.

وقد عُمّدت باسم هوديني، بسبب ميولها إلى الهرب. ففي اليوم الأول من الرحلة، رفعت باب القفص بمنقارها القوي. وفي اليوم الثاني، رفعت أرضية القفص من أسفل. وفي اليوم الثالث، أحدثت ثقباً في الشبكة السلكية. وفي اليوم الرابع، حاولت الهرب من السقف، ولكن قواها لم تسمح لها بذلك.

لم تكن هوديني تتكلم ولا تأكل. وفي إضرابها عن الكلام وعن الطعام.. ماتت.

الضفادع

يقال إنه إذا ما قبّلت فتاة ضفدعاً، فإن الضفدع يتحول إلى أمير. الضفدع لا يبدو مناسباً جداً للتقبيل، ولكن بعضهن جربن. ولم يتحقق المراد.

وبالمقابل، عندما قبّلت مبيدات الحشرات الكيماوية الضفادع، تحولت الضفادع إلى مسوخ.

من قبل، وفي أحيان متباعدة جداً، كان يظهر ابن مشوه في أسرة الضفادع، ولكن الحالات النادرة تحولت إلى عادية، في هذه السنوات الأخيرة، في بحيرات مينسوتا، وفي غابات بينسيلفانيا، وفي أماكن كثيرة أخرى. وفي كل يوم يتناقص عدد الضفادع التي تولد، وفي كل مرة يزداد عدد من يولد منها بلا عيون أو بقائمة زائدة أو ناقصة.

اللقاء المشؤوم مع السموم الكيماوية، المنتشرة مع الهواء، جرى عندما كانت الضفادع قد أمضت عدة ملايين من السنين وهي تعيش ما بين الماء واليابسة، منذ ذلك اليوم البعيد الذي مزق فيه نقيق أول ضفدع صمت العالم.

بذور

في البرازيل، سأل الفلاحون: لماذا يوجد أناس كثيرون بلا أرض، بالرغم من وجود أراض كثيرة بلا ناس؟ فردوا عليهم بالرصاص.

لكن الخوف كان ميراثهم الوحيد، وقد فقدوه. وواصلوا السؤال، واقتحام أرضٍ، واقتراف جريمة أنهم يريدون أن يعملوا.

كانوا ملايين، وواصلوا السؤال. سألوا: لماذا يُسمح للتعذيب الكيماوي بأن يعذب الأرض؟ وسألوا أيضاً: ما الذي سيحل بنا إذا لم تعد البذور بذوراً؟

في أوائل العام 2001، اقتحم الفلاحون الذين بلا أرض مزرعة تجريبية للبذور المعدلة جينياً، تملكها شركة مونسانتو، في ريو غراندي دو سول. ولم يتركوا نبتة صويا اصطناعية واحدة منتصبة.

المزرعة كانت تسمى: ***لا تلمسني***.

أعشاب

من أجل حرقة البطن، تناول شواءً بلا جلد.

من أجل التخمة، مغلي أوراق شجرة التيبوثان.

من أجل الآلام، مرهم نبتة الماغوي، أو المطاط، أو ثمر صبار التونا مطبوخاً.

لحم ألواح الصبار والفُشَاغ ينقي الدم، وقشر البازيلاء ينظف الكلى، والصنوبر يطهر الأمعاء.

أزهار الأصابع الخمسة، من شجرة الأيدي، تمنح القلب الصفاء والشجاعة.

لقد وجد الغزاة الإسبان هذه المستجدات في المكسيك، ونقلوها إلى إسبانيا، إضافة إلى أعشاب أخرى، ذات أسماء محلية يصعب النطق بها، تخفض الحرارة، أو تقتل الطفيليات، أو تطلق البول المحتبس، أو تُبطل مفعول سمّ الأفاعي.

الصيدلية الأمريكية القديمة لقيت استقبالاً طيباً في أوروبا.

ولكن، بعد سنوات، أطلقت محاكم التفتيش ملاحقاتها. فاعتبرت معرفة النباتات هي وسيلة الساحرات والشياطين المتنكرين كأطباء، والذين يستحقون التعذيب أو المحرقة. فمن تحت ملابسهم الغريبة، تطل أظلاف الشيطان.

تلك الأشربة، وتلك المراهم كانت تأتي من أميركا، من الجحيم، مثلها مثل نار الشوكولاته ودخان التبغ اللذين يدفعان إلى الخطيئة في فراش الغير، ومثل الفطور الشيطانية التي يأكلها الوثنيون ليسبحوا في الفضاء بقدرات سحر آلهتهم الخبيث.

سيدة تداوي

هذا الجبل، هل هو جبل؟

أم أنه امرأة مطروحة تحت الشمس، بثديين عاليين وركبتين مرفوعتين؟

في لغة شعب النابابخوس، يدعى دييتسيتي.

الغيوم تروّي جسده المداوي، حيث تنمو أعشاب توفر للمرضى العلاج أو المسكّن.

أحشاؤه من حجر خُفّان. وقد قضمته شركة أريزونا توفليت طوال سنوات. إنه مسلوخ الآن. لم يبق عليه إلا قليل من جلده الأخضر. والجروح الهائلة فيه تُرى من بعيد.

الحفريات تزايدت منذ أن أمرت الموضة بتعتيق الجديد، وفُرضت في السوق سراويل رعاة البقر المكحوتة بأحجار الخفان. ولكن الاحتجاجات تضاعفت أيضاً، وكانت في هذه المرة رعداً واحداً. فقد وحد أبناء الناباخوس، ووالهوبي، والهواتاباي، والدينس، والسوني، وشعوب أخرى، كانت منقسمة تقليدياً بتأثير من يهيمنون عليها، واضطرت الشركة إلى المغادرة.

وبينما كانت الألفية الجديدة تولد، بدأ الهنود بمداواة المرأة التي تداوي.

سيدة تسمع

في الوقت نفسه، وعلى بعد آلاف الأميال إلى الجنوب، طُرد هنود أووا، بالرصاص، من أراضيهم في جبال ساموري. طائرات هيلوكبتر وقوات مشاة نظفت الطريق لشركة أوكسيدنتال بيتروليوم، ونشرت الصحافة الكولومبية كلمات ترحيب بـ ***هذه الطليعة المتقدمة للتقدم في وسط معادٍ***.

عندما بدأت آلات الحفر مهمتها، أعلن الخبراء أن البئر ستعطي ما لا يقل عن ألف وأربعمئة مليون برميل من البترول.

عند شروق وغروب كل يوم، كان الهنود يجتمعون ليغنوا تعويذاتهم على القمم المكللة بالضباب.

وبعد انقضاء سنة، كانت الشركة قد أنفقت ستين مليون دولار، ولم تظهر قطرة واحدة من البترول.

وقد تأكد هنود أووا، مرة أخرى، من أن الأرض ليست صماء.

فقد سمعت الأرض دعواتهم، وخبأت البترول، دمها الأسود، كيلا تموت الأشجار، ولا تجف المراعي، وكيلا تعطي الينابيع سماً.

اسمهم أووا، يعني بلغتهم: ***أناس يفكرون.***

سيد يتكلم

ليس منذ وقت بعيد، وفي وادي المكسيك، انفجر جبل.

سحب من النار، صخور مشتعلة، رماد ملتهب: بركان بوبوكاتيبيتي تقيأ الحجارة التي تسد فمه الكبير بحجم أربعة ملاعب كرة قدم.

كان من شبه المستحيل إخلاء القرى المجاورة:

- ***لا، لا*** - كان الناس يقاومون - ***إنه طيب، لن يلحق بنا أي أذى.***

منذ الأزل، أهالي المنطقة يأكلون ويشربون مع السيد بوبو. يقدمون له عجة، وتكيلا، وموسيقى، ويطلبون منه مطراً للفاصولياء والذرة، وعوناً ضد البَرَد ورياح الهواء والحياة الخبيثة. ويرد عليهم عبر أفواه الكهنة الزمنيين، معلمي الزمن، الذين يسمعونه في أثناء نومهم، ثم يخبرونهم بما يقوله.

هذه هي العادة. ولكن بوبو لم يقدم إنذاراً في هذه المرة. ولم يعلم أيٌّ من الكهنة بأن البركان كان يختنق، وأنه ملّ من التحدث بأفواه الآخرين.

وقال البركان ما أراد قوله.

لم يقتل أحداً.

وفي ليلة الانفجار، أقيمت ثلاثة أعراس عند سفح الجبل، وكأنه ليس هناك شيء؛ وقد أنارت حمرة السماء الاحتفالات.

سيد يصمت

في العهد الاستعماري، أنتج جبل بوتوسي الكثير من الفضة، والكثير من الأرامل.

على امتداد أكثر من قرنين، أقامت أوروبا في هذه المرتفعات

الأمريكية المتجمدة، طقساً غربياً ومسيحياً: فيوماً إثر يوم، وليلة إثر ليلة، كانت تقدم لحماً بشرياً لإطعام الجبل، مقابل الفضة التي تُنتزع منه.

من كل عشرة هنود يدخلون من فتحة نفق المنجم، سبعة لم يكونوا يخرجون. الإبادة جرت في بوليفيا، ولم تكن قد سُميت بهذا الاسم بعد، لكي يكون ممكناً، في أوربا، تطور الرأسمالية، وهي لم تكن أيضاً قد سُميت بهذا الاسم بعد.

في أيامنا هذه، الجبل الغني هو مجرد جبل أجوف. فضته كلها سافرت بعيداً، دون أن تقول وداعاً.

بوتوسي، ***بوتوخسي***، بلغة السكان الأصليين، تعني: ***يُرعد، يُحدث انفجاراً***، لأن الحكاية التقليدية تقول إن الجبل كان يرعد عندما يؤذونه. أما الآن، وهو أجوف، فإنه يصمت.

الحروف الأولى

من النواجذ، تعلمنا شق الأنفاق.

من القندس، تعلمنا إقامة السدود.

من الطيور، تعلمنا بناء البيوت.

من العناكب، تعلمنا الحياكة.

من الجذع الذي يتدحرج على المنحدر، تعلمنا العجلة.

من الجذع الذي يطفو مع التيار، تعلمنا السفينة.

من الريح، تعلمنا الشراع.

مَن الذي علمنا العادات الخبيثة؟ ممن تعلمنا تعذيب الآخر وإذلال العالم؟

يوم الحساب

لا أستطيع أن أنزع من رأسي فكرة أننا سنتعرض، في يوم ما، لحساب نهائي. وأتصورنا جميعنا خاضعين لاستجواب مدعين عامين يشيرون إلينا بقوائمهم أو بأغصانهم، ويتهموننا بأننا حوّلنا مملكة هذا

العالم إلى صحراء من الصخور الجرداء:

- ماذا فعلتم بهذا الكوكب؟ من أي سوبر ماركت اشتريتموه؟ من منحكم الحق بالإساءة إلينا وإبادتنا؟

وتُصدر أعلى محكمة من الحيوانات والنباتات أحكام اللعنة الأبدية ضد الجنس البشري.

هل سندفع الجزاء العادل عن الخطايا؟ هل سنقضي الأبدية في الجحيم؟ هل سنشوى جميعنا على نار هادئة مع من سمموا الأرض والمياه والهواء؟

في ما مضى، كنت أظن أن يوم القيامة هو من اختصاص الرب. وأنه شمس سوداء، وقمر دامٍ، وغضب إلهي. وكنتُ أظن، في أسوأ الحالات، أنني سأتقاسم السَّفود نفسه مع القتلة بالجملة، ومغنيات التلفزيون، والنقاد الأدبيين.

أما الآن، عند المقارنة، فيبدو لي هذا أمراً ضئيلاً.

خريطة الزمن

منذ حوالي أربعة آلاف وخمسمئة مليون سنة، بزيادة سنة أو نقصان سنة، تقيأ نجمٌ قزمٌ كوكباً صار يسمى الأرض.

ومنذ حوالي أربعة آلاف ومئتي مليون سنة، شربت الخلية الأولى حساء البحر، فأعجبها، وانشطرت إلى اثنتين ليكون هناك من يدعوها إلى تناول كأس.

ومنذ حوالي أربعة ملايين سنة وبضع سنوات، انتصبت المرأة والرجل، وكانا لا يزالان أقرب إلى القردة، على قوائمهما الخلفية وتعانقا، وأحسا أول مرة بسعادة ورعب رؤية كل منهما الآخر، وجهاً لوجه، وهما متعانقان.

ومنذ حوالي أربعمئة وخمسين ألف سنة، فركت المرأة والرجل حجرين

وأشعلا النار الأولى التي أعانتهما في صراعهما ضد الخوف والبرد.

ومنذ حوالي ثلاثمئة ألف سنة، نطقت المرأة والرجل أولى الكلمات، وظنا أنهما يستطيعان التفاهم فيما بينهما.

وما زلنا، حتى الآن، على تلك الحال، نرغب في أن نكون اثنين، ونحن نموت من الخوف، نموت من البرد، بحثاً عن الكلمات.

الصمت

مائدة أصدقاء طويلة، في مطعم ***بلاتافورما***، كانت ملاذ توم جوبيم ضد شمس الظهيرة وصخب شوارع ريو دي جانيرو.

في ظهيرة ذلك اليوم، جلس توم جانباً. وراح يشرب البيرة في أحد الأركان مع زي فيرناندو بالبي. كان يتقاسم وإياه قبعة القش نفسها، يستخدمانها بالتناوب، أحدهما اليوم، والآخر في اليوم التالي؛ وكانا يتقاسمان أشياء أخرى أيضاً.

عندما انضم إليهما شخص، قال توم:

- لا. إننا في حديث مهم جداً.

وعندما اقترب صديق آخر:

- أرجو أن تعذرني، فلدينا أشياء كثيرة نتحدث فيها على انفراد.

وقال لآخر:

- عفواً، ولكننا مشغولان هنا بمناقشة مسألة حرجة.

في ذلك الركن المنعزل، لم يتفوه توم وزي فيرناندو بأية كلمة. كان زي فيرناندو في يوم بالغ النحس، واحد من تلك الأيام التي يتوجب إلغاؤها من التقويم وطردها من الذاكرة، وكان توم يرافقه في صمت زجاجات البيرة. وظلا على تلك الحال، موسيقى صمت، منذ الظهيرة حتى نهاية المساء.

لم يكن قد بقي أحد عندما غادر الاثنان، ماشيين ببطء.

الكلمة

في أدغال أعالي نهر بارانا، نبهني سائق شاحنة، طالباً مني أن أتوخى الحذر:

- ***انتبه للمتوحشين*** - قال لي - ***ما زال بعضهم يمضي طليقاً في هذه الأنحاء. لحسن الحظ أنهم قليلون. فهم يحبسونهم في حديقة حيوان.***

قال لي ذلك باللغة القشتالية. ولكنها لم تكن لغته اليومية. فسائق الشاحنة يتكلم عادة الغواراني، لغة أولئك المتوحشين الذين يخافهم ويحتقرهم.

أمر غريب: الباراغواي تتكلم لغة المهزومين. وأمر أكثر غرابة: المهزومون يؤمنون، وما زالوا يؤمنون، بأن الكلمة مقدسة. فالكلمة الكاذبة تهين الشيء الذي تسميه وتعنيه، أما الكلمة الصادقة فتكشف روح الشيء. ويؤمن المهزومون أن الروح تعيش في الكلمات التي تقال. فإذا أعطيتك كلمتي، أعطيتك نفسي. واللغة ليست زبالة.

الرسالة

كان إنريكي بوينابينتورا يشرب الروم في إحدى حانات كالي، عندما اقترب شخص لا يعرفه من الطاولة. قدم الرجل نفسه، كان يعمل بنّاء، وعذراً للوقاحة، وعدم المؤاخذة للإزعاج:

- ***إنني بحاجة لأن تكتب لي رسالة. رسالة حب.***

- ***أنا؟***

- ***قيل لي إنك قادر.***

لم يكن إنريكي مختصاً بالأمر، ولكنه نفخ صدره. وأوضح له البناء أنه ليس أمياً:

- ***أنا أستطيع الكتابة، أنا أعرف الكتابة. ولكن رسالة مثل هذه، لا أعرف كيف أكتبها.***

- ***ولمن ستوجه هذه الرسالة؟***

- إلى... إليها.
- وماذا تريد أن تقول فيها؟
- لو كنت أعرف، لما طلبت منك.

هرش إنريكي رأسه.

وفي تلك الليلة، انهمك في العمل.

في اليوم التالي، قرأ البناء الرسالة:

- هذا هو - قال وقد أشرقت عيناه - *هذا هو ما أريده. ولكنني لم أكن أعرف أن هذا هو ما أريد قوله.*

الرسائل

فتح خوان رامون خيمنث المغلف في سريره في المصح، في ضواحي مدريد.

قرأ الرسالة، وأُعجب بالصورة. *بفضل قصائدك لم أعد وحيدة. كم فكرتُ فيك!* اعترفت جورجينا هوبنير، المعجبة المجهولة التي تكتب له، من بعيد جداً، رسالتها الأولى. كانت لها رائحة ورود الورق الوردي، وبأصبغة الأنيلين الوردية، كانت ملونةً صورةُ السيدة الباسمة، المتأرجحة، وسط ورود مدينة ليما.

ردّ الشاعر على الرسالة. وبعد زمن من ذلك، حملت السفينة إلى إسبانيا رسالة جديدة من جورجينا. كانت تؤنبه على نبرته شديدة الرسمية. وسافر اعتذار خوان رامون إلى البيرو: *أعذريني إذا ما بدوت لك رسمياً وصدقيني إذا ما اتهمتُ بذلك عدوتي المدعوة «حياء».* وهكذا راحت الرسائل تتوالى، مبحرة ببطء بين الشمال والجنوب، بين الشاعر المريض وقارئته المغرمة.

عندما خرج خوان رامون من المصح، ورجع إلى بيته في الأندلس، كان أول ما فعله هو أن أرسل إلى جورجينا شهادة عاطفية على امتنانه، وردت هي بكلمات جعلت يده ترتجف.

رسائل جورجينا كانت عملاً جماعياً. كتبتها جماعة من الأصدقاء

فـي إحدى حانـات ليمـا. لقـد اخترعـوا هـم أنفسـهم كـل شـيء: الصـورة، والاسم، والرسائل، والخـط المنمق. وكلمـا كانت تصل رسـالة مـن خـوان رامون، كان الأصدقاء يجتمعون، يتناقشون بشأن الرد، ويبدؤون العمل.

ومع مرور الزمن، رسالة ذاهبة، ورسـالة آيبـة، راحـت الأمـور تتبـدل. يضعون مشروع رسالة وينتهي بهم الأمر إلى كتابة أخرى، أكثـر تحـرراً وانفلاتاً، ربما تمليها تلك الفتاة التي هي ابنتهم جميعاً، ولكنهـا لا تشـبه أحداً منهم، ولا تنصاع لأي واحد منهم.

وفـي هذه الأثناء، وصلت رسالة خوان رامون التي يعلن فـيهـا عـن سـفـره. فالشاعر سيبحر إلى ليما، إلى المرأة التي أعادت إليه الصحة والسعادة.

اجتماع مستعجل. ما الذي يمكـن عملـه؟ الاعـتراف لـه بكـل شـيء؟ اقـتراف مثـل هـذه القسـوة؟ ناقشـوا المسـألة سـاعات وسـاعات، إلى أن اتخذوا القرار.

وفـي اليوم التالي، طرق قنصـل البيرو فـي الأنـدلس بـاب بيـت خـوان رامـون، بـين أشـجار الزيـتون فـي مـوغير. كـان القنصـل قـد تلقـى برقيـة مستعجلة من ليما: ***لقد ماتت جورجينا هوبير.***

ساعي البريد

رأيته فـي النعش، بذلك الوجه الوديع و المزوح، وفكـرت: لا يمكـن تصديق ذلك. سوريانو البدين يتظاهر بأنه ميت.

أكد لي ذلك ابنه مانويل، الشبيه إلى حدّ التطـابق مـع البـدين، وإن يكن أصغر منه. قال لي إنه أعطى أباه رسالة، كـي يسلمها إلى فيليبه.

كـان صديقه فـيليبه قـد مـات قبل وقت قصير. وقـد كـان فـيليبه سحلية. سحلية غريبة، لها عادات الحرباء، يبـدل لونـه عندما يشـاء. وفـي الرسالة، يعلمـه مانويل لعبـة، كـي يتمكـن مـن التسلية فـي الموت، لأن الموت ممل جداً. ومـن أجـل لعـب هـذه اللعبـة، لا بـد مـن كتابـة حـرف مـا. فيلقنه مانويل: «استخدم أظفارك يا فيليبي».

الأمر واضح إذن. فقـد أمضـى أوسفالدو سوريانو حياته فـي كتابـة

القصص والروايات، والرسائل المرسلة إلى قرائه، وهو يعمل الآن ساعي بريد. لا بد أنه سيعود بعد قليل.

مذيع المباريات

في إحدى قصصه، تخيل سوريانو مباراة بكرة القدم في قرية منسية في سهوب باتاغونيا. لم يسجل أحدٌ هدفاً في مرمى الفريق المحلي قط. فمثل هذه الإهانة ممنوعة، تحت طائلة الشنق أو الضرب المبرح. وفي القصة، يتجنب الفريق الزائر إغراء تسجيل هدف طوال المباراة؛ ولكن مهاجم الوسط يجد نفسه، في النهاية، وحيداً قبالة حارس المرمى، ولا يجد مفراً من أن يمرر الكرة بين ساقيه.

بعد عشر سنوات، عندما وصل سوريانو إلى مطار نيوكين، شده شخص مجهول من ذراعه، وحمله مع حقيبته وكل شيء:

- ***لم يكن هدفاً عادياً! بل هدفاً مدوياً!*** - قال صارخاً - ***إنني أراك! لقد احتفلت به على طريقة بيليه!*** - وهوى على ركبتيه، رافعاً يديه إلى السماء.

بعد ذلك غطى رأسه:

- ***يا لوابل الحجارة الذي تساقط! يا للصفعة التي وجهوها إلينا!***

كان سوريانو يستمع، وهو يفتح فمه بذهول، ويمسك حقيبته بيده.

- ***لقد انقضوا عليك! كانوا شعباً بكامله!*** - صرخ المتحمس. وأشار بإبهامه، مخبراً الفضوليين الذين راحوا يقتربون:

- ***أنا أنقذتُ حياة هذا الرجل.***

وروى لهم، بتفاصيل مسهبة، الشجار الرهيب الذي نشب في نهاية المباراة.. تلك المباراة التي لعبها المؤلف متوحداً، في ليلة بعيدة، جالساً قبالة الآلة الكاتبة، ومنفضة سجائر مليئة بالأعقاب، وقطين يتاومان على الأرض.

الكتاب

كانت ريينا ريس ترغب في أن يتمكن فيلسبيرتو هيرنانديث من تكريس وقته لكتابة قصصه العجيبة وعزف البيانو. وكان الأدب يوفر له قليلاً من القراء ولا شيء من المال، ويمكننا القول إن الموسيقى لم تكن تجارة مهمة. فقد كان فيلسبيرتو يسافر إلى المناطق الداخلية من الأروغواي وساحل الأرجنتين، ويقدم حفلات موسيقية، وينتهي به الأمر دوماً إلى الهرب من الفندق عبر النافذة.

كانت ريينا معلمة، تعمل كثيراً لتكسب عيشها. وخلال الفترة التي عاشها معها، لم يسمع فيلسبيرتو قط حديثاً عن النقود.

ففي اليوم الأول من كل شهر، كانت ريينا تهدي إليه كتاباً، لواحد من القصاصين أو الشعراء الذي يحظون بإعجابه. وفي الكتاب، كان يجد الحرية التي تنقذه من جحيم المكاتب، أو من عذاب أي عمل آخر من هذه الأعمال التي تسرق الساعات وتهدر الحياة. فبعد كل عدد قليل من الصفحات، كان يجد ورقة نقدية، مكوية جيداً.

الحبر

إخباريو وقائع فتح أميركا لم يدخروا جهداً في مديح هذه الثمرة الغريبة التي لم يعرفوها ولم يتذوقوها من قبل قط، والتي يدعوها هنود المكسيك أهواكتيل، ويدعوها هنود البيرو بالتا.

كتب الإخباريون أن شكلها يشبه الأجاص، لكنها أكثر شبهاً بنهد صبية عذراء. وأنها تنمو في الجبال دون أي رعاية، فالرب هو البستاني الذي يرعاها. وأن لُبّها الذي كالسمن، ليس حلواً ولا مراً، يمنح الفم مذاقاً ناعماً، ويمنح الصحة للمرضى والقوة للضعفاء. وليس هناك ما هو أفضل منها لتأجيج الحب.

وهي، الثمرة، رأت أنها جديرة بذلك التكريم، وكي لا يمحوه الزمن قدمت إلى الإخباريين حبر بذورها الذي لا يزول. وبحبر الأفوكاتو، بحبر البالتا، كُتِبت المدائح لها.

حساء حروف

بالنظر إلى الحجم والبريق، تبدو دمعة. العلماء يسمونها *lepisms saccharina*، ولكنها تعرف نفسها باسم ***سمكة الفضة***، مع أنه ليس فيها شيء من السمكة، ولا تعرف الماء.

إنها تعكف على التهام الكتب، مع أنها ليست عثة كذلك. تأكل كل ما تجده: روايات، أشعار، موسوعات، تأكله شيئاً فشيئاً، وتبتلعه كلمة كلمة، بكل اللغات.

تقضي الحياة في عتمة المكتبات. ولا تهتم بأي شيء آخر. أما ضوء النهار فيقتلها.

لا بد أنها ستكون عالمة، لو لم تكن حشرة.

الراوية

جلست تشيتي هيرنانديث على مقعد، تحت أشجار متنزه الريتيرو المدريدي الوارفة. تنفست الهواء الأخضر بعمق، وأغمضت عينيها.

وعندما فتحتهما، وجدت قزماً يجلس إلى جوارها.

قدم لها القزم نفسه: إنه مصارع ثيران. وتخيلت هي حجم الثور، فانقبض قلبها وقطبت وجهها.

- ***تبدين حزينة جداً*** – قال القزم، وطلب.. ألح:

- **أخبريني.**

أنكرت هي برأسها، ولكن القزم أصر:

- **لا تسيئي الظن يا بياض الثلج.**

ودمدمت تشيتي باسم أول رجل خطر لذهنها، بينما هي تفكر بمدى المشقة التي لا بد أن تكون عليها حياة مصارع ثيران قزم. وعندئذ بدأت تختنق:

- ***لقد استغلني ذلك الوغد.***

وراحت قصتها القصيرة تتحول إلى رواية، كان ذلك الصلف

يضربني، ويسيء معاملتي، ويدعوني بالعاهرة والتافهة. وكانت تشيتي تشعر بتضاؤل متزايد في إشفاقها على القزم، وبمزيد من الأسى على نفسها، أسى ورثاء لحالها، لأنها قد حبلت من ذلك المحتال الذي كان متزوجاً ولديه أبناء، كيف استطعتُ أن أفعل ذلك بخطيبي الطيب، بملاكي المسكين الذي لا يستحق مثل هذه المعاملة، وقد علمت أمي الآن بكل شيء، فطردتني من البيت، وفقدتُ عملي، ولا أعرف ما الذي سيحل بحياتي، ولستُ أعرف هذه المدينة، لا أعرف أحداً، والأبواب توصد في وجهي...

كان القزم صامتاً، متضايقاً، ينظر إلى قدميه، المعلقتين في الهواء، وكانت تشيتي ترتجف من البرد، مع أنهما في أوج الصيف، بينما جدول دموع حقيقية، يسيل من أعينهما، ويجتاز الحديقة باتجاه البحيرة التي تبحر فيها زوارق التجديف.

الراوي

كانت أزمنة منفى. وبعيداً جداً عن بلاده، كان هيكتور تيثون يشعر بآلام في جذوره، كأنها آلام أعصاب مكشوفة لا يغطيها الجلد.

نصحه أحدهم بعلاج نفساني. لكنه، هو والطبيب النفسي، كانا يستغرقان صامتين في أبديةِ كل جلسة. المريض المستلقي على الأريكة لا يفتح فمه، لأنه من طبيعة انطوائية، ولاعتقاده بأن سيرة حياته تخلو من أية أهمية. وكان الطبيب المعالج صامتاً أيضاً، وأوراق الدفتر القابع على ركبتيه، تبقى بيضاء، جلسة إثر جلسة، دائماً بيضاء. وعند انقضاء الدقائق الخمسين، يتنهد الطبيب النفساني:

ـ حسن. لقد انتهى الوقت.

وكان هيكتور يرثي لحال الرجل الطيب، ويرثي لحال نفسه بالذات.

صمم على أنه لا يمكن للأمور أن تستمر على تلك الحال.

ومنذ ذلك الحين، وبينما القطار ينقله، في الضحى، من تيرثيديّا إلى مدريد، كان هيكتور يبتدع حكايات جيدة ليرويها. وما إن يستلقي

على الأريكة، حتى يمتطي قوس قزح، ويطلق العنان لحكاياته عن جبال مسحورة، وأرواح تصفر في الليل، وأضواء خبيثة تصنع بيوتاً في الضباب، وحوريات بحر يداعبن جيتارات على ضفاف نهر يالا.

الغريق

كان ألبيرت لندن قد سافر كثيراً، وكتب كثيراً. كتب عن فورات الغضب في البلقان والجزائر، وعن خنادق الحرب العالمية الأولى، وعن متاريس روسيا والصين، وعن تجارة العبيد في داكار، وعن الرقيق الأبيض في بوينس آيرس، وعن بؤس صيادي اللؤلؤ في عدن، وعن جحيم السجناء في كايّنا.

ذات ليلة هادئة، بينما هو يمشي في شوارع شنغهاي، صفعه شيء كالبرق بنور الكشف العنيف.

إله ما، على ما أعتقد، قدم له هذا الجميل، بدافع الشهامة أو القسوة.

منذ ذلك الحين لم يستطع الأكل أو النوم.

كل ساعات السهر والنوم كُرست لإبداع كتاب سيكون الأول، مع أن لديه عشرين كتاباً منشوراً. بدأ يعمل معتكفاً في حجرته في أحد فنادق الميناء، وواصل مهمته، بحمى لا تهدأ، وهو محشور في قمرته في سفينة تدعى جورجس فيليبار.

عند الوصول إلى مياه البحر الأحمر، احترقت السفينة. لم يجد ألبيرت بداً من الخروج إلى السطح، وهناك أُلقي به، دفعاً، في أحد زوارق النجاة. كان الزورق قد بدأ الابتعاد عن السفينة المشرفة على الغرق، عندما ضرب ألبيرت جبهته، وصرخ: *كتابي!* وألقى بنفسه في الماء. وصل سابحاً، وتسلق السفينة المشتعلة كيفما استطاع، ودخل في النار، حيث كان كتابه يحترق.

ولم يُعرف بعد ذلك أي شيء عن الاثنين.

مديح للصحافة

كان ألبيرتو بيياغرا شرهاً للجريدة. ففي موعد الفطور، تقرمش الأخبار بين يديه وهي خارجة لتوها من الفرن.

وقد أقسم في صباح أحد الأيام:

- سأقرأ الجريدة يوماً وأنا امتطي فيلاً.

ساعدته زوجته روسيتا على تنفيذ وعده. جمعا نقوداً إلى أن تمكنا من السفر إلى الهند، وحقق ألبيرتو رغبته. لم يتمكن من تناول الفطور على ظهر الفيل، ولكنه استطاع أن يتصفح إحدى صحف بومباي دون أن يقع من فوق.

ابنته هيلينا مهووسة بالجريدة أيضاً. ففنجان القهوة الأول لا رائحة له، ولا طعم ولا معنى إذا هو لم يأت برفقة الصحيفة. فإذا لم تكن الجريدة حاضرة، تظهر على الفور أول أعراض الانقطاع: ارتعاش، دوار، تلعثم.

وهيلينا توصي في وصيتها بعدم حمل الأزهار إلى قبرها، وتطالب:

- احملوا إليّ الجريدة.

تعليمات لقراءة الجريدة

كان الجنرال المكسيكي فرانثيسكو سيرّانو يدخن ويقرأ، غارقاً في إحدى أرائك النادي العسكري في سونورا.

الجنرال يقرأ الجريدة. والجريدة مقلوبة، أعلاها إلى أسفل.

أراد رئيس الجمهورية ألفارو أوبريغون أن يعرف:

- هل تقرأ الجريدة مقلوبة دوماً؟

أومأ الجنرال بالإيجاب.

- وهل يمكنني أن أعرف السبب؟

- إنها الخبرة أيها الرئيس، إنها الخبرة.

تعليمات للتفوق في المهنة

قبل ألف سنة، قال سلطان بلاد فارس:

- *كم هو لذيذ.*

لم يكن قد تذوق الباذنجان من قبل قط، وكان يأكل شرائح منه، متبلة بالزنجبيل وأعشاب النيل.

عندئذ امتدح شاعر البلاط الباذنجان الذي يمتع الفم، ويحقق المعجزات في الفراش، لأنه في مآثر الحب، أقوى من مسحوق ناب النمر ومن قرن الكركدن المبشور.

بعد لقمتين من ذلك، قال السلطان:

- *يا للقرف.*

عندئذ لعن شاعر البلاط الباذنجان المخادع، الذي يسبب عسر الهضم، ويملأ الرأس بأفكار خبيثة، ويدفع الرجال الصالحين إلى مهاوي الهذيان والجنون.

- *قبل قليل رفعتَ الباذنجان إلى الفردوس، وها أنتذا تلقي به الآن إلى الجحيم* - علق أحد الماكرين.

الشاعر الذي كان أحد أنبياء وسائل الاتصال الجماهيري، وضع الأمور في نصابها:

- *أنا نديم السلطان، ولست نديم الباذنجان.*

اتجاه ممنوع

أفكارُ أسبوعيّة *مارتشا* كانت تكشف نوعاً من الميل إلى الأحمر، ولكن الأرقام كانت أكثر حمرة. هوغو ألفارو، فضلاً عن كونه صحفياً، كان يقوم كذلك بدور إداري، وينجز المهمة غير الحميدة في دفع الحسابات، وكان يقفز فرحاً في مناسبات نادرة:

- *حصلنا على تمويل لطبع العدد!*

ويكون قد جاء إعلان.

في التاريخ الكوني للصحافة المستقلة، يجري الاحتفال دائماً بمثل هذه المعجزة، باعتبارها دليلاً على وجود الرب.

ولكن لون وجه المدير كارلوس كيخانو كان يصير أخضر. يا للرعب. لم يكن هناك خبر أسوأ من ذلك الخبر الطيب. فإذا ما دخل إعلان، ستجري التضحية بصفحة أو عدة صفحات، وكل جزء من صفحة هو حيز مقدس لا غنى عنه لقضايا مؤكدة، لنزع أقنعة، وإثارة وكر دبابير، والمساعدة في ألا يكون الغد مجرد اسم آخر لليوم.

بعد أربع وثلاثين سنة، ظهرت الدكتاتورية العسكرية في الأروغواي، وقضت على ***مارتشا*** وحالات جنون أخرى.

صانع القبعات

رنَّ الهاتف، وسمعتُ الصوت الهادر: خطيئة مثل هذه، لا يمكنني أن أصدق، اسمعني جيداً، أنا لا أتكلم لمجرد الكلام، صحيح أنه يمكن لسهو أن يمر وينقضي، وهذا يحدث لأي شخص، ولكن خطيئة مثل هذه...

أصابني البكم، ورأيت أن الأسوأ قادم. كنتُ قد نشرت للتو كتاباً عن كرة القدم في أحد البلدان، في بلادي، حيث جميعنا دكاترة في كرة القدم. أغمضتُ عيني وتقبلت إدانتي:

- مونديال سنة 30 – *قال الصوت الهرم، إنما غير المهادن، بنبرة اتهامية.*

فتلعثمتُ:

- *أجل.*

- ***جرى في شهر تموز.***

- أجل.

- ***وكيف هو الطقس في تموز، في مونتيفيديو؟***

- بارد.

- بل بارد جداً – *صحح لي الصوت، وهاجم:*

ـ *وأنت كتبتَ أن الستاد كان بحراً من قبعات القش!* وأضاف بسخط: *من القش؟... إنها من اللبد! لقد كانت من اللبد!*

انخفضت نبرة الصوت، واستذكر:

ـ أنا كنتُ هناك في ذلك المساء. وكسبنا 2/4، إنني أرى ذلك. ولكنني لا أكلمك من أجل هذا. وإنما أكلمك لأني صانع قبعات، وقد كنت صانع قبعات على الدوام، وكثير من تلك القبعات... صنعتها أنا.

القبعة

عندما يضع القبعة، كان الشاعر مانويل ثيكيرا ينظر في المرآة ولا يرى شيئاً سوى القبعة.

كان يعرف أن القبعة تخفيه عن الأنظار، وتجعله غير مرئي. سكان هافانا الآخرون ما كانوا يشاطرونه بأي حال هذا اليقين، ولكن الشاعر لم يكن ينظر بعين الرضا إلى آراء الآخرين.

ومعتمراً القبعة، يدخل مانويل البيوت والحانات، فيقبّل أفواهاً محظورة، ويأكل أطباق الآخرين، غير عابئ بالغضب الذي ينفلت. وفي أيام شهر تموز، عندما تغلي المدينة من الحر، يتجول ماشياً في الشوارع، بلا أية ملابس أخرى سوى القبعة، ولا يولي أدنى اهتمام للناس الذين يرجمونه بالحجارة. فهو لا يشعر بشيء، ما داموا لا يلمسون القبعة.

تلك القبعة التي تترنح في الفضاء، هي الجزء الوحيد منه الذي لم يمت عندما مات هو.

المختارة

لم يولد فيها، ولكنه اجتاز البحر بحثاً عنها، وفي شوارعها عاش.

الناس يسمونه فارس باريس، بالرغم من أنه غاليسي آتٍ من لوغو.

لم يتقبل الصدقات قط. وليتغذى، كانت تكفيه الشمس التي توفرها له.

من أجلها، وفي عهدِ حبٍ، لم يقص شعره ولم يحلق لحيته قط،

فكانا يصلان حتى قدميه. وبواجب الطاعة، كان يبدل مكان إقامته بين لحظة وأخرى؛ يحمل على كاهله كل ممتلكاته التي يتسع لها كيسان قماشيان عتيقان، وينتقل الفارس من أحد مقاعد حديقة يسوع إلى أدراج كنيسة القلب المقدس، أو يقيم قلعته في إحدى تعرجات مرفأ كابايريا.

في هذا المرفأ الذي يشعر أنه له تماماً، غفر لرجال حرب العصابات في سييرا مايسترا استنساخهم عنه لحيته، وأنهى ذلك المساء التاريخي بإلقاء أشعار مكرسة لملكته وسيدته.

وفي خدمتها، وخدمة مفاتنها الكثيرة، جعل الفارس من نفسه ملك الملوك وسيد السادة. ودفاعاً عنها، كان يطلق تصريحاته الحربية ضد الأعداء الطامعين بها. وأمام تماثيل الأسود في شارع باسيو دي برادو، محاطاً بحراسه المأجورين وبعض عابري السبيل الفضوليين، كان يقسم بأنه سيدافع عنها حتى الموت، ويدعو أسطول سفنه ذات المدافع، وجيوش الفجر، والظهيرة، والغروب، ومنتصف الليل.

إنه يرقد الآن تحت أرض دير سان فرانثيسكو، إلى جانب المطارنة، والأوصياء، والفاتحين الإسبان.

هناك، في ذلك المكان الذي يستحقه، دفنه أوسيبيو ليال الذي كان، على الدوام، مجنوناً بها أيضاً.

وفيها يرقد الفارس الآن. في هذه السيدة المخلعة والمتكبرة، المدعوة هافانا التي تحرس رقاده.

ذباب

جسم خوسيه ميغيل كورتشادو ممتلئ بالأسئلة. منذ سنوات طويلة لم يعد يعرف كمية الأسئلة التي تحاصره دون راحة؛ ولكنه يتذكر المساء الذي دخل إليه فيه أول سؤال.

كان ذلك في مدينة إشبيلية، في عصر يوم شمس وأزهار برتقال، مثلما تقتضي العادة: عصر يوم مثل عصر أي يوم آخر، وبعد يوم عمل

كأي يوم آخر. كان يمضي ماشياً باتجاه بيته، وسط الزحام، وحيداً في وحدةٍ مثل أي وحدة أخرى، عندما جاءه السؤال الأول، طائراً مثل ذبابة. أراد هو أن يهشه بعيداً، لكن السؤال ظل يحوم حوله، إلى أن دخل فيه ولم يخرج بعدها، ولم يدعه ينام طوال تلك الليلة.

في اليوم التالي، جلس خوسيه ميغيل على كرسي، وأعلن:

- لن انهض من هنا إلى أن أعرف من أنا.

تطهر

حدث ذلك عام 1950. فخلافاً لكل التوقعات، ولكل ما هو جلي، هُزمت البرازيل على يد الأورغواي، وخسرت بطولتها العالمية بكرة القدم.

بعد الصفير النهائي، وبينما كانت الشمس تغرب، ظل الجمهور جامداً على مدرجات ستاد ماراكانا المدشن حديثاً. شعب منحوت من الحجر، نصب هائل للهزيمة: أكبر حشد اجتمع في تاريخ كرة القدم على الإطلاق لا يستطيع الكلام، لا يستطيع الحراك. وهناك بقي المحزونون، حتى وقت متقدم من الليل.

وهناك كان إسياس أمبروسيو. كانوا قد أهدوا إليه بطاقة دخول، لأنه أحد البنائين الذين شيدوا الستاد.

وبعد مرور نصف قرن، مازال إسياس أمبروسيو هناك.

يجلس في المكان نفسه، على مدرجات المارد الإسمنتي الخاوية، يكرر طقسه غير المجدي. فمع كل غروب، في ساعة الشؤم، يبث إسياس أمبروسيو اللعبة التي ختمت الهزيمة، ملصقاً فمه بميكروفون غير مرئي، لمستمعي إذاعة متخيلة. ينقل اللعبة خطوة خطوة، دون أن ينسى أي تفصيل مؤلم، وبصوت مذيع محترف، يصرخ معلناً الهدف، أو يبكيه بكلمة أدق، ويعود لبكائه، كما في المساء السابق وفي المساء اللاحق، وفي كل المساءات.

الآلة

خليط من المذياع، والهاتف، والمكواة، مزودة بذراع تدوير وميكروفون، كانت آلة روزفلت نيكوديمو على مستوى تكنولوجي رفيع.

والآلة، وفق ما يقوله روزفلت، هي التي بعثته حياً عندما مات وتخثر مثل السجق. ومنذ ذلك الحين لم يعد يؤمن إلا بها.

كلما حصل على إذن بالخروج، يذهب روزفلت إلى شارع الكونت، ويبقى هناك ساعات، يتأمل مرور فتيات مجتمع سانتو دومنغو الراقي.

ودائماً هناك واحدة تفوق الأخريات تألقاً، ووراء أنوارها كان يمضي، محتفظاً بمسافة تنم عن الاحترام.

وفي الليل، تخبره الآلة التي لا تكذب أبداً:

- ***إنها تعبدك.***

وفي خروجه التالي، يقطع روزفلت الطريق على تلك السيدة:

- ***إلى متى ستواصلين التظاهر بعدم المبالاة؟ لسانك صامت، ولكنني أسمع صوت قلبك.***

وتؤكد له الآلة:

- ***إنها تموت فيك.***

ولكنها ما إن تراه، حتى تهرب راكضة. فينفد صبر روزفلت ويلحق بها صارخاً ***جبانة، مخادعة، كاذبة***. ليس يأساً؛ وإنما استنكاراً. فهو لا يستطيع التسامح مع التصنع.

ودوماً تنتهي أذونات خروجه بالطريقة نفسها: ضربٌ مبرح، وعودة إلى مستشفى نيغوا للمجانين.

فتواسيه الآلة:

- ***لو كانت النساء ضروريات، لاتخذ الرب له واحدة منهن.***

الإصابة بالعين

تعطل جراره: لا بد أن يحدث ذلك مرة.

تلف المحصول: الطقس لم يساعد.

ولكن عندما انقضَّت المصيبة على البقرة، وولد العجل ميتاً. بدا الأمر واضحاً لأنطونيو: لقد أصابه الجيران بالعين.

لا يمكن أن تكون مجرد إصابة عين عادية. إنها شديدة الفعالية. وتوصل أنطونيو إلى أن أعداءه يرسلون النحس بواسطة جهاز إلكتروني، يشبه التلفاز ولكنه ليس تلفازاً. بحث عن العين التكنولوجية الحاسدة في كل أنحاء قرية أمبيا، متفحصاً هوائيات البيوت، بيتاً بيتاً. ولم يجدها.

ولم يجد وسيلة أخرى للخلاص سوى الانتقال إلى بيت متوغل في الجبل، حيث لا وجود للكهرباء.

أحاط حصنه بأوراق أشجار تحمي من العين، وبأسنان ثوم، وزجاجات مملوءة خبزاً، وبعقد واسع من الملح يحيط البيت كله؛ وغطى الجدران، من الداخل، بصلبان من كل الأحجام، وصور لأشهر لاعبي كرة القدم في غاليسيا.

وغرس في الباب سكين تقطيع الجسد.

ناظراً إلى ميرو

دخل ألمير دي أبيلا طفلاً، فصنفوه مجنوناً، ولم يخرج قط.

لم يكتب إليه أحد رسالة، ولم يتلق قط زيارة أحد.

ومع أنه يمكنه الذهاب، إلا أنه ليس لديه مكان يذهب إليه. ومع أنه يرغب في الكلام، إلا أنه لا يجد من يتحدث إليه.

منذ أكثر من أربعين سنة يقضي أيامه في مستشفى المجانين في سان باولو، متجولاً في دوائر، يلاصق أذنَهُ مذياعٌ، ويلتقي في طريقه، دوماً، بالرجال أنفسهم الذين يتجولون في دوائر ويلاصق آذانهم مذياع.

أحد الأطباء نظم زيارة إلى معرض لرسوم خوان ميرو.

ارتدى ألمير بدلته الوحيدة.. عتيقة ولكنها مكوية جيداً تحت الفراش،

وغطّس حتى عينيه قبعة الأميرال، ومضى مع الآخرين إلى المتحف.

ورأى. رأى الألوان التي تفرقع، والبندورة ذات الشوارب، والشوكة التي ترقص، والعصفور الذي هو امرأة عارية، والسماوات ذات العيون، والوجوه ذات النجوم.

تنقل، مقطب الجبين، من لوحة إلى لوحة. كان واضحاً أن ميرو قد خذله، ولكن الطبيب أراد أن يعرف رأيه.

- *هذا كثير*- قال المير.

- *كثير من أي شيء؟*

- *كثير من الجنون.*

انعدام رؤية

منذ أكثر من سنة وتيتينا بينابيدث لا تستطيع رفع جفنيها.

اعتقدوا في المستشفى بأنها قد تكون حالة وهن عضلي، وهو مرض نادر؛ ولكن الفحوص استبعدت هذه الشكوك. ولم يتوصل طبيب العيون كذلك إلى أي شيء.

ظلت تيتينا مسدلة الجفنين نهاراً وليلاً، حبيسة مزرعة أسرتها، في ضواحي مدينة لاس بيدراس.

ربما فقدت عيناها الرغبة في مواصلة النظر. من يعرف. ولكن المعروف هو أن قلب هذه الفتاة الشابة وافرة الصحة، فقد الرغبة في مواصلة النبض.

حدث ذلك في الحادي والثلاثين من كانون الأول سنة 2000. لقد ماتت تيتينا في الوقت نفسه الذي كانت تموت فيه السنة، والقرن، والألفية، ربما متعبين أيضاً، مثلها، من رؤية ما يرونه.

رؤية

في حقول سالتو، كان رئيس العمال ذاك، المتقدم في السن، مشهوراً بقدرته على رؤية ما لا يراه أحد.

سأله كارلوس سانتايّا، بكل احترام، إذا ما كان صحيحاً ما يقال، عن أنه يرى ما لا يُرى لأن عقله كبير. فقد كان عقله كبيراً، كما يقال، إلى حد لا تتسع له جمجمته، ويسبب له وجعاً في الرأس.

ضحك الغاوتشو العجوز مقهقهاً:

ـ أنا، ما أستطيع قوله لك هو أنني فضولي جداً، وأنني محظوظ. فكلما تلف بصري، أرى أكثر.

كان عمر كارلوس تسع سنوات عندما سمعه. وعندما قارب عمره القرن، كان لا يزال يتذكره. وكانت السنون قد أتلفت بصره أيضاً، كي يرى أكثر.

وجهات نظر

في مكان ما من الزمن، فيما وراء الزمن، كان العالم رمادياً. وبفضل هنود إسهير الذين سرقوا الألوان من الآلهة، صار العالم يتلألأ الآن، وصارت ألوان العالم تشتعل في عيون الناظرين.

رافق تيسيو إسكوبار فريقاً تلفزيونياً سافر إلى تشاكو، وكان آتياً من بعيد جداً، ليصور مشاهد من حياة هنود إسهير اليومية.

راحت طفلة هندية تلاحق مدير الفريق، كظل صامت ملتصق به، تنظر بإمعان إلى وجهه، كأنها تريد التغلغل في عينيه الزرقاوين.

لجأ المدير إلى مساعي تيسيو الحميدة، لأنه يعرف الطفلة ويفهم لغتها. فاعترفت له:

ـ أريد أن أعرف اللون الذي ترى به الأشياء.

ـ اللون نفسه الذي ترينها به ـ أجابها المدير.

ـ وكيف تعرف أنت اللون الذي أرى به الأشياء.

ألوان

الآلهة والشياطين يختلطون بالجموع، يذهبون ويجيئون مندسين بين صعود ونزول الحشود المبرقشة.

الضوء يصرخ، والهواء يرقص. كل شخص هو لون يمشي. من الأجساد السوداء، تنحدر ظلال خضراء وزرقاء، وتلونات كثيرة يظهرها بريق الهواء، حتى إن قوس قزح يفضل عدم الظهور، تجنباً للسخرية.

بوجه إلى البحر، مسفوحة على سفوح الجبال المسلوخة، تعرض بورت أوبرنس نفسها للعيون كأعجوبة ألوان، حيث تصاب الحياة بالذهول، وتنسى ضآلة أمدها وكثرة ألمها.

ترى، هل تستنسخ المدينة نفسها عن الرسامين الذين يرسمون المدينة؟ أم أنها هي نفسها من تحول قمامتها إلى جمال؟

معجم الألوان

حسب من تبقى على قيد الحياة من الهنود على ضفاف نهر باراغواي، فإن التزين بالريش يمنح ألواناً وسلطات.

فريش الببغاء الأخضر لا يمنح جسم من يضعه السيادة وحسب، وإنما يبعث الحياة كذلك في النباتات المحتضرة.

ولولا الريش الوردي لطائر يدعى إسباتولا، لما طرحت شجيرة التونا ثمراً.

ريش البط الأسود مفيد ضد تعكر المزاج.

ببغاء الفاكامايو يقدم ريشاً أحمر لاستدعاء المطر، وريشاً أصفر لاجتذاب الأخبار الطيبة.

وريش النعام الرمادي الذي يبدو شديد الكآبة، يمنح الغناء البشري بريقاً.

سباعي الألوان

كان دانتي دي أوتوني يتمشى في حديقة رودو، مستسلماً للتسكع بين الأشجار، عندما رأى امرأة منحنية أمام منظار تلسكوبي ضخم، موجه نحو البحيرة.

- اعذريني يا سيدتي...

أبعدت المرأة عينها عن العدسة، ودعته:

- *انظر، انظر.*

واكتشف دانتي وجود «سباعي ألوان»، طائر من تلك التي لا تُرى أبداً في مونتيفيديو، يخفق بجناحيه فوق البحيرة.

أخبرته أنها كانت ترغب في شراء منظار يدوي، لشدة ولعها بمراقبة الطيور الطليقة، لكن النقود لم تتوفر لها. وفي يوم أحد، في سوق تريستان نارباخا الشعبي، وجدت هذا الجهاز، مكوماً بين أشياء قديمة أخرى، وحصلت عليه مقابل بيزوات قليلة.

كان «سباعي الألوان» يخفق بجناحيه على غير هدى، بينما المنظار التلسكوبي يلاحق سعادة الهواء تلك.

الملك

في إحدى حدائق خيخون، هناك من يصرخ من أعالي الأشجار.

عندما لا يُسمع أي شيء سوى حفيف النسيم بين الأوراق، تمزق الصمت تلك الصرخة التي لها وقع ولولة بشرية.

إنها صرخة الطاووس الليلية.

فخلال النهار، يستعرض ألوانه البراقة. يجرجر ريش ذيله الطويل، ويتبختر الطاووس مزهواً بملابسه الاحتفالية على الدوام. وعندما يدور حول نفسه ويفرد ذيله، تاجاً وارفاً من الزرقة والخضرة، يفتن بريق جماله السائرين ويُذلّ طيور الحديقة الأخرى.

البط، البجع، الإوز، الحمام، عصافير الدوري، تطير معاً، أو تمشي معاً، أو تسبح في البحيرة معاً؛ ومعاً تتكلم وتأكل وتنام. أما الطاووس فيعيش دون أحد، بعيداً عن الطواويس الأخرى، ويجتمع مع لا أحد.

فمن ولد ليُنظر إليه، لا ينظر إلى أحد.

عندما يحلّ الليل، ويغادر الناس الحديقة، يطير الطاووس إلى أعلى غصن شجرة مقفرة، لينام. وحيداً.

عندئذ يصرخ.

تاريخ الفن

ـ انظر يا أبي، إنها جواميس!

أدار مارثيلينو ساوتولا رأسه. وعلى ضوء المصباح، رأى. لم تكن جواميس. فعلى سقف المغارة، رسمت أيدٍ بارعة ثيران بيزون، وغزلاناً، وخيولاً، وخنازير برية.

بعد قليل من ذلك، نشر ساوتولا كراساً عن تلك الرسوم التي وجدها، عن طريق ابنه، في مغارة ألتاميرا. وقد كانت، حسب رأيه، أعمالاً من عصور ما قبل التاريخ.

توافد من كل الأنحاء علماء كهوف، وعلماء آثار، وعلماء مستحاثات، وانثروبولوجيون: ولم يصدقه أحد. قيل إن صاحب تلك الرسوم هو فنان فرنسي، صديق لساوتولا، أو مازح آخر من رسامي الطليعة الجمالية الأوروبية.

في ما بعد، عُرف أن أولئك الصيادين القدماء من العصر الحجري القديم، لم يقتصروا على ملاحقة الحيوانات. وإنما عمدوا أيضاً، كتعويذة ضد الجوع وضد الخوف، أو لمجرد فعل ذلك ببساطة وحسب، إلى ملاحقة الجمال الذي يهرب.

ذاكرة الحجر

في أعماق أحد كهوف نهر بينتوراس، طبع صيادٌ يدَهُ الحمراء بالدم على الحجر. لقد ترك يده هناك، في لحظة راحة ما بين تسرع القتل وهلع الموت. وبعد زمن من ذلك، طبع صياد آخر، إلى جانب تلك اليد، يده المسودة بالهباب. ثم راح صيادون آخرون، بعد ذلك، يتركون على الجدار آثار أيديهم المخضبة بألوان تنحدر من الدم، من الفحم، من التراب، أو من النباتات.

بعد ثلاثة عشر ألف سنة، على مقربة من نهر بينتوراس، في مدينة بيريتو مورينو، كتب أحدهم على الجدار: *أنا كنتُ هنا*.

الرسام

غويسكاردو أميندولا، جار من الحي، كان ذاهباً لرسم جدارية في بار على شاطئ البحر. ودعاني لمرافقته.

لم يحمل معه علبة ألوان ولا رياشاً ولا سلّماً ولا أي شيء. لم تكن هذه هي الحالة التي كنت أتصور فيها مايكل أنجلو وهو ذاهب إلى كنيسة السيستين، لكن سنوات عمري القليلة لم تكن تخولني الحق بتوجيه الأسئلة.

كان بانتظارنا جدار أسود كبير.

صعد أميندولا على كرسي، وأخرج من جيبه قطعة عملة مسننة الإطار. وبدأ الهجوم وقطعة النقد في يده. جرح حدُّ العملة الجدارَ في خطوط طويلة بيضاء، راحت تتقاطع بلا معنى. وكنت أراه يفعل ذلك، دون أن أفهم تلك المبارزة. وبعد عدة طعنات، رأيت فناراً يظهر على السواد... فنار مهيب ينتصب بين الصخور، ويعكس ضوءاً على الأمواج.

ذلك الفنار، المولود من قطعة عملة، سينقذ من الغرق بحارة السفن وسكارى البار.

المصور

كان لاعب كرة قدم، يلعب في المنتخب الوطني الكوبي. كرةٌ قويةٌ طرحته أرضاً.

بدا ميتاً. بعد زمن، استيقظ في المستشفى. كان حياً. وكان أعمى.

والآن، صار هيلاديو سانتشيث مصوراً. يحمل آلة التصوير، ويمارس فنونه في عالم التصوير. يختار الموضوع الذي يكون وقعه أفضل في مسمعه، يقيس المسافة بالخطوات، ويضبط العدسة حسب كثافة الحر. وعندما يصير كل شيء جاهزاً. يضغط الزر.

يصور هيلاديو نور الشمس الذي يوجه خطى الساعات والناس.

لا يصور ضوء القمر. ففي كل ليلة، تلامس هذه الأصابع الباردة وجهه. فيتصنع الأعمى الصمم.

النحاتون

جبل بيلتريكيترون يشمخ برأسه في السحاب. إلى ما قبل وقت قصير، كان ذلك الرأس غابة محروقة. أما الآن، فهو غابة منحوتة.

إحدى الحرائق التي صارت شائعة في منطقة باتاغونيا، انقضَّت على الجبل. عندئذ صعد الفنانون النحاتون، آتين من هنا ومن هناك، إلى تلك القمة وبدؤوا العمل في الجذوع التي أسقطتها النار أرضاً أو بترتها.

أكانت الأشجار ميتة، أم كانت تتظاهر بأنها ميتة؟

خلال أسبوع، يوماً بعد يوم، أنجز النحاتون مهمتهم. وببراعة أيديهم وسحرها، تحولت تلك المقبرة إلى مسرح.

العرض يبدأ فور وصولك. فجذع عملاق صار الآن مهرجاً، يباعد ما بين ساقيه، وبقبعة واحدة ورأسين. المهرج يرحب بالقادمين. ويدخل الزوار ويتنقلون، من شجرة إلى شجرة، على امتداد الأجساد الخشبية التي تنتصب من الأنقاض، وبين الأنقاض تلعب.

طيارات

ينتهي موسم الأمطار، يبرد الجو، وتعرض الذرة نفسها للأفواه في الحقول. وأهالي قرية سانتياغو ساكاتيبيكيث، فنانو الطيارات الورقية، يضعون اللمسات الأخيرة على أعمالهم الفنية.

الطيارات جميعها مختلفة، تولد من أيد كثيرة، إنها الأكبر والأجمل في العالم.

عندما يطلع صباح يوم عيد الموتى، تُطلَق طيور الريش الورقي تلك للتحليق، وتتموج في السماء، إلى أن تنقطع الحبال التي تربطها وتضيع هناك في الأعلى.

وهنا في الأسفل، عند كل قبر، يروي الناس لموتاهم أقاويل القرية ومستجداتها. الموتى لا يردون. إنهم يستمتعون باحتفال الألوان هذا الذي يجري هناك، حيث يحالف الحظ الطيارات لتصير ريحاً.

ثمن الفن

كانت أوروبا من اللطف بحيث حضَّرت أفريقيا السوداء. مزقت خريطتها وابتلعت أجزاءها؛ سرقت منها الذهب، والعاج، والماس؛ وانتزعت منها أقوى أبنائها بنية وباعتهم في أسواق النخاسة.

ومن أجل استكمال تربية الزنوج، أهدت إليهم أوروبا العديد من الغزوات العسكرية للعقاب والعبرة.

في أواخر القرن التاسع عشر، نفذ الجنود البريطانيون، في مملكة بينين، واحدة من هذه العمليات التربوية. وبعد المجزرة، وقبل الحريق، أخذوا الغنيمة. كانت أكبر مجموعة فن أفريقي أمكن رؤيتها على الإطلاق: كمية هائلة من الأقنعة، والتماثيل والمنحوتات المنتزعة من المعابد التي تمنحها الحياة والحماية.

تلك الأعمال تنحدر من ألف سنة من التاريخ. جمالها المذهل، أيقظ في لندن بعض الفضول؛ ولكنه لم يُثر أي إعجاب. فثمار حديقة الحيوان الأفريقية لا تثير اهتمام أحد سوى الشاذين من هواة اقتناء الأعمال الفنية، والمتاحف المخصصة للعادات البدائية. ولكن عندما أرسلت الملكة فيكتوريا الغنيمة إلى المزاد، غطت النقود التي جُمعت كل نفقات الحملة العسكرية.

وهكذا، موّل فن بينين تدمير المملكة التي وُلد ذلك الفن وتكوّن فيها.

الموسيقى الأولى

طنين مثل طنين البعوض في الصيف، مع أن الوقت لم يكن صيفاً.

في تلك الليلة من عام 1964، لم يستطع أرنو بينزاس وروبرت ويلسون العمل بسلام. فمن إحدى ذرى جبال الأبالاش، كان العالمان الفلكيان يحاولان التقاط موجات تصدر لا أحد يعرف عن أي مجموعة شمسية، ولكن الهوائي اللاقط كان يعيد إليهما أزيزاً يعذب آذانهما.

في ما بعد، عُرف الأمر. الأزيز هو صدى الانفجار الذي كان أصل

الكون. تلك الذبذبات التي يلتقطها الهوائي لم تكن من البعوض، وإنما من الانفجار الذي أسس الزمان والمكان والكواكب وكل ما سوى ذلك. وأقول أنا، ومن يدري، ربما كان الصدى لا يزال هناك، يطن في الهواء، لأنه يريد أن نسمعه، نحن الكائنات الصغيرة الأرضية، لأننا كذلك أصداء ذلك البكاء النائي للكون حديث الولادة.

ثمن التقدم

أبولو، شمس الإغريق، كان إله الموسيقى.

هو من اخترع القيثارة التي أذلت النايات. وبمداعبة القيثارة كان يُخرج إلى البشر الفانين أسرار الحياة والموت.

في أحد الأيام، اكتشف أكثر أبنائه ولعاً بالموسيقى، أن الأوتار المأخوذة من أمعاء الجاموس ترن أفضل من أوتار الكتان.

جرب أبولو، وحيداً مع قيثارته، ذلك الاختراع. هز الأوتار الجديدة وتأكد من أنها متفوقة.

عندئذ، متع فمه بطعام وشراب الآلهة من النكتار والأمبروسيا، ورفع قوسه الحربي، سدد إلى ابنه؛ ومن بعيد، مزق صدره بسهم.

موسيقى

كان ساحراً في العزف على القيثار. ولم تكن هناك حفلة في جبال كولومبيا دون وجوده. فلكي تكون الحفلة حفلة، لا بد من أن يكون ميسيه فيغيريدو هناك، بأصابعه المتراقصة التي تبهج الأجواء وتهيج السيقان للرقص.

في إحدى الليالي هاجمه اللصوص على أحد الدروب النائية. كان فيغيريدو ذاهباً إلى حفلة زفاف، على متن بغلة. كان يمضي ممتطياً بغلة والقيثار على بغلة أخرى، عندما انقض عليه بعض اللصوص وأشبعوه ضرباً.

عثر عليه أحدهم في اليوم التالي. كان ملقى على الطريق، مجرد خرقة متسخة بالوحل والدم، أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. وعندئذ قالت كتلة اللحم الممزقة تلك، ببقية صوت:

- لقد أخذوا البغلتين.

وقال:

- وأخذوا القيثار.

ثم أخذ نفساً وضحك، ضحك وهو يطلق لعاباً ودماً:

- ولكنهم لم يأخذوا الموسيقى.

نايات

رقصُ الحياة، أكلُ الحياة: مدينة سيبارس، في جنوبي ما صار يسمى الآن إيطاليا، كانت مكرسة للموسيقى والموائد الجيدة.

ولكن السيبارسين أرادوا أن يصيروا محاربين، وحلموا بشن الغزوات؛ فدُمرت سيبارس. مسحتها مدينة كورتونا المعادية عن الخريطة، منذ خمسة وعشرين قرناً.

على ضفاف خليج تورنتو، دارت المعركة الفاصلة.

السيبارسين الذين تربوا على الموسيقى، هُزموا بالموسيقى.

عندما اندفع فرسان سيبارس إلى الهجوم، امتشق جنود كورتونا ناياتهم. تعرفت الخيول على اللحن، فأوقفت عدوها فجأة، ورفعت قوائمها الأمامية وبدأت ترقص. لم تكن اللحظة المناسبة لذلك، نظراً للظروف المحيطة، ولكن الخيول واصلت الرقص، مثلما هو ذوقها وعادتها، وبينما كان فرسانها يهربون، لم تتوقف النايات عن العزف.

الرقص

كانت هيلينا ترقص في علبة موسيقى، حيث السيدات ذوات التنانير المنتفخة والسادة ذوو الشعور المستعارة يدورن، ويقومون بانحناءات احترامٍ، ثم يواصلون الدوران. لقد كانت تلك الدوامات الخزفية مضحكة قليلاً

ولكنها لطيفة، وكان الانزلاق معها في حلزونية الموسيقى ممتعاً، إلى أن تعثرت هيلينا في إحدى الحركات الدورانية، ووقعت وانكسرت.

الصدمة أيقظتها. ساقها اليسرى كانت تؤلمها كثيراً. أرادت النهوض، فلم تستطع المشي. كان كاحلها متورماً جداً.

- *لقد سقطتُ في بلاد أخرى* - اعترفت لي - *وفي زمن آخر.*

ولكنها لم تقل ذلك للطبيب.

طبوليات

كما الأحلام، الطبل يدوي في الليل.

في أميركا، كانت ثورات العبيد تستتر في النهار، تحت وقع السياط، وتندلع في الليل، على ضربات الطبل.

عندما أحرق الفرنسيون المتمرد ماكاندال حياً، لأنه يهيج زنوج هايتي، كانت الطبول هي التي أعلنت أنه قد هرب من المحرقة، متحولاً إلى بعوضة.

الأسياد ما كانوا يفهمون لغة الإيقاعات، ولكنهم يعرفون جيداً أن أصوات السحر تلك قادرة على نقل الأخبار الممنوعة، وأنها تستدعي الآلهة السريين، أو الشيطان نفسه الذي يرقص على إيقاع الطبل والخلاخل في كاحليه.

الأسياد ما كانوا يعرفون أن الطبل، في ليالي القمر المكتمل، يقرع نفسه بنفسه، بلا أي يد. وعندئذ، عندما يقرع الطبلُ الطبلَ، ينهض الموتى ليسمعوا المعجزة.

البيانو

عندما كان يسكن بلدة تَريخا أربعة عشر ألفاً وتسعمئة وخمسون مأموراً، يقابلهم خمسون آمراً، كانت الآمرة الوحيدة التي لا تملك بيانو هي السيدة بياتريث ارثي دي بالديفيثو.

أحس عمٌ لها بالقلق، وأرسل لها، من باريس، بيانو ضخماً من نوع

ستينوي، كي تستعيد لونها وأنفاسها، وتتخلى عن العيش محمرة من الحسد ومختنقة بالزفرات.

البيانو المحشور في صندوق هائل، سافر في سفينة، وقطار، وبعد ذلك على الأكتاف. حُمل بالأيدي إلى أعماق بوليفيا. أربعون عاملاً شقوا الطريق عبر دروب سلسلة الجبال، مبتدعين جسوراً وأدراجاً ودروباً، وهم ينقلون تلك الحمولة. خمسة شهور استغرقت رحلة الصعود والنزول عبر الوهاد والجبال والوعرة، إلى أن وصلت الهدية أخيراً، دون أن تخدش، إلى بيت السيدة بياتريث.

لم يكن بيانو عادياً. فذلك الستينوي الذي دشنته يدا فرانز لست، كان يتألق بالجوائز التي منحته إياها عدة ممالك في أوروبا.

انقضت السنون وتبدل الناس. ومع مرور الزمن، توسعت تَريخا وتبدلت.

وفي أحد الأيام، خرجت وارثة البيانو، دونيا ماريا نيدي بالديفيثو، من العيادة الطبية، وقد أثبت التشخيص أنها مصابة بالسرطان.

لم يكن قد بقي من ثروة العائلة سوى البيانو والحنين، فعرضت دونيا ماريا البيانو للبيع، كي تدفع تكاليف السفر والعلاج في هيوستون.

تلقت أول عرض من اليابان، ورفضته. وجاء الاقتراح الثاني من الولايات المتحدة، ولم تقبل به. واتصل المشتري الثالث من ألمانيا، فلم تولِ الأمر اهتماماً. وجرى الشيء نفسه مع المهتمين بالموضوع الذين جاؤوا من بوينس آيرس، ولاباث، وسانتا كروث. كانت البائعة تقول لا للثمن المنخفض وللثمن المرتفع، وتقول لا للثمن المتوسط أيضاً.

ومن فراش مرضها، دعت السيدة ماريا هواة الموسيقى، والمسرح والتخيل وغيرهم من هواة الفنون في تَريخا، وعرضت عليهم:

ـ أعطوني ما لديكم وخذوا البيانو.

ماتت دونيا ماريا دون أن تسافر ودون أن تُعالج.

لم يكن البيانو راغباً في مغادرة تَريخا. فهناك وجد الألفة، وهناك سيواصل تقديم خدماته التي لا تقدر في السهرات الثقافية، والمناسبات الوطنية، وفي كل الاحتفالات التمدنية في البلدة.

الأرغن

وصل هيرموخينس كايو إلى بوينس آيرس، سائراً آلاف وآلاف الفراسخ، من مرتفعات خوخوي البعيدة. سافر عام 1946، مع آخرين من السكان الأصليين الذين يناضلون من أجل حقهم في الأرض؛ وعندئذ، كمن هو غير راغب في الأمر، قام بجولة في أنحاء لوخان، حيث قيل له إن فيها كاتدرائية تصعق المرء بروعتها.

عندما رجع إلى دياره، بنى كاتدرائية لوخان، في نسخة مصغرة، أمام باب بيته الحجري. بنى الأقواس القوطية بالطين، وصنع الواجهات الزجاجية من فتات قوارير مكسرة، ومن كل الألوان التي عثر عليها. كانت النسخة مطابقة للأصل، ولكنها أجمل قليلاً. وقد صورها خورخي بريلوران في فيلم، ليُبقي دليلاً عليها.

بعد سنوات من ذلك، سمع هيرموخينس أرغناً في إحدى الكنائس.

لم يكن قد سمع أرغناً في حياته من قبل، واكتشف أنه لن يستطيع العيش دون هذا الشيء.

ولكن الناس قليلون هناك في الجبال، والمسافة بعيدة، والكنيسة على مسيرة عدة أيام. ولهذا لم يجد هيرموخينس بداً من إقناع الكاهن بأن صوت الأرغن ليس على ما يرام. قرر أن يكون خبيراً، وعرض خدماته لضبط الجهاز وإصلاحه. فككه، رسم بدقة كل قطعة من أجزائه، وحين رجع إلى البيت، صنع أرغنه الخاص، مفصلاً بكامله من خشب الكاردون.

وكان أرغنه يقدم له الموسيقى في آخر كل يوم.

الكهربائي

كان يمضي على دراجة، والسلّم على كتفه، عبر دروب سهوب البامبا.

فقد كان باوتيستا ريولفو كهربائياً ومسبع كارات، ينفع في كل شيء، يُصلح الجرارات، والساعات، والطواحين، وأجهزة المذياع،

وبنادق الصيد. الحدبة التي نمت في ظهره، تشكلت من كثرة انحنائه لتقليب مقابس الكهرباء، والمسننات، وغيرها من الغرائب.

ورينيه فابالورو، الطبيب الوحيد في المنطقة، كان ينفع في كل شيء أيضاً. فبالأدوات القليلة التي لديه، والأدوية التي يجدها، يمارس عمل طبيب القلبية، والجراح، وطبيب التوليد، والطبيب النفساني، والمتخصص في كل ما هو بحاجة إلى ترميم.

وفي يوم طيب، سافر رينيه إلى باهيا بلانكا، ولدى عودته أحضر معه آلة لم يُرَ مثلها من قبل في تلك العزلات التي يسكنها الغبار والريح.

وقد كان لذلك الغراموفون نزواته. فبعد شهرين، رفض مواصلة العمل.

عندئذ جاء باوتيستا، على دراجته. جلس على الأرض، هرش لحيته، تفحص الآلة، لحم بعض الكابلات، وشد بعض البراغي والعزقات. وقال:

- *فلنر الآن*.

ومن أجل اختبار الجهاز. اختار رينيه اسطوانة، السيمفونية التاسعة لبتهوفن، ووضع الإبرة في حركتها المثلى.

داهمت الموسيقى البيت، وانطلقت محلقة، عبر النافذة المفتوحة، باتجاه الليل، باتجاه الأرض التي ليس فيها أحد؛ وظلت حية في الهواء بعد أن توقفت الاسطوانة عن الدوران.

علق رينيه بشيء، أو سأل عن شيء، لكن باوتيستا لم يجب بشيء.

كان باوتيستا يعصر وجهه بين يديه.

مر وقت طويل، قبل أن يتمكن الكهربائي من القول:

- *المعذرة يا سيد رينيه، ولكنني لم أسمع هذه من قبل. فأنا لم أكن أعرف أن هذه... هذه الكهرباء موجودة في العالم.*

المغني

عندما توفي ألفريدو ثياروسا في مونتيفيديو، صعد صديقه خوثيكا معه حتى أبواب الفردوس، كيلا يتركه وحيداً في تلك الإجراءات. وعندما رجع خوثيكا، روى لنا ما سمعه.

القديس بطرس سأله عن الاسم، والسن، والمهنة.

فقال ألفريدو:

ـ *مغن.*

أراد بواب الفردوس أن يعرف: أي نوع من الغناء.

ـ *أغنيات الميلونغا* ـ قال ألفريدو.

لم يكن القديس بطرس يعرف هذا النوع من الغناء. لسعه الفضول، وقال آمراً:

ـ *غنّ.*

غنى ألفريدو أغنية ميلونغا، اثنتين، مئة. ولم يشأ القديس بطرس أن ينتهي ذلك أبداً. وصوت ألفريدو الذي هز الأرض، أخذ يهز السماء أيضاً.

والرب الذي كان يمضي في تلك الأنحاء، يرعى الغيوم، شنف أذنه. وقد روى لنا خوثيكا بأنها كانت المرة الأولى التي لم يعرف الرب فيها من هو الرب.

المغنية

كانت ليليان بيلاغرا قد أمضت بعض الوقت وهي تحاول النوم، تريد ذلك ولا تستطيع، وبعد كثير من التقلب في الفراش، وكثير من الصراع مع الوسادة، سمعت دقات الساعة الثلاث، واحتاجت لهواء: نهضت، وفتحت النافذة على مصراعيها.

كان ثلج كل الشتاءات قد هطل على باريس. حي بيغال كان صاخباً على الدوام، تتردد فيه أصداء العربدة والمشاجرات، يعج بذهاب العاهرات والمتنكرين بزي النساء ومجيئهم؛ غير أن بيغال تحول في تلك

الليلة إلى صحراء بيضاء، موسومة بآثار الخطى الذاهبة.

عندئذ تعالت أغنية إلى النافذة، من الثلج: صوت عصفور يدندن لحناً قديماً كئيباً. لقد كانت امرأة تغني، بينما هي تنتظر الزبائن، مستندة إلى الجدار. كانت بعض ندف الثلج لا تزال تواصل الهطول على شارع هودون، وتسقط على معطف الفرو المشترى من سوق البرغوث، والذي كانت المرأة تفتحه عارضة جسدها في الشارع المقفر.

أطلت ليليان من النافذة، وعرضت عليها فنجاناً من القهوة:

- *ألا تودين الدخول؟*

- *شكراً، لكنني لا أستطيع. إنني أشتغل.*

- *أغنية جميلة* - قالت ليليان.

- *إنني أغني كيلا أنام* - قالت المرأة.

الأغنية

كانت براغا بكماء.

من الناصية التي يطل بها شارع ثيليتنا على الساحة الكبرى، في المدينة القديمة، كسر صوتٌ، فجأة، صمت الليل.

من مقعد شللها، المسمر على الرصيف، غنت امرأة.

أنا لم أسمع قط صوتاً بذلك الجمال وتلك الغرابة، إنه صوت من عالم آخر، فقرصتُ ذراعي. أأنا نائم؟ في أي عالم أنا؟

ردّ عليّ بعض الفتية الذين ظهروا ورائي؛ سخروا من المشلولة المغنية، قلدوها وهم يضحكون مقهقهين، فصمتت هي.

أغنية أخرى

رين ويشلر هو من دوّن شهادته. في العام 1975، كان بريتن بريتنباخ السجين الأبيض الوحيد بين زنوج كثيرين محكومين بالإعدام في سجن بريتوريا.

في نهاية كل ليلة، يذهب أحد المحكومين إلى المشنقة. وقبل أن تنشق الأرض تحت قدميه، كان المحكوم المختار يغني. في كل فجر، توقظ بريتين أغنية مختلفة. كان يسمع، وهو معزول في الزنزانة، صوت من سيموت.

لقد نجا بريتين من الموت. وما زال يسمع الأغنية.

حوريات

كان دون خوليان يعيش وحيداً، في أشد جزر أرخبيل شوتشيميلكو توحداً، في كوخ من أغصان الشجر، تحرسه الدمى والكلاب.

الدمى مكسرة، ملتقطة من المزابل، ومعلقة على الأشجار، وهي تحميه من الأرواح الشريرة. وأربعة كلاب ضامرة، تحميه من الناس الأشرار. ولكن لم يكن بمقدور الدمى ولا الكلاب أن تُبعد الحوريات.

فمن أعماق البحر كانت الحوريات تناديه.

وكان لدى دون خوليان تعويذاته الخاصة. ففي كل مرة تأتي الحوريات لأخذه وتغني ترتيلاتها التي تردد اسمه، يُبعدها عنه بأغنيات مضادة:

أقول أنا، وأنا أقول،
ليأخذني الشيطان، أو ليأخذني الرب،
أما أنت فلا، أما أنت فلا.

ويغني أيضاً:

انصرفي من هنا، انصرفي من هنا،
وقدمي، لفم آخر، قبلتك المسمومة،
ولكن ليس لي أنا، ليس لي أنا.

وفي عصر أحد الأيام، بعد أن هيأ الأرض لزرع القرع، جلس دون خوليان على الشاطئ ليصطاد. وقد اصطاد سمكة ضخمة يعرفها، لأنها أفلتت منه مرتين من قبل. وبينما هو ينزع الشص منها، سمع أصواتاً يعرفها أيضاً.

وكانت الأصوات ترتل كالعادة: *خوليان، خوليان، خوليان*. وكما هي عادته، انحنى دون خوليان أمام الماء، حيث كانت تتماوج انعكاسات جعلتها الدخيلات مائلة إلى الحمرة، وفتح فمه ليترنم بأغنيته المضادة مؤكدة المفعول.

ولكنه لم يستطع... في هذه المرة لم يستطع.

أما جسده المستسلم للموسيقى، فعُثر عليه طافياً على غير هدى بين مجموعة الجزر.

أغنيات شعبية

في الزمن الذي كانت فيه آلة التسجيل تحتاج إلى صهوة حصان كاملة لنقلها، كانت لاورا أييستاران تمضي عبر الأرياف، لتجمع الذاكرة الموسيقية.

وبحثاً عن الأغنيات الشعبية المنسية، وصلت لاورا في أحد الأيام إلى كوخ منسي في مناطق تاكواريمبو النائية. وهناك كان يعيش كريولي، كان في ما مضى شاباً محباً للرقص وعزف الجيتار، وماهراً في مبارزات المقطعات الشعبية.

كان الرجل يهرم. ولم يعد يتنقل من قرية إلى قرية، ومن حفلة إلى حفلة. إنه يمشي قليلاً ويقع كثيراً؛ ولكي ينهض، يستند إلى ظهر أحد كلابه. وكان قد فقد البصر. ولم يعد يغني كذلك، بل يزفر بعض الكلمات، ولكنه مشهور بذاكرته الحافظة. فكان يهمس وهو يطرق رأسه بإصبعه:

ـ *ما هو موجود، لم ينقص منه شيء.*

وبينما الجيتار بين يديه، يداعبه وحسب، أشعر العجوز، ترنم، تلعثم. ومع الغروب، رنت مبحوحة الكلمات التي تحتفي بذكرى الأبقار السارحة والرجال الأحرار.

وكانت أشرطة آلة التسجيل تدور وتدور. والمغني الأعمى يسمع أزيز الآلة دون تعليق، إلى أن سأل أخيراً عن تلك الضجة الخافتة.

ـ *إنها آلة لحفظ الأصوات* ـ أوضحت له أييستاران. ولمست آلة

التسجيل، فعادت تصدح بالأشعار التي غناها للتو.

استمع العجوز إلى صوته لأول مرة في حياته.

ولم تعجبه، ولو قليلاً، تلك المحاكاة للصوت.

المعبودة

في بعض الليالي، تشتد المنافسة في المقاهي. فيقول أحدهم، دون أن يرفع صوته، مخففاً من أهمية مأساته:

ـ أنا، في أزمنة الطفولة، بال عليّ أسد.

ـ وأنا، أكثر ما كان يروقني هو المشي على الحيطان ـ يعترف آخر، ويشكو لأنهم في بيته منعوه من هذه التسلية.

ـ أما أنا، فقد كتبتُ، في صباي، قصائد حب. وفقدتها في قطار. ومن الذي عثر عليها؟... نيرودا.

ولم يكن دون أرنالدو، صانع الأسنان الاصطناعية، يسمح لهم بإخافته. يستند بمرفقيه إلى منضدة الكونتوار، ويذكر اسماً:

ـ ليبرتاد لاماركي.

وينتظر الصدمة، وبعدها يقول:

ـ أيعني لكم الاسم شيئاً؟

وعندئذ يستحضر لقاءه مع عروس أميركا.

لم يكن دون أرنالدو يكذب. ففي فجر أحد الأيام، هناك في سنوات الثلاثينات، تعرضت المغنية والممثلة ليبرتاد لاماركي لعقوبة قاسية في أحد فنادق سنتياغو دي تشيلي. فقد كان زوجها يوجه إليها صفعات، لأن الوقاية خير من العلاج، وفي أوج الصفع صرخت ليبرتاد:

ـ يكفي! أنت أردت ذلك!

وألقت بنفسها من نافذة الطابق الرابع. طفرت على مظلة من قماش الخيم، وسقطت فوق صانع الأسنان الذي كان عائداً من زيارة أمه، ومرّ في تلك اللحظة بالضبط من الشارع. لم تُصب ليبرتاد بأي أذى، ولم يُصب كذلك بأي أذى قميص نومها المصنوع من حرير دمشقي مزين

بتنانين صينية؛ أما دون أرنالدو الذي تلقى الثقل، فنُقل في سيارة إسعاف إلى المستشفى.

عندما شفيت عظامه، ونزعوا عنه أضمدة المومياء، بدأ دون أرنالدو برواية القصة التي واصل روايتها فيما بعد، حتى آخر أيامه، في المقاهي وفي أي مكان توجد فيه أذن تسمع: من السماء، من السحابة العالية حيث تقطن ربات الأثير وربات الكواليس، أسقطت تلك النجمة نفسها على الأرض، ومن بين ملايين الرجال اختارته هو، أجل هو، وسقطت بين ذراعيه، كيلا تموت وحيدة.

السينما

ذهبت جيرالدين للعمل في فيلم، في قرية نائية في جبال تركيا.

في مساء اليوم الأول، خرجت لتتمشى. لم يكن هناك أحد... تقريباً لم يكن هناك أحد في الشوارع. قلة من الرجال، ولا وجود لأي امرأة. ولكنها التقت عند الناصية الأولى، فجأة، بجمع من الفتيان.

تطلعت جيرالدين إلى الجانبين، تطلعت إلى الوراء.. كانت محاصرة، ليس لها من مهرب. حنجرتها لم تستطع الصراخ. ودون أي كلام، عرضت عليهم ما تملكه: الساعة... النقود.

ضحك الفتيان. لا، ليس هذا ما نريده. وسألوها بما يشبه الإنكليزية إلى هذا الحد أو ذاك، عما إذا كانت ابنة شابلن.

هزت جيرالدين، المذهولة، رأسها بالإيجاب. وعندئذ فقط انتبهت إلى أن الفتيان قد رسموا على وجوههم شوارب صغيرة. وأن كل واحد منهم كان يحمل غصناً على شكل عكاز.

وبدأت الحفلة.

وجميعهم كانوا هو.

الجمهور

كان الزحام شديداً عند مدخل سينما يارا في هافانا، وشرطي يحاول تنظيم الدور. كانت نواياه طيبة، وربما بطولية، ولكنها لا تبدو شديدة الواقعية. فكلما توصل إلى جعل الناس يقفون في الدور، كان الصف ينفجر في فوضى جديدة.

وحيدة كانت السلطة، وعاجزة حيال شغف السينما وشغف الفوضى، عندما فرض الصوت الآمر أن يُسمع:

- *إلى الوراء* - قال الشرطي آمراً - *أيها السيدات والسادة، الصف سيتشكل وراء الجدار! مما وراء الجدار، وإلى هناك!*

- *أي جدار؟* - تساءل الحشد بدهشة.

فأوضح سيف النظام:

- *إذا لم يكن الجدار موجوداً... فتخيلوه!*

التلفزيون

في أواخر العام 1999، افتتح رئيس الأرغواي مدرسة في منطقة بينار دل نورتي.

ولأن الحي هو حي فقراء وعمال، فقد أراد المسؤول الأول أن يرفع بحضوره من أهمية الحدث التمدني.

وصل الرئيس من السماء، فقد جاء في طائرة هيلوكبتر، ترافقه كاميرات التلفزيون.

وفي خطابه أعرب عن اعتزازه بأطفال البلاد الذين يشكلون أثمن رأسمال لدينا، وأشاد بأهمية التعليم، لأنه أعلى الاستثمارات مردوداً في هذا العالم شديد المنافسة. وبعد ذلك، عُزف النشيد الوطني، وأُطلقت في الهواء بالونات ملونة.

عندئذ، في ذروة الاحتفال، أهدى الرئيس دمية لكل واحد من التلاميذ.

نقل التلفزيون كل شيء في بث مباشر.

وعندما أنهت الكاميرات عملها، عاد الرئيس إلى السماء، وبادرت سلطات المدرسة إلى استعادة الألعاب الموزعة. لم يكن سهلاً انتزاعها من أيدي الأطفال.

المسرح

أرستوفانيس تجول متحدثاً في قرى هنود تشيباس، وأنطون تشيخوف سافر، مع شخصياته، إلى صحراء سان لويس بوتوسي.

هما لم يذهبا قط إلى هذه الأماكن.

كان ممثلو فرقة «إلغالبون» (العنبر) هم من حملوهما ليجوبا الأراضي المكسيكية من أقصاها إلى أقصاها.

فرقة مسرح إلغالبون كلها كانت منفية في المكسيك. كانت سنوات القذارة والخوف اللذين أشاعتهما الدكتاتورية العسكرية في الأورغواي، ولم يبق من الفرقة في مونتيفيديو سوى القاعة.

القاعة التي بنيت بقوة الأيدي، دون أي قطعة نقد من المساعدة الرسمية. ولكن إلغالبون لم تكن موجودة، ولا الجمهور كذلك. كانت الدكتاتورية تقدم استعراضات قبالة مقاعد الصالة الخاوية. ظلٌّ بلا جسد، جسدٌ بلا روح: لا أحد يذهب إليها.

المقعد

غونثالو مونيوث، الذي أحتفظ بصورته العتيقة الباهتة في ألبوم الأسرة، ولد ليعيش في الليل وينام في النهار.

كان يقضي الليالي دون نوم، يسهر على حراسة أشباح، ولكن هناك أشياء كثيرة، على الدوام، لا بد من عملها في النهار، ولهذا لم يكن يجد مفراً من النوم المتقطع. يسقط نائماً في أي لحظة، وحين يستيقظ، يخطئ في التوقيت، بل ويخطئ في الأنواع أحياناً. ففي بعض المناسبات، كان دون غونثالو، الذي له عادات البوم، يقاقي كالديك، ومن سطح بيته، يحيي في المساء بتحية الصباح. أخطاؤه هذه لم تكن تروق للجيران.

في إحدى الليالي، ذهب إلى العرض الأول لعمل درامي في مسرح سوليس في مونتيفيديو. كان عرضاً احتفالياً، لفرقة مسرحية أوروبية. في الفصل الثاني، نام. وقد نام بالضبط في الوقت الذي كان فيه الشخصية الرئيسية، وهو زوج سيئ الطبع، يقبع مترصداً، وبيده مسدس، وراء حاجز باراباني. بعد قليل من ذلك، عندما دخلت الزوجة الخائنة إلى المشهد، قفز الزوج من مخبئه، وأطلق النار. الطلقات أوقعت الخاطئة أرضاً، وأيقظت دون غونثالو الذي صعد على المقعد وصرخ، فاتحاً ذراعيه:

- الهدوء أيها السادة، الهدوء! لا ترتعبوا، لا تركضوا! لا يتحرك احد من مكانه!

زوجته الجالسة إلى جواره، غاصت إلى الأبد في أعماق مقعدها.

الممثل

بنى هوراسيو توبيو بيتاً في وادي بلسون.

لم يكن في البيت نور كهربائي. وكان هو قد جاء من كاليفورنيا، محملاً بأجهزته الحديثة؛ ولكن الكمبيوتر، والفاكس، والتلفاز، والغسالة، رفضت جميعها العمل بضوء الشموع.

هرع هوراسيو إلى المكتب المختص. فاستقبله مهندس. وتفحص المهندس بعض الخرائط التي تشبه الألغاز، وأجاب بأن خدمة الكهرباء متوفرة في تلك المنطقة.

- *اجل، إنها متوفرة* – ردّ هوراسيو – *متوفرة في الغابة. والأشجار سعيدة بذلك.*

ثار غضب المهندس، وأصدر حكمه:

- *اتعرف ما هي مشكلتك؟* إنها العجرفة. وبهذه العجرفة لن تحصل على شيء أبداً في الحياة.

وأشار له إلى المخرج.

غادر هوراسيو، أغلق الباب.

ولكن المهندس سمع على الفور، تك، تك.

- *ادخل* – قال المهندس آمراً.

تك، تك، تواصلت الطرقات.

نهض المهندس وفتح الباب: وكان هوراسيو هناك، جاثياً على ركبتيه، يحني رأسه بتذلل:

- *حضرتك يا سيدي المهندس، حالفك الحظ واستطعت أن تدرس...*

- *انهض، انهض.*

- *حضرتك لديك شهادة جامعية أيها المهندس...*

- *انهض، أرجوك.*

- *تفهم وضعي يا سيدي المهندس، أنا أريد تعلم القراءة، ولكن ليس لدي ضوء...*

ولم يوقف هوراسيو توسله إلى أن وصل نور الكهرباء إلى بيته.

الممثلة

قبل ما يزيد على نصف قرن، حمل المسرح الوطني مسرحية *عرس الدم* إلى أرياف منطقة سالتو.

كانت مسرحية فيدريكو غارسيا لوركا هذه آتية من أرياف أخرى، من أرياف أندلسيا النائية. إنها تراجيديا أسرتين متعاديتين: حفل زفاف محبط، عروس مخطوفة، ورجلان يطعن كل منهما الآخر من أجل امرأة. أم أحد القتيلين تطلب من جارتها:

- *ألا تريدين أن تصمتي؟ لا أريد بكاء في هذا البيت. دموعك ليست إلا دموع عينين، ليس أكثر.*

كانت مارغريتا شيرغو، على منصة المسرح، هي تلك الأم المتكبرة والمتألمة.

عندما انطفأ التصفيق، دنا عامل زراعي من مرغريتا، وقال لها، حاملاً القبعة في يده، ومطأطئاً رأسه:

- *إنني أشاركك آلامك. فأنا أيضاً فقدت ابناً.*

هذا التصفيق

منذ سقط غارسيا لوركا، مخترَقاً بالرصاص، مع بدء الحرب الإسبانية، لم تُعرض ***الإسكافية العجيبة*** على مسارح بلاده. وكانت قد مضت سنوات طويلة، عندما حمل مسرحيو الأورغواي هذا العمل إلى مدريد.

لقد قدموه بالروح والحياة.

وأخيراً، لم يتلقوا تصفيقاً. فقد راحِ الجمهور يضرب الأرض بأقدامه، بكل غضب؛ ولم يفهم الممثلون شيئاً.

روت ذلك الممثلة تشينا ثوريّا:

- ***لقد أصابنا الذهول. إنها كارثة. أمر يدعو للانفجار بالبكاء.***

ولكن، بعد ذلك، دوى التصفيق. طويلاً، وشاكراً. وظل الممثلون غير مدركين ما يجري.

ربما كان ذلك التصفيق الأول بالأقدام، ذلك الرعد على الأرض، موجهاً إلى المؤلف. إلى المؤلف الذي أعدم رمياً بالرصاص، لأنه أحمر، لأنه مخنث، لأنه غريب الأطوار. ربما كانت طريقة للقول له: ***لكي تعرف يا فيديريكو، كم أنت حي.***

كوميديا القرون الخمسة

هلموا إلى العرض اليوم.

احتفلت البرتغال احتفالاً ضخماً بمرور خمسمئة سنة على نزول بارتولومي دياس على سواحل جنوبي أفريقيا. تحولت البلاد إلى مسرح كبير للحنين الإمبراطوري، وقدمت مسرحية الملاح الجسور الذي وصل إلى رأس الرجاء الصالح سنة 1487، في عصر مجيد، أهدى فيه الرب إلى البرتغال نصف العالم.

ممثلون يرتدون، على طريقة ذلك العصر، ملابس حرير ومخمل، ويحملون سيوفاً فاخرة، وقبعات كثيرة الريش، ملؤوا نسخة مطابقة بدقة لسفينة بارتولومي دياس، انطلقت في البحر وحطت رحالها في أفريقيا.

وعلى الساحل الجنوب أفريقي، كان مقرراً، أن يكون هناك

حشد من الزنوج، يقفزون فرحاً وامتناناً أمام البحارة الذين جاؤوا، قبل خمسة قرون، ليقدموا لهم الجميل باكتشافهم. لكن هذا الشاطئ، في 1987، كان حكراً على البيض وحدهم. وكان دخول الزنوج إليه محظوراً، بسبب أمور ***الأبارتيد*** تلك.

حشدٌ مرحب من البيض، المطليين بالأسود، استقبل البرتغاليين.

كوميديا القرن

في عام 1889، احتفلت باريس بمرور مئة سنة على الثورة الفرنسية، بإقامة معرض دولي كبير.

أرسلت الأرجنتين إلى المعرض تشكيلة متنوعة من منتجات البلاد. وأرسلت ضمن ما أرسلته، أسرة من هنود منطقة تييرا دل فويغو. كانوا أحد عشر هندياً من هنود الأونا، نماذج نادرة، من جنس آخذ بالانقراض؛ فآخر هنود الأونا كانوا يبادون، في تلك السنوات، برصاص بنادق الونشستر.

من الأحد عشر هندياً الذين أرسلوا، مات اثنان خلال الرحلة. ومن تبقوا على قيد الحياة عرضوا في قفص حديدي.

«***أكلة لحوم بشر أمريكيون جنوبيون***»، هذا ما كانت تنبه إليه اللوحة الإعلانية على القفص. لم يقدموا إليهم أي طعام خلال الأيام الأولى. فكان الهنود يزمجرون من الجوع. عندئذ، بدؤوا يرمون إليهم بعض قطع اللحم النيئ. كان لحماً بقرياً، ولكن أحداً لم يشأ حرمان نفسه من رؤية ذلك المشهد الرهيب. فالجمهور الذي دفع قيمة تذكرة الدخول، كان يتزاحم حول القفص، حيث كان أكلة اللحم البشري المتوحشون يتنازعون الطعام بمخالبهم.

هكذا جرى الاحتفال بمرور المئة سنة الأولى على **إعلان حقوق الإنسان**.

كوميديا نصف القرن

انقضت خمسون سنة على الانفجارين الذريين اللذين أبادا هيروشيما وناغازاكي.

أعلنت مؤسسة سميثسونيان، في واشنطن، عن معرض كبير.

العرض سيتضمن الكثير من المعلومات الوثائقية، والكثير من آراء العلماء، والمؤرخين المتخصصين، والخبراء العسكريين. كما سيقدم شهادات لأبطال الحدث، ابتداء من الكولونيل الذي قاد عملية القصف، والذي لم تؤرق نومه تلك المسألة قط، وحتى بعض اليابانيين الناجين، الذين فقدوا القدرة على النوم وكل شيء.

كان يمكن لزائري المعرض أن يتعرضوا لخطر معرفة أن الحشود التي جرى قتلها من السماء، كانت مؤلفة، في غالبيتها، من النساء والأطفال. والأسوأ من ذلك، كان يمكن للوثائق الموسعة التي جُمعت، أن تطلعهم على أن القنبلتين لم تلقيا لكسب الحرب، لأن الحرب كانت قد كُسبت، وإنما لإخافة الاتحاد السوفييتي، وهو العدو التالي.

وللحيلولة دون هذه المجازفات الخطرة، جرى الإعلان عن المعرض، ولكنه لم يُقم قط. اختُزل كل شيء إلى عرض «إنولا غاي»، الطائرة التي أسقطت القنبلتين، كي يتمكن الوطنيون المتحمسون من تقبيل أنفها.

الخياط

أقسم إنه سيطير. أقسم بكل العرى التي فتحها، والأزرار التي ثبتها، وبما لا يحصى من البدلات والفساتين والمعاطف التي أخذ مقاسها، وفصّلها، وسرّجها، وخيّطها غرزة فغرزة، على امتداد أيام حياته.

ومنذ ذلك الحين، كرس الخياط رايشيه كل وقته لتفصيل جناحي خفاش هائلين. وكان الجناحان قابلين للطي، كي يكون بالإمكان إدخالهما إلى القبو الذي هو مشغله وبيته.

وأخيراً، بعد عمل طويل، صار ذلك الهيكل من الأنابيب والأسياخ

المعدنية جاهزاً، ومغطى بكامله بالقماش.

أمضى الخياط ليلته دون أن ينام، متضرعاً إلى الله أن يقدم له يوماً شديد الرياح. وفي الصباح التالي، وكان صباحَ رياحٍ قوية من عام 1912، صعد إلى أعلى برج إيفل، وفَرَدَ جناحيه، وطار إلى موته.

الطائرة

ترفرف الرايات عالياً.

السلطات تُبعد الأبقار التي تتوغل لترعى على المدرج.

لم يتغيب أحد. قرية لوريكا بكاملها تنتظر منذ ساعات. دانتيلا، أربطة عنق، منشاة كلها كما في حفلة زفاف أو تعميد، والعيون مثبتة على السماء، والجميع يحترقون تحت الشمس دون أي تذمر.

من بعيد رأوها قادمة. وابتلعوا لعابهم. وعندما اقتربت المنتظرةُ من الأرض، أثار دوي الحرب وهبة الريح صدمة عامة بين الحضور.

لم تكن قد شوهدت طائرة من قبل قط، في قرية لوريكا.

الحشود، فاغرة الأفواه، كانت تنظر من بعيد. وفي البعيد ظهر بريق محاط بغمامة غبار حمراء. كانت المراوح قد توقفت عن الدوران. شق شخص شجاع الصفوف، وركض باتجاه ما لم يُرَ قط، وحين رجع قال إن لها رائحة صابون.

عندما دوت الموسيقى، عزفت جوقتان، في الوقت نفسه، النشيد الوطني ومقاطع مختلطة من ألحان شعبية، وتزاحمت الحشود. أُنزل الركاب على حمالات، وأُغرق الطيار في بحر من الزهور. واحتفالاً بالآتي من السماء، جالت كؤوس شراب قوي، وبدأت حفلة سكر متصاعدة في شوارع القرية.

كان مقرراً للطائرة أن تتوقف في استراحة قصيرة، مجرد توقف فقط، لتواصل بعد ذلك السفر إلى أماكن أخرى، ولكنها لم تستطع الإقلاع.

ـ *كانت تلك هي أول عملية اختطاف جوي في تاريخ كولومبيا* ـ يقول دافيد سانتشيث خوليان، وكان هو نفسه أصغر الخاطفين سناً.

طيران بلا خريطة

كانت هي الطائرة. وكانت تطير وهي مستلقية في الليل.

وفجأة، انتبهت إلى أنها فقدت الاتجاه، حتى إنها لم تعد تتذكر إلى أين يجب أن تذهب.

والركاب، الركاب الذين يضمهم جسدها، لم يقلقهم ضياعها. فجميعهم كانوا مشغولين بالشرب، والأكل، والتدخين، وتبادل الأحاديث، والرقص، لأن هناك في طائرةِ جسدها متسعاً فسيحاً، وكانت تدوي موسيقى جيدة، ولا شيء ممنوعاً.

ولم تكن هي نفسها قلقة أيضاً. فقد نسيت وجهتها، ولكن جناحيها، ذراعيها المفتوحتين، كانا يلامسان القمر، ويدوران بين النجوم، متجولين في السماء، وكان ممتعاً ذلك الاجتياز لليل إلى لا مكان.

استيقظت هيلينا لتجد نفسها في السرير، في المطار.

تعليمات للطيران

الطبيب أوريول فال أقام لوقت طويل هناك، في قرية أخويّا، الضائعة في سلسلة الجبال، مشاطراً الناس الأعمال والأيام، وقد حان موعد مغادرته.

ودّع الجميع، من بيت لبيت. وفي مستوصف القرية الصغير، توقف ليشرح الأمر لماريا دل كارمن التي ساعدته كثيراً.

ـ سأطير إلى إسبانيا يا دونيا ماريا.

ـ وهل هي بعيدة إسبانيا؟

لم تكن هي قد مضت إلى أبعد من نهر غافيلانيس. فخربش لها أوريول خريطة، لتكوِّن فكرة. لا بد له من اجتياز البحر، البحر كله.

ـ لا بد أنها ستكون سفينة كبيرة جداً، لعبور كل ذلك الماء.

حاول هو أن يوضح لها، بالكلمات وبيديه. فقاطعته ماريا دل

كارمن التي لم تر من قبل طائرة، ولو من بعيد:

- أجل، أجل، لقد فهمت. ما تريد أن تقوله لي هو إنك ستسافر نائماً في الريح.

القطار

- *إنه قوي جداً* - قال الأب - *له قوة مئتي جاموس جر.*

ورأى الابن، سيمون دي لابافا، دفقة كبيرة من الدخان ترتفع في الأفق.

وبعد قليل، ظهرت البهيمة الجبارة. وكانت تكبر وهي آتية من بعيد. تزمجر. تزعق.

عندما رأى الطفل قدومها، أراد الهرب، خائفاً. ولكن الأب لم يفلت يده.

صرير معدني، أنَّة طويلة، وتوقف القطار.

سافر سيمون وأبوه من وادي إيباغوي حتى هضبة بوغوتا، من الحر إلى البرودة، ومن البرودة إلى البرد.

بدت رحلة بلا نهاية.

والقطار الذي يلهث، ميتاً من العطش، كان يشرب أنهاراً من الماء في كل محطة. وبعد ذلك، وهو متخم بالماء، كان يتعرق أبخرة من كرشه، ويواصل قرقعته في طريقه الصاعد.

وصل المسافرون إلى هدفهم مستنفدين، يغطيهم الهباب والغبار.

وبينما الأب يتسلم الحقائب، اقترب سيمون من القاطرة.

كانت تلهث. وربت هو بامتنان على ردفها الساخن.

المسافرون

عبر الحقول والأزمنة، كان القطار يسافر من إشبيلية إلى مورون دي لافرونتيرا. ومن خلال النافذة، كان الشاعر خوليو بيليث يتأمل، بعينين متعبتين، الآجام والبيوت التي تمر هاربة مرور البرق، بينما

ذاكرته تتسكع في الجغرافية والسنوات.

وقبالة خوليو، كان يجلس سائح. وقد أراد السائح أن يمارس التحدث بإسبانيته الشاقة، لكن خوليو كان يمضي حيث لا يعلم أحد، باحثاً عن يقين غادره، عن كلمة أو امرأة أضاعها.

- *هل حضرتك أندلسي؟* - سأله السائح.

هز خوليو، وهو ساهٍ، رأسه بالإيجاب.

فألح السائح باستغراب:

- *ولكن، إذا كنت أندلسياً، فلماذا أنت حزين؟*

من هناك؟

اصطدم قطاران إنكليزيان، عند مخرج محطة بادينغتون.

شق رجل مطافئ طريقه، بضربات بلطة، ودخل في العربة المقلوبة. ومن خلال الدخان الذي يضيف ضباباً إلى الضباب، تمكن من رؤية الركاب الذين سقط بعضهم فوق بعض، دمى مقطعة الأوصال بين أخشاب متشظية وحدائد ملتوية. جاب المصباح اليدوي تلك الجثث للبحث، دون جدوى، عن أحد لا يزال حياً.

لم تكن تُسمع أية آنّة. ولا يكسر الصمت إلا رنين الهواتف المحمولة، التي ترن وترن وترن بين الموتى.

حوادث المرور

إلى وقت متقدم جداً من القرن العشرين، كانت الجمال تتولى نقل الناس والأشياء في جزيرة لانثاروتي (إحدى جزر الكناري).

المحطة، *مرقد الجمال*، كانت في وسط مرفأ إريسيفي. وكان لياندرو بيردومو يمر من هناك دوماً، في طفولته، وهو في طريقه إلى المدرسة. كان يرى جمالاً كثيرة، باركة على الأرض أو واقفة. في أحد الأيام أحصى أربعين جملاً، ولكنه لم يكن شاطراً في الحساب.

في تلك السنوات، كانت الجزيرة تطفو خارج الزمن، في عالم ما قبل العالم، وكان لدى الناس الوقت لإضاعة الوقت.

كانت الجمال تروح وتجيء، بخطوات بطيئة، عبر اتساعات صحراء الحجارة البركانية السوداء. لم تكن لها مواعيد ثابتة، لا موعد للخروج، ولا موعد للمجيء. ولكنها كانت تخرج وتجيء. ولم تقع هناك حوادث قط. لم تقع قط، إلى أن أصيب أحد الجمال فجأة بنوبة عصبية، وألقى في الفضاء من كانت راكبة عليه. انفلق رأس عاثرة الحظ تلك على حجر.

لقد هاج الجمل عندما اعترض طريقه شيء غريب، يسعل، ويطلق دخاناً، ويمشي بلا قوائم.

كانت السيارة الأولى قد وصلت إلى الجزيرة.

أحمر، أصفر، أخضر

حدث ذلك بين عشية وضحاها: أعمدة بثلاث عيون ظهرت عند زوايا الشارع الرئيسي. لم يُر شيء مثل ذلك من قبل في شوارع قرية كواري، ولا في كل أنحاء تلك المنطقة الحدودية.

على صهوات الجياد، من بعيد، راح يتوافد الفضوليون. يربطون الخيول خارج القرية، كيلا يسببوا عرقلة حركة المرور، ويجلسون لتأمل الجديد. كأس المتة في أيديهم، والترمس تحت الذراع، ينتظرون حلول الليل، لأن الأضواء في الليل أشد ضياءً، ومن الممتع البقاء والفرجة، مثل من يتفرج على ولادة النجوم في السماء. الأضواء تشتعل وتنطفئ بالإيقاع نفسه على الدوام، مكررة طوال الوقت ألوانها الثلاثة، واحداً بعد الآخر؛ ولكن رجال الريف أولئك، غير المبالين بمرور السيارات والناس، لا يملون المشهد. ويقول أحدهم ناصحاً:

ـ *الذي على تلك الناصية أجمل.*

ويعرب آخر عن رأيه

ـ *هذا الذي هنا يتأخر أكثر.*

وليكن معلوماً. لم يسأل أي واحد منهم قط ما هي فائدة تلك العيون السحرية التي تومض دون توقف.

دعاية

فاغنر أدوم يقود سيارته ونظره مصوب، على الدوام، إلى الأمام، دون أن يلقي، مطلقاً، أي نظرة على اللوحات الإعلانية التي تعطي الأوامر في شوارع كيتو وعلى طرقات البلاد.

وهو يقول:

- أنا لم أتسبب في قتل أحد قط. وإذا كنت قد عشت السنوات التي عشتها، وما زلت حياً، فليس ذلك إلا لأني لم أولِ لوحات الإعلان أدنى اهتمام قط.

ويوضح بأنه قد نجا بفضل ذلك من الموت غرقاً، أو بعسر هضم، أو بنزيف، أو اختناقاً. فهو لم يشرب محيطات من الكوكاكولا، ولم يأكل جبلاً من الهمبرغر، ولم يُحدث قرحة بحجم فوهة بركان في كرشه بابتلاع ملايين حبات الأسبرين، وتفادى أن تدفعه بطاقات الائتمان إلى الغرق حتى قمة رأسه في مستنقع الديون.

الشارع

كم من ملايين الأشخاص يمكن أن يتسع لهم شارع وحيد؟

في ظهيرة ذلك اليوم، كان سكان بوينس آيرس جميعهم يمضون في شارع فلوريدا، الشارع الوحيد الذي ما يزال صالحاً للمشي في المدينة. كانوا أناساً مدينيين هاربين من عبواتهم. حشداً بسيقان تمشي متعجلة جداً، كما لو أن هذا الحيز المنفي عن ملكوت السيارات لن يدوم إلا قليلاً.

ووسط تلك الحشود، لمح روخيليو غارثيا لوبي سيداً وقوراً يقترب بمشقة، وبالمنكبين، باتجاهه. فتح السيد ذو المظهر المحترم ذراعيه؛ ودون أن يجد روخيليو متسعاً من الوقت للتفكير، وجد نفسه معانَقاً ومعانِقا. بدا له وجه السيد معروفا بصورة غامضة. فلم يجد روخيليو ما يقوله سوى السؤال:

- من نحن؟

خريطة العالم

كنت أحاول حلّ رموز صخب الطيور، في محيط جامعة ستانفورد، عندما اقترب مني بروفيسور عجوز. وكانت لدى البروفيسور، وهو عالم في اختصاص ما، أحاديث كثيرة يريد تبادلها. إنه يعرف كل شيء في اختصاصه. أما أنا فلا أعرف شيئاً في ذلك الاختصاص، ولا أفهم منه شيئاً؛ ولكنه كان لطيفاً، يتكلم بعذوبة، ومن الممتع الاستماع إليه.

وعند مستوى معين من الحديث، لسعته حشرة الفضول، وسألني من أي بلاد أنا آتٍ. أجبته. ومن عينيه، المشدوهتين، عرفت أن اسم الأورغواي لا يبدو مألوفاً له. لقد كنت معتاداً على ذلك، لكن البروفيسور كان لطيفاً، وقدم لي تعليقاً عن الملابس التقليدية في بلادي. كان واضحاً أن البروفيسور يخلط بين الأورغواي وغواتيمالا، وكانت هذه البلاد الأخيرة، بمعجزة استثنائية، قد احتلت عناوين الصحافة في تلك الأيام. كافأت لطفه بالتظاهر، على الفور، بأنني غواتيمالي، وقلت دون تردد شيئاً ما عن التاريخ العاصف لأميركا الوسطى. فقال لي:

ـ *وسط أميركا*.

أردت أن أقتنع بأنه قد فهم. ولكنني لم ألح، بسبب الشكوك.

فأنا أعرف جيداً أن كثيرين من مواطنيه يعتقدون أن مدينة كانساس في وسط أميركا.

أبعاد

أنهى رافائيل غابيو، سيد ميادين مصارعة الثيران، عرضاً رائعاً في ميدان مصارعة الثيران في ألباثيتي، وقد تلقى أذني الثور وذيله، تذكاراً وتكريماً.

وبينما هو يخلع بدلة المصارعة، قرر المصارع البارع:

ـ **سنرجع الآن فوراً إلى اشبيلية.**

فأوضح له مساعده أن ذلك غير ممكن، وأن الوقت متأخر، وأضاف:

ـ **وكم هي بعيدة إشبيلية...**

سيطر الغضب على رفائيل. وبدا كما لو أنه في ذروة مصارعة، وكما لو أن مساعده ثور، وصاح آمراً:

ـ **مكانك!**

وأعاد الأمور إلى نصابها، وقد تحول إلى شعلة غضب:

ـ ***ما الذي قلته أنت، ماذا قلت؟ إشبيلية موجودة حيث يجب أن تكون. والبعيد هو هذا المكان.***

جغرافية

في شيكاغو، لا وجود لمن هو غير زنجي. وفي نيويورك، الشمس تشوي الأحجار في عزّ الشتاء. وفي بروكلين، من يصلون إلى سن الثلاثين وهم على قيد الحياة، يستحقون تمثالاً. وأفضل بيوت ميامي مبنية من النفايات. وخوفاً من الجرذان التي تطارده، يهرب ميكي من هوليوود.

شيكاغو، ونيويورك، وبروكلين، وميامي، وهوليوود هي أسماء بعض أحياء مدينة سوليل، أشد ضواحي العاصمة الهايتية بؤساً.

الجغرافي

ـ ***بحيرة تيتيكاكا. هل تعرفها؟***

ـ ***أعرفها.***

ـ ***فيما مضى، كانت بحيرة تيتيكاكا هنا.***

ـ ***أين؟***

ـ ***هنا.***

وأشار بذراعه إلى القفر الفسيح.

كنا في صحراء تاماروغال، مشهد حصباء متكلسة يمتد من الأفق إلى الأفق، تجتازه في أوقات متباعدة جداً سحلية ما؛ ولكنني لم أكن مؤهلاً لمخالفة كلام أحد ساكني المنطقة.

لسعني الفضول العلمي. وكان الرجل لطيفاً، فأوضح لي كيف انتقلت البحيرة إلى مكان آخر بعيد:

- لا أعرف متى حدث ذلك، فأنا لم اكن قد ولدت. لقد حملتها طيور مالك الحزين.

ففي شتاء طويل وقارس، تجمدت البحيرة. تحولت فجأة، ودون سابق إنذار، إلى جليد. وظلت طيور مالك الحزين مقيدة من قوائمها إلى الجليد. وبعد أيام وليال طويلة من خفق أجنحتها بكل ما أوتيت من قوة، تمكنت طيور مالك الحزين الأسيرة، أخيراً، من التحليق. ولكنها حلّقت مع البحيرة وكل شيء. حملت البحيرة المتجمدة ومضت بها في السماوات. وعندما ذابت البحيرة، سقطت أرضاً. واستقرت هناك بعيداً.

كنتُ أنا أنظر إلى الغيوم. وأعتقد بأنه لم يبدُ على وجهي الاقتناع، لأن الرجل سألني، بشيء من النزق:

- إذا كانت هناك أطباق طائرة، فقل لي حضرتك، لماذا لا يمكن أن تكون هناك بحيرات طائرة أيضاً؟ إيه؟

القطرس

يعيش في الريح. يطير دائماً، وطائراً ينام.

الريح لا تتعبه ولا تستنفده. إنه مديد العمر: في الستين، يواصل الدوران والدوران حول العالم.

الريح تخبره من أين ستأتي العاصفة وتخبره أين هو الساحل. إنه لا يضيع أبداً، ولا ينسى المكان الذي ولد فيه؛ ولكن الأرض ليست من شأنه، ولا البحر كذلك. على الأرض، قائمتاه القصيرتان تتعثران في المشي، وفي الماء يضجر.

عندما تتخلى عنه الريح، ينتظر. أحياناً تتأخر الريح، ولكنها تعود دوماً: تبحث عنه، تناديه، وتحمله. ويستسلم هو لها، يستسلم للطيران، بجناحيه الهائلين يسبح في الفضاء.

جواب الآفاق

من الحدود ناداني غوستافو دي ميلو:

- ***تعال*** - قال لي.

وكان دون فيليكس هناك. كان آتياً أو ذاهباً، فهذا أمر لا يمكنه معرفته أبداً.

ولا يمكن كذلك معرفة عمره. فبينما نحن نجهز على زجاجة نبيذ، اعترف لي بتسعين سنة. وقد حذف بعض السنوات، على حدّ قول غوستافو. ولكن فيلكس بيرايّو كارباخال لم يكن يملك وثائق إثبات الشخصية:

- ***لم أحصل عليها قط. كيلا أضيعها*** - قال لي وهو يشعل سيجارة ويطلق حلقات من الدخان.

بلا وثائق، وبلا ملابس غير التي يرتديها، تنقل من بلد إلى بلد، من قرية إلى قرية، على امتداد القرن كله، وعلى عرض العالم بأسره.

ودون فيليكس يخلّف وراءه، حيث يمر، ساعات شمسية. هذا الأورغوائي الغريب، لم يكن متقاعداً، ولا يريد أن يحصل على تقاعد شيخوخة. إنه يعيش على ذلك: صنع المزولات، ساعات بلا آلات، ويعرضها لتوضع في ساحات القرى. ليس لقياس الوقت، لأن عادة قياس الوقت تبدو له مهينة، وإنما لمجرد المتعة بمرافقة مسار الشمس على الأرض.

عندما التقينا، في مدينة ريفيرا، كان دون فيليكس قد بدأ يشعر بأنه على ما يرام. وقد أقلقه ذلك. فإغواء البقاء يعطيه أمراً بالذهاب:

- ***الجديد، الجديد، الجديد!*** - صرخ وهو يضرب المنضدة بيده التي كيد طفل.

إنه عابر في هذا المكان، كما في كل الأماكن. فهو يصل دوماً لكي يغادر. يأتي من مئة بلد ومن مئتي ساعة شمسية، ويغادر عندما يقع في الحب، هارباً من أن تنمو له جذور في فراش أو في بيت.

ولكي يغادر، يفضل ساعات الفجر. فعندما تبدأ الشمس بالمجيء، يغادر. وما إن تُفتح أبواب محطة القطارات أو الحافلات، حتى يلقي دون فيليكس، على منضدة بيع تذاكر السفر، الأوراق النقدية القليلة التي جمعها، ويقول آمراً:

- ***إلى حيث توصلني.***

الميناء

الجدة راكيل كانت عمياء عندما توفيت. ولكن بعد زمن من ذلك، وفي حلم هيلينا، ظهرت الجدة حية.

في الحلم، لم يكن عمر الجدة كومة من السنوات، ولم تكن مجرد حفنة عظام متعبة: كانت جديدة، كانت طفلة في الرابعة من عمرها، تتهي رحلة عبور البحر آتية من البلقان، مهاجرة بين مهاجرين كثر. وعلى سطح السفينة، كانت الجدة تطلب من هيلينا أن ترفعها، لأن السفينة بدأت تصل، وهي تريد رؤية ميناء بوينس آيرس.

وهكذا، في الحلم، مرفوعة بين ذراعي حفيدتها، كانت الجدة العمياء ترى ميناء البلاد المجهولة حيث ستعيش حياتها كلها.

المهاجرون، قبل قرن

خصلة شعر،
مفتاح قديم أضاع بابه،
غليون أضاع فمه،
اسم طرزه أحدهم على منديل،
صورة أحدهم في إطار بيضوي،
ملاءة سرير كان يتقاسمها مع شخص آخر،
وأشياء أخرى تأتي ملفوفة، بين الملابس، في حقائب المهاجرين.

ليس كثيراً ما تتسع له كل حقيبة، ولكن كل واحدة تتسع لعالم بكامله. وكل حقيبة ملتوية، مخلعة، مربوطة بحبال أو سيئة الإقفال بحدائد صدئة.. كل حقيبة هي مثل كل الحقائب الأخرى، ولكنها لا تشبه أي واحدة.

الرجال والنساء الآتين من بعيد ينقادون، مثل حقائبهم، ويتزاحمون، مثلها، منتظرين. يأتون من قرى لا تُرى على الخريطة، وبعد رحلاتهم البحرية الطويلة، ينزلون في جزيرة إيليس. إنهم على بعد خطوة

من تمثال الحرية الذي وصل، قبلهم بقليل، إلى ميناء نيويورك.

وفي الجزيرة تعمل المصفاة. بوابو الأرض الموعودة يستجوبون المهاجرين ويصنفونهم، يتنصتون على قلوبهم وعلى رئاتهم، يفحصون جفونهم، وأفواههم، وأصابع أقدامهم. يَزِنُونهم ويقيسون ضغطهم، ودرجة حرارتهم، وطول قامتهم، ودرجة ذكائهم.

كانت اختبارات الذكاء هي الأصعب. كثيرون من القادمين الجدد لا يعرفون الكتابة، أو لا يتمكنون سوى من التلعثم بكلمات غير مفهومة، بلغات مجهولة. ومن أجل تحديد مستواهم الثقافي، عليهم أن يجيبوا، فضلاً عن أسئلة أخرى، كيف يُكنس الدرج: هل يُكنس إلى أعلى، أم إلى أسفل، أم إلى الجانبين؟ فتاة بولونية أجابت:

- أنا لم آت إلى هذه البلاد لأكنس أدراجاً.

طيران السنين

عندما يأتي الخريف، تبدأ ملايين وملايين الفراشات رحلتها الطويلة إلى الجنوب، آتية من أراضي أمريكا الشمالية الباردة.

عندئذ، نهر متدفق على طول السماء.. خفق أجنحة ناعم، أمواج من الأجنحة، يخلّف لدى مروره بهاء لون برتقالي في الأعالي. الفراشات تطير محلقة فوق جبال ومروج وشطآن ومدن وصحارى.

إنها أثقل قليلاً من الهواء. وعلى امتداد أربعة آلاف كيلومتر من الرحلة، يسقط بعضها وقد أنهكه التعب، أو الرياح، أو الأمطار؛ ولكن الفراشات الكثيرة التي تصمد، تحطّ أخيراً، في غابات وسط المكسيك.

وهناك تكتشف هذه المملكة التي لم يُرَ لها مثيل قط، والتي تستدعيها من بعيد.

لقد ولدت من أجل الطيران. من أجل طيران هذه الرحلة. بعد ذلك تعود إلى موطنها. وهناك في الشمال، تموت.

في السنة التالية، عندما يأتي الخريف، تبدأ ملايين وملايين الفراشات رحلتها الطويلة...

المهاجرون الآن

منذ الأزل، تطير الفراشات وطيور السنونو والفلامنكو هاربة من البرد، وسنة بعد سنة، تسبح الحيتان بحثاً عن بحار أخرى، وأسماك السلمون والترويت بحثاً عن أنهارها. تسافر آلاف الفراسخ، عبر دروب الماء والهواء المفتوحة.

ولكن دروب الشتات البشري، ليست مفتوحة بالمقابل.

في قوافل هائلة، يمضي الهاربون من حياة مستحيلة.

يسافرون من الجنوب إلى الشمال، ومن مشرق الشمس إلى مغربها.

لقد سلبوهم مكانهم في العالم. جُردوا من أعمالهم ومن أرضهم. كثيرون يهربون من الحروب، ولكن كثيرين آخرين يهربون من الأجور المزرية ومن الأراضي المخربة.

غرقى العولمة يهاجرون مبتدعين دروباً، راغبين في بيت، طارقين أبواباً: الأبواب التي تُفتح، بصورة سحرية، تنغلق في وجوههم مع نفاد النقود. البعض يتمكنون من التسلل. آخرون يصيرون جثثاً يسلمها البحر إلى الضفاف المحظورة، أو أجساداً بلا أسماء ترقد تحت التراب في العالم الآخر الذي أرادوا بلوغه.

سيباستياو سالغادو صوّرهم، في أربعين بلداً، خلال سنوات عديدة. ومن عمله الطويل، بقيت ثلاثمئة صورة. وصور هذه المحنة البشرية الهائلة، تتسع لها جميعها، ثانية واحدة. ففي ثانية واحدة فقط، يُختزل كل الضوء الذي نفذ إلى الكاميرا، على امتداد كل تلك الصور: أقل من غمزة من عين الشمس، وليس أكثر من هنيهة في ذاكرة الزمن.

التاريخ الذي كان يمكن له أن يكون

كريستوف كولمبس لم يتمكن من اكتشاف أميركا، لأنه لم يكن يملك تأشيرة دخول، ولا حتى جواز سفر.

بيدور ألفارو كابال، مُنع من النزول في البرازيل، لأنه قد ينقل

إليها عدوى الجدري، والحصبة، والأنفلونزا، وأوبئة أخرى مجهولة في البلاد.

هيرنان كورتيس وفرانثيسكو بيثارو، اكتفيا بالرغبة في فتح المكسيك والبيرو، لأنهما لا يملكان تصريح عمل.

بيدرو دي ألفارادو أُبعد عن غواتيمالا، وبيدرو دي بالديبيا لم يستطع دخول تشيلي لأنهما لا يحملان شهادة حسن سلوك شرطية.

مهاجرو مايفلور أعيدوا إلى البحر، لأن شواطئ ماساشوستس ليس لديها حصص مهاجرين مفتوحة.

الطرد

في شهر آذار من سنة 2000، ألقى ستون هايتياً بأنفسهم في مياه البحر الكاريبي، على طوف مرتجل.

الستون ماتوا غرقاً.

ولأنه خبر روتيني، لم يهتم به أحد.

من ابتلعتهم المياه كانوا، جميعهم، مزارعي رز.

وكانوا يهربون يأساً.

في هايتي، تحول مزارعو الرز إلى مبحرين في أطواف أو إلى متسولين، منذ أن حظر صندوق النقد الدولي الحماية الحكومية المقدمة إلى الإنتاج الوطني.

الآن تشتري هايتي الرز من الولايات المتحدة، حيث صندوق النقد الدولي الذي نسي، لأنه مشغول جداً، أن يحظر الحماية التي تقدمها الدولة في الولايات المتحدة للإنتاج الوطني.

وداع

كما لو أنه عيد ميلاد، ولكنه لم يكن عيد ميلاد. تحت حبال الأنوار، والأزهار، والأشرطة الملونة، خرجت مأكولات ذرة لذيذة من قدور يتصاعد منها البخار، وسال متدفقاً الشيطان المعبأ في قوارير،

وكانت الأقدام تثير الغبار على إيقاع الجيتارات والنايات.

عندما بزغت الشمس، كان بعض المدعوين يشخرون في الأركان.

المستيقظون أيقظوا من سيغادر. إنه ذاهب بالملابس التي يرتديها، وبجواز سفر من جمهورية الاكوادور. أهدوا إليه عباءة، لتزيين الرحلة. ذهب على متن بغلة، وبعد قليل من المشي، اختفى في الجبال.

لم يكن الأول.

ففي القرية لم يبق سوى الأطفال والشيوخ.

ومن الذاهبين لم يرجع أحد.

المدعوون الذين ظلوا هناك، يعلقون على الحفلة:

- لقد كانت رائعة. يا للبكاء الذي بكيناه!

الرحيل

هذه المرأة ترحل إلى الشمال. تعرف أنها قد تموت غرقاً عند اجتياز النهر، وقد تموت برصاصة، أو يقتلها العطش أو أفعى وهي تجتاز الصحراء.

تقول وداعاً لأبنائها، وترغب لو تقول لهم إلى اللقاء.

وعند مغادرتها أواكساكا، تجثو على ركبتها أمام تمثال عذراء غوادالوبي، على مذبح في الطريق، وتتوسل إليها المعجزة:

- لا أطلب منك أن تعطيني. أطلب منك أن توصليني إلى حيث يوجد.

الوصول

بلا وثائق، ولا نقود، ولا أي شيء، انطلق ماشياً من قريته في سيراليون. الأم سقت بالماء آثار خطواته الأولى، كي تمنح حسن الطالع للرحلة.

ممن خرجوا معه، لم يصل أحد. بعضهم أمسكت بهم الشرطة، وآخرون ابتلعتهم الرمال أو البحر. أما هو فتمكن من الدخول إلى

برشلونة. ومع ناجين آخرين من أوديسيات آخرى، يُمضي الليل في ساحة كتالونيا. يستلقي على الأرض الحجرية، ووجهه إلى السماء.

وفي السماء التي قلما تظهر، يبحث عن نجومه. إنها غير موجودة هنا. يريد أن ينام، ولكن أنوار المدينة لا تُطفأ أبداً. فالليل هنا نهار أيضاً.

طقس

أمضى التشاتو سنوات طويلة وهو وراء ذلك الكونتوار. يقدم المشروبات، ويبتكرها أحياناً. يصمت، وفي بعض الأحيان يسمع. يعرف عادات ونزوات كل واحد من الزبائن الذين يأتون، ليلة بعد ليلة، ليبللوا حلوقهم.

كان هناك رجل يأتي دائماً في الساعة نفسها، في الثامنة بالضبط من كل ليلة، ويطلب كأسين من النبيذ الأبيض المز. يطلب الكأسين معاً، ويشربهما وحده، رشفة من هذه الكأس، ورشفة من الكأس الأخرى. ببطء شديد، وصمت، كان الرجل يفرغ كأسيه، ثم يدفع وينصرف.

كان التشاتو معتاداً على عدم السؤال. ولكن الرجل الآخر قرأ، في إحدى الليالي، شيئاً من الفضول في عينيه؛ ومثل من هو غير راغب، أخبره بالأمر. قال له إن صديقه الأكثر صداقة، صديقه الدائم، غادر. ملّ من الهرب كأرنب، وذهب بعيداً جداً عن الأوروغواي، وهو الآن في كندا.

وقال:

- أموره هناك جيدة.

ثم قال بعد ذلك:

- لست أدري إذا كانت أموره جيدة.

وأطبق فمه.

منذ أن ذهب صديقه، كلاهما يلتقيان كل ليلة، في الثامنة تماماً، حسب توقيت مونتيفيديو، هو في هذا البار هنا وصديقه في بار هناك، ويشربان كأساً معاً.

وهكذا مضى الزمن، ليلة بعد ليلة.

إلى أن جاء الرجل مرة في الموعد الدقيق المعهود، ولكنه طلب كأساً واحدة. وشرب ببطء، بصمت، ربما بقدر أكبر من البطء والصمت المعتادين، حتى القطرة الأخيرة من هذه الكأس الوحيدة.

عندما دفع الحساب ونهض كي يغادر، فعل التشاتو ما لم يفعله قط: لمسه. مدّ ذراعه فوق الكونتوار ولمسه، وقال له:

- تعازيّ.

منفى

ليوناردو روسيلو جاء من شمال العالم. الرحلة من ستوكهولم إلى مونتيفيديو تعقدت، كانت هناك لا أعرف أية مشكلة في تبديل الطائرات، وأخيراً وصل ليوناردو، في وقت متأخر من الليل، في طائرة لا ينتظر وصولها أحد.

أمام بيت أبويه، تردد:

- أوقظهما؟ لا أوقظهما؟

منذ سنوات وهو يعيش بعيداً، إنه زمن المنفى، سنوات الدكتاتورية العسكرية العمياء، وكان مجنوناً بالرغبة في رؤية ذويه. ولكنه قرر أنه من الأفضل الانتظار.

راح يمشي في الشارع، شارع طفولته، وأحس أن بلاط الرصيف يتعرف على قدميه. امتلأ رأسه بأخبار قديمة ودعابات خبيثة، وبدا له كل شيء جديداً ومسلياً. كانت ليلة شتاء جليدية، وكانت المدينة محاطة بالصقيع، ولكنه كان سعيداً بذلك الهواء المداري.

تأخر ليوناردو وقتاً لا بأس به قبل أن ينتبه إلى أنه يحمل حقيبة كبيرة، وأن الحقيبة تزن أكثر من مقبرة كاملة. عندئذ اجتاز الشارع، واجتاز الأرض الخلاء، وجلس على الحقيبة وظهره إلى جدار.

لم يُتح له البردُ النومَ. وعندما نهض، رأى على ضوء القمر أن ذلك الجدار ممتلئ بالقروح: كانت هناك خربشات وكلمات: قلوب تخترقها

سهام، وقصائد حب، وإساءات كراهية، بل وافتراء ما (***ماريا مصابة بترهل السمنة***).

واستطاع ليوناردو أن يقرأ أيضاً، حروفاً شبه ممحوة، تسأل:

- أين كنت إذن؟ أي كلمات تنطق؟ ومع أي أناس كنت تتكلم؟

منفيون

كانت قد انقضت سنوات على انتهاء حرب إسبانيا، ولكن المهزومين كانوا يواصلونها في الأمسيات، وهم يتجادلون صراخاً في مقاهي مونتيفيديو. وفي الليل، يواسون هزيمتهم في مشارب النبيذ، بغناء أغنيات الخنادق، وهم متعانقين.

أحد أولئك المنفيين، وكان قد قاتل في صفوف الجمهوريين منذ البداية حتى النهاية، كان يروي لي الحرب، خطوة خطوة، في مطبخ بيته. وكانت المعارك تدور فوق شرشف المائدة.

الملاعق الصغيرة، والسكريّة، وفناجين القهوة بالحليب تشير إلى مواقع رجال الميليشيا ومواقع قوات فرانكو. تنحني سكين وتطلق قذيفة مدفع، فتقلب علبة المربى الحمراء حمرة الدم. الكؤوس، وهي الدبابات، تتقدم متدحرجة على قطع الخبز المحمص التي تطقطق وهي تنسحق. طائرات هتلر تلقي حبات برتقال وأرغفة خبز تهز المائدة، وتبعثر عيدان الأسنان التي تمثل المشاة. على مائدة الفطور تلك، كان يؤلم أذني وروحي دوي القنابل، وأزيز الرشاشات، وصراخ الضحايا.

فخ الزمن

كان عمرها خمس سنوات عندما ذهبت.

ترعرعت في بلاد أخرى، وتكلمت لغة أخرى.

وعندما رجعت، كانت قد عاشت حياة طويلة.

وصلت فيليسا أورتيغا إلى مدينة بلباو، صعدت إلى أعلى جبل أرتاكساندا، ومشت الطريق الذي لم تنسه، نحو البيت الذي كان بيتها.

كل شيء بدا لها صغيراً، منكمشاً بفعل السنين؛ وخجلت من أن يسمع الجيران ضربات الطبل التي تهز صدرها.

لم تجد دراجتها ثلاثية العجلات، ولا كراسي الخيزران الملونة، ولا منضدة المطبخ، حيث أمها التي كانت تقرأ لها الحكايات، قطعت ذيل الذئب الذي يُبكيها. ولم تجد كذلك الشرفة التي رأت منها الطائرات الألمانية متوجهة لقصف غيرنيكا.

وبعد قليل، وجد الجيران الحماسة ليقولوا لها: لا، هذا البيت ليس بيتك. فبيتك قد دُمر. وهذا الذي تراه بُني على أنقاض بيتها.

عندئذ، ظهر أحدهم، من أعماق الزمن، أحدٌ قال لها:

- أنا إيلينا.

استُهلكتا في العناق.

أشياء كثيرة فعلتاها معاً، في أحراش الطفولة تلك.

وقالت إيلينا

- لدي شيء لك.

وأحضرت لها طبقاً كبيراً من الخزف الأبيض، مزيناً برسوم زرقاء.

فيليسا تعرفت عليه. كانت أمها تقدم في هذا الطبق، بسكويت البندق الذي تصنعه للجميع.

وكانت إيلينا قد وجدته سليماً، بين الأنقاض، واحتفظت به طوال ثمان وخمسين سنة.

القدم

كثيرون لم يرجعوا. كثيرون من مواطني العالم الذين سافروا للقتال في سبيل الجمهورية الإسبانية، ظلوا تحت التراب الإسباني.

آبيه أوشيروف، من لواء لينكولن، ظل حياً.

هشمت رصاصةٌ إحدى ساقيه. وبقدم ساكنة والأخرى متحركة، رجع إلى بلاده.

كانت إسبانيا هي حربه الأولى الخاسرة. ومنذ ذلك الحين، تحمله

قدمه المشاءة، لم يتوقف آبيه.

على الرغم من الخيانات والهزائم، ومن الهراوات والسجون، لم يتوقف. إحدى القدمين لا تستطيع، ولكن الأخرى تريد وتواصل. إحدى القدمين تقول له: سأبقى هنا، ولكن الأخرى تصمم: سآخذك إلى هناك. ومرة بعد أخرى تواصل هذه القدم، المشاءة، المشي.. تعود إلى الطريق، لأن الطريق هو القدر.

وهذه القدم تحمل آبيه عبر الولايات المتحدة، من أقصاها إلى أقصاها، ومن البحر إلى البحر، وتورطه في مشاكل، مشكلة بعد أخرى، ضد صيد الساحرات المكارثي، وضد حرب كوريا، ومذبحة فيتنام، وحمام الدم في الهند الصينية، والتفجيرات الذرية، وحصار كوبا، والانقلاب في تشيلي، وخنق نيكاراغوا، وغزو بنما، وقصف العراق ويوغسلافيا وأفغانستان، ثم العراق مرة أخرة، و...

صار عمر آبيه تسعين سنة، ولا يزال مشاءً. وعندما يسأله صديقه توني غيست، لمجرد السؤال فقط، كيف يمشي. يرفع رأسه، رأس الأسد ذي اللبدة البيضاء ويبتسم، من أذن إلى الأخرى:

- إنني أمشي، بقدم في القبر، والقدم الأخرى ترقص.

طريق يسوع

مسمراً من يد واحدة، كان يسوع الناصري يتدلى معلقاً على بقايا جدار محترق. بينما كان يسوع الآخر، يسوع كامبري، معلقاً على سقالة.

«يسوع بابيو»، المولود في قرية كامبري، كان معلم بناء، ومعلم نجارة، ومعلم سمكري، ومعلم تجديف. وكان يحسن صنع كل ما يصنعه، ولكنه كان قد جال في العالم، ويعرف أنه لا يوجد في العالم من هو قادر على التفوق عليه في فنون التجديف الذي هو، مثل التصوف، فن إسباني. وكان يسوع كامبري في ذروة التجديف وهو يعيد بناء كنيسة سانتا ماريا دي بيغو، بعد أن أحرقها الحمر في سنوات الحرب، بينما كان يسوع الناصري، مسوداً بالسناج، يسمع، دون أي تكشيرة، عبارات التكريم تلك:

- أبول على مفصلات حجرة القربان، ومسامير المسيح وجراحه وأشواكه. وأبول على الأم الطاهرة التي خلّفته.

وبين حين وآخر، كان آنخل باثكيث دي لا كروث يدخل، على حصان، إلى الكنيسة المدمرة. ومن أعلى السقالة، بينما هو يدق بالمطرقة إسفيناً خشبياً، كان يسوع كامبري يروي له، بين تجديف وآخر، إحدى قصص رحلاته إلى الخارج. كان ذلك العامل التائه قد عمل في إنكلترا، وهولندا، والنرويج، وألمانيا، وحتى في كتالونيا.

وكانت قصصه تنتهي دوماً بالطريقة نفسها. يشير بالمطرقة إلى النافذة الواسعة التي تجتاحها العصافير، ويشير في ما وراءها إلى درب غابة كامبري. لم يكن يظهر أحد على ذلك الدرب، اللهم إلا أحد السكان المحليين، حاملاً على متن حمارٍ حمولةً من الحطب. ولم يكن الدرب إلا شقاً من التراب بين الأشجار:

- *أتراه؟* - يسأل ويحكم:

- لقد جبتُ دروباً كثيرة. وأبول على طريق الآلام، وطريق سنتياغو، وعلى كل الأتسترادات. ألا فاعلم حضرتك، لا بد أن تبدأ بمعرفة أن كل ما هو موجود ويمكن رؤيته في العالم، وفي السماء العالية، يمر من هذا الدرب الذي هناك.

طريق النمل

تطل نمال الصحراء من الأعماق، وتنطلق على الرمال.

تبحث عن دروب هنا، عن دروب هناك؛ وفي تنقلها تأخذ بالابتعاد عن بيتها أكثر فأكثر.

وبعد وقت طويل ترجع، من بعيد، حاملة بمشقة الأغذية التي وجدتها حيث لا يوجد شيء.

الصحراء تسخر من الخرائط. فالرمال التي تذروها الرياح، لا تبقى أبداً حيث كانت. وفي هذا الاتساع الشاسع الملتهب، يمكن لأي كان أن يضيع.

لكن النمال تجتاز أقصر الطرق إلى بيتها. سائرة بخط مستقيم،

دون تردد، ترجع إلى نقطة خروجها بدقة، وتحفر حتى تجد الثقب الدقيق الذي يقود إلى جحرها. لا تخطئ الاتجاه أبداً، ولا تدخل في ثقب آخر.

لا أحد يفهم كيف يمكن لتلك الأدمغة التي لا تزن سوى مليغرام واحد، أن تعرف كل تلك الأشياء.

طريق السلمون

بعد الولادة بقليل، تهجر أسماك السلمون الأنهار وتسافر إلى البحر.

تُمضي الحياة في مياه بعيدة، إلى أن تبدأ رحلة العودة الطويلة.

من البحر، تمتطي الأنهار. توجهها بوصلة سرية، تسبح ضد التيار، دون أن تتوقف أبداً، قافزة عبر الشلالات والمناطق الصخرية. وبعد فراسخ كثيرة، تصل إلى المكان الذي ولدت فيه.

ترجع كي تُنجب وتموت.

في المياه المالحة، تكون قد كبرت كثيراً وتبدل لونها. تأتي متحولة إلى أسماك ضخمة، متحولة من اللون الوردي الشاحب إلى البرتقالي المائل للحمرة، أو إلى الأزرق الفضي، أو إلى أخضر يشوبه اسوداد. لقد مضى الزمن، ولم تعد أسماك السلمون هي نفسها التي كانت من قبل. ومكانها لم يعد هو الذي كان من قبل.

فالمياه الشفافة في مملكتها الأصلية، وفي مستقرها يقل صفاؤها يوماً بعد يوم، وتصبح حصى الأعماق وصخورها مرئية أقل. لقد تبدلت أسماك السلمون، وتبدل مكانها أيضاً. ولكنها منذ ملايين السنين ما زالت تؤمن بأن العودة موجودة، وأن تذاكر الذهاب والإياب لا تكذب.

الفقر

الإحصائيات تقول إن الفقراء كثيرون في العالم، ولكن الفقراء في العالم أكثر بكثير من الكثرة التي يبدون عليها.

الباحثة الشابة كاتالينا ألفاريث إنسوا أشارت إلى وجهة نظر تنفع في تصحيح الحسابات:

- *الفقراء هم من يغلقون أبوابهم* - قالت.

عندما صاغت تعريفها هذا، كانت في الثالثة من العمر. وهي أفضل سن للإطلال على العالم، والرؤية.

الباب المغلق

من القرى الهندية المنسية في غران تونال، سافر بيدرو خاسو برافو ومعه حماره **تشابارو** إلى مدينة مكسيكو.

كان بيدرو يمضي سائراً على قدميه أكثر مما يمضي راكباً، فقد كان يركب المطية في أوقات متباعدة وحسب، كيلا يتعب ظهر **تشابارو** المتعب، لأنهما، كلاهما، تقدما في السن، والرحلة طويلة.

وبعد أيام من المسير، شيئاً فشيئاً، وصلا أخيراً إلى ساحة ثوكالو الكبيرة. وتسمرا عند بوابة **القصر الوطني** حيث تقيم السلطة.

وبقيا هنا، ينتظران مقابلة الرئيس. لقد جاء بيدرو وتشابارو ليرويا ما يحدث، ويطالبا بالعدالة. فهنود قرى غران تونال، المنقرضون رسمياً، لا وجود لأي ذكر لهم في الإحصائيات. لقد حُصروا في أراضي الحصباء والزوابع، حيث تُقدّم إليهم وجبة ثابتة من الحجارة والغبار، وحيث العدالة أبعد من القمر، لأن القمر يمكن رؤيته على الأقل.

رفض رئيس الأمة مقابلتهما، ولكن لم تكن هناك طريقة للتخلص منهما: فمندوبا غران تونال كانا يرجعان إلى الساحة، في كل مرة يخرجونهما منها. لم تكن ثمة طريقة: لا بالضرب ولا بالحسنى. كان **تشابارو** يبدي وجه حمار، وبيدرو وجه من يقول: عليك بالصبر، فنحن منذ خمسة قرون على هذه الحال.

في نهاية عام 1997، اضطر بيدرو، وكان في السابعة والثمانين من عمره، إلى تقبل أول حقنة تعطى له في حياته، بعد أن شارف على الموت لكثرة ما تنشق من الهواء المسمم في مدينة مكسيكو. وواصل مرابطته، وكأن شيئاً لم يحدث، بينما **تشابارو** يصم أذنيه عن افتراءات الصحافة التي تسميه «*واسطة نقل*».

أقام بيدرو وتشابارو في العراء، قبالة القصر الوطني، طوال سنة وشهرين وخمسة عشر يوماً. وبعدها بدأا رحلة العودة.

الباب لم يُفتح لهما، ولكن هذين اللجوجين توصلا إلى شيء ما.. ليس كل شيء، ولكنه شيء ما. لقد توصلا إلى ألا يبقى قومهما شبحيين وغير مرئيين.

بعد قليل من وصولهما، وبعد مسيرة منهكة، أخذ الموت تشابارو. أو ربما أسلم هو نفسه للموت، بمذلة، لأنه تأكد خلال الرحلة أن السلطة هي سيد أشد منه حمارية. ومنذ ذلك الحين، تحول تشابارو إلى الجحش الوحيد الذي تظلله سحابة، هناك في السماء، جنباً إلى جنب مع حصان إميليانو زاباتا الأبيض.

درس في الحقوق

كان فقراء الفقر المطلق يصطفون بالدور.

القانون يستيقظ باكراً، واليوم يستمع دكتور القانون لالتماساتهم في أول ساعات الصباح.

يرى المحامي أن هناك في الصف امرأة عجوزاً يحيط بها عنقود من الأطفال، وبين ذراعيها رضيع. عندما يصل الدور إليها، تعرض أوراقها. الأطفال ليسوا أحفادها: فهي امرأة في الثلاثين ولديها تسعة أبناء.

إنها آتية لطلب المساعدة. فقد بنت كوخاً من الصفيح والأخشاب في مكان على سفح جبل مونتيفيديو. كانت تظن أنها أرض لا يملكها أحد، ولكن تبين أنها لأحد. وهم الآن سيطردونها من هناك، وقد وصلها هذا الشيء الذي يُسمى أمر الإخلاء.

المحامي يستمع إليها. يتفحص الأوراق التي جاءت بها.

لا حق في ذلك، يفكر الدكتور في الحقوق: يهز رأسه، يتأخر في التكلم. يبتلع لعاباً ويقول، وهو ينظر إلى الأرض:

- ***متأسف يا سيدتي، ولكن... لا يمكن عمل شيء لك.***

عندما يرفع بصره، يرى أن الابنة الكبرى، صبية ذات وجه مرتعب، تغلق أذنيها براحتيها.

درس في الطب

استمع روبين عمر سوسا إلى درس ماكسيميليانا في دورة علاج مكثف، في بوينس آيرس. وكان ذلك أهم ما تعلمه في سنته تلك كطالب.

روى لهم أستاذ الحالة. دونيا ماكسيميليانا المهترئة من حياة مديدة دون آحاد، أُدخلت منذ أيام إلى المستشفى، وفي كل يوم كانت تطلب الشيء نفسه:

ـ أرجوك يا دكتور، ألا يمكنك جس نبضي؟

ضغطُ أصابعٍ ناعم على المعصم، ويقول لها:

ـ جيد، ثمانية وسبعون. تمام.

ـ أجل يا دكتور، شكراً، والآن أرجوك، ألا تجس نبضي؟

ويعود إلى جسه، ويعود ليوضح لها أن كل شيء على ما يرام، وأنه من المستحيل أن تكون أفضل من ذلك.

يوماً بعد يوم، يتكرر المشهد. في كل مرة يمر فيها قرب سرير دونيا ماكسيميليانا، يناديه ذلك الصوت، تلك الأنّة، وتقدم له ذراعها، ذلك الغصن النحيل، مرة وأخرى، وأخرى.

وهو ينصاع لطلبها، لأنه لا بد للطبيب الجيد من أن يكون صبوراً مع مرضاه، ولكنه يفكر: ***هذه العجوز ورطة***. ويفكر: ***ينقصها برغي ما***.

احتاج لسنوات كي يدرك أنها تريد من يلمسها وحسب.

أمومة

تيرتوليانا كيروز تنتظر في مكان ما من ثيارا.

هي تنتظر، وأبناؤها ينتظرون.

أنجبت خمسة عشر.

وليد حديث الولادة منهم، تركته عند باب الكنيسة. واستبدلت ابنة، بعد أن كبرت، ببقرة.

في أزمنة أخرى كانت تتكلم بتدفق. أما الآن فتجد صعوبة.

تقول: *بقي لدي ثمانية*.

تعدّ على أصابعها، وتهمس الأسماء. ثم تقول: لا، إنهم سبعة.

الآخرون ماتوا، ماتوا ميتة طبيعية أو قتلاً.

تنظر إلى السماء، بعينين زائغتين.

وتقول: الرب يدعوهم إليه.

إنها معتادة.

يوم الأم

أتلقى، بالبريد، كراس عروض لهذا اليوم الخاص.

فيه أفضل ما يمكن تقديمه من هدايا إلى المتفانية التي منحتنا الحياة. ويَعِدُ الكراس بتوفير *طمأنينة ليلية* لها، فهم يبيعون، بسعر معقول، أجهزة إنذار بالتحكم عنٍ بعد، وصفارات إنذار ضد العبث، ومفاتيح أمان كهربائية، وقضباناً حديدية منيعة للنوافذ، وكاميرات مراقبة، وأجهزة رصد بثلاث عدسات تعمل بالأشعة تحت الحمراء، وأجهزة إنذار ممغنطة للأبواب والبوابات.

ملابس العصر

ملابس القرن الجديد يمكن التعرف عليها في مركز الخياطة الرفيعة الذي يملكه ميغيل كابايرو، في بوغوتا.

هذه الشركة الفتية، المتخصصة في أزياء هذا الزمن، هي الأكثر نجاحاً في البلاد. إنها تبيع كثيراً، هنا وفي الخارج؛ وتكسب الكثير من المال والحسد.

- *في مهنتي لا مجال للخطأ* - يوضح رجل الأعمال، بينما هو يختبر

زياً جديداً بإطلاق النار من مسدس على صدر أحد موظفيه.

الخوف لم يعد عارياً. ففي خدمة الأمن العام والأناقة الشخصية، يُنتج كابايرو ألبسة مصفحة.

ملابسه المنيعة محمية بألياف اصطناعية أشد مقاومة من الفولاذ بخمس مرات. وهو يعرض أوزاناً وتصاميم متنوعة: لدينا قمصان داخلية زنة كيلو غرام واحد، ومعاطف مطرية زنة أربعة كيلوغرامات؛ ومعاطف جلدية أو من وبر الجمال؛ وبدلات حفلات، وملابس رياضية، وسترات مزينة برسوم قلوب.

مؤشرات

ليس معروفاً إذا ما حدث ذلك قبل قرون، أم منذ لحظة، أم أنه لم يحدث قط.

في موعد الذهاب إلى العمل، اكتشف أحد الحطابين أنه يفتقد فأسه. راقب جاره، وتأكد أن له المظهر التقليدي لسارق الفؤوس: النظرة، الحركات، طريقة الكلام...

بعد بضعة أيام، عثر الحطاب على فأسه، وكانت قد سقطت منه هناك. وعندئذ عاد يتفحص جاره، تأكد من أنه لا يشبه لص الفؤوس في أي شيء، لا يشبهه في النظرة، ولا في الحركات، ولا في طريقته في الكلام.

أدلة

طاب مساؤكم، يحيي الصوت الوقور، ثم يعلن بعد ذلك الأسوأ: *خوف، عجز، خذلان...*

التلفزيون يقدم أنجح كوكتيل لديه من الدم والرعب. برنامج تلفزيون غلوبو الذي يبعث القشعريرة في ملايين البرازيليين، يتحدث عن فظائع ترتكبها عصابات ضد الأهالي العزل.

آب 1999: إنــه دور مــاركوس كابيتــا، وريــث عصــابة كانغاسيروس، مصدر الرعب في باهيا.

الممثلون المحترفون يمثلون الحلقة درامياً. لقطة قريبة تُظهر وجوه رجال الشرطة الذاهلة. المتوحش يصوب بندقيته الرشاشة التي تطلق، في الدقيقة، ألفي طلقة أسرع من الصوت بثلاث مرات. الشاحنة الشرطية تنفجر. ولا يفتقر العرض التمثيلي إلى مؤثرات خاصة: فلهيب الانفجار يرسم، في الهواء، وجه القاتل، مبتسماً بصفاقة.

التلفزيون يتهمه ويحاكمه. يدينه، دون أن يسمع أقواله، ويحكم عليه بالموت. لن يكون ذلك سهلاً. فماركوس كابيتا هو زعيم عصابة كبيرة العدد.

تبدأ عملية صاعقة لاصطياد القاتل. وعملية تنفيذ الحكم ستتولاها قوات حفظ النظام.

في البرنامج التالي، الجمهور الواسع في الصالة التلفزيونية يتنهد ويصفق. الشاشات تعرض دليل النصر. فبعد معركة طويلة، نقص عدد أعداء المجتمع واحداً.

يتولى نيلو باتيستا مهمة قراءة الملف القضائي والتقرير الشرطيّ. لقد سقط قاطع الطريق، مجندلاً بالرصاص، في بيت منعزل. لم يكن لديه، وما كان لديه قط، أي نوع من الرشاشات، وعصابته كبيرة العدد تتألف من طفل في الرابعة عشرة، مات إلى جانبه.

المرافعة

ـ *قدم روايتك للوقائع* ـ أمر القاضي.

وبيدين على ملامس الآلة الكاتبة، دون كاتب المحكمة أقوال المتهم، المعروف بلقب «البرغي»، المقيم في مدينة ميلو، الراشد، الوضع الاجتماعي عازب، والمهنة عاطل عن العمل.

المتهم لم ينكر مسؤوليته عن الجناية المنسوبة إليه. أجل، فهو قد خنق دجاجة ليست ملكاً له. وقال متعللاً:

- *اضطررت إلى قتلها. فمنذ زمن وبطني الخاوي يصفر.*
ثم أضاف:
- *لقد فعلتُ ذلك دفاعاً عن النفس، يا سيدي القاضي.*

الحكم

كنا في جولة نبيذ، شراب وغناء، مع سانتييّان الكلب، وآرياس الشيطان، وأصدقاء آخرين، عندما دعا أحدهم بيتيتي، وكان ميتاً، وجاء بيتيتي لتناول بضع كؤوس معنا.

لم أكن أعرفه من قبل، ولكننا في تلك الظهيرة، بينما نحن نشرب ونغني مع هذا السيد الأكرش، صرنا صديقين. وأخبرني هو بأنه مات لأنه خطر له، على الرغم من فقره المدقع، أن يمرض. داهمته نوبة السكري في عز الليل، ولم يكن لدى مستشفى خوخوي إنسولين.

السجن

في عام 1984، مبعوثاً من إحدى منظمات حقوق الإنسان، تجول لويس نينيو في أجنحة سجن لوريغانتشو، في ليما.

غرق لويس في تلك العزلة المزدحمة. وبشق النفس شق طريقه بين السجناء ذوي الأسمال البالية أو العراة.

بعد ذلك، طلب التحدث إلى مدير السجن. لم يكن المدير موجوداً. فاستقبله رئيس الخدمات الطبية.

قال لويس إنه رأى بعض السجناء يحتضرون، يتقيؤون دماً، وكثيرون آخرون تتصاعد منهم أبخرة ارتفاع الحرارة وتأكلهم القروح، وأنه لم ير أي طبيب. فأوضح له الرئيس:
- *نحن الأطباء لا نتدخل إلا عندما يدعونا المرضون.*
- *وأين هم المرضون؟*
- *لا توجد لدينا ميزانية لدفع أجور المرضين.*

الإعدام

جرى اختبار الكرسي الكهربائي أول مرة في الثلاثين من تموز 1888.

في ذلك اليوم، خلّفت مدينة نيويورك، وهي طليعة التقدم الكوني، خلّفت وراءها عادة الشنق الهمجية والجلاد المُقَنَّع. لقد دشنت الحضارة الموتَ العلمي، المفاجئ، والمضمون، دون ألم.

مدعوون كثيرون شهدوا الحدث.

السجين، المكمم والمقيد بأحزمة سميكة، تلقى شحنة بقوة ثلاثمئة فولت. اختلج وأنَّ، ولكنه لم يمت.

صعقه المولد الكهربائي بأربعمئة فولت. فكانت هناك اختلاجات أشد عنفاً. وظل حياً.

وعندما وجهوا إليه سبعمئة فولت، انفجر مخطمه في دفقة من الدم الرغوي، وأطلق نباحاً أجش ونائياً.

القصف الرابع أجهز عليه.

كان المعدوم كلباً يدعى داش.

وقد حُكم عليه، دون أدلة، بعَضِّ شخصين في الشارع.

دفن فقير

حسب ما يقوله العارفون، سُمي مالبيردي بهذا الاسم لأنه يختبئ وسط ما هو أخضر، ويتنكر كشجرة ليضلل الشرطة المكسيكية.

هناك من يقول إنه لم يكن ثمة وجود قط لهذا اللص الذي يوزع ما يسرقه؛ ولكن ليس هناك من ينكر أنه موجود. فمع أنه ليس قديساً من الفاتيكان، إلا أن له كنيسة خاصة في كولياكان، على بعد خطوات من القصر الذي تحكم الحكومة منه. الحكومة تعد بمعجزات. ومالبيردي يحققها.

من الجبال ومن البحر، يتوافد إليه الحجاج، ويتركون في

الكنيسة نذر امتنانهم: أوراق أول الذرة في موسمي، أول قريدس اصطدته في الموسم، الرصاصة التي لم تقتلني.

على المذبح، يوجد صف من الليمون. كل مؤمن يأخذ واحدة. إذا أُكلت حبات الليمون وحدها تنظف الفم. وإذا أكلت بإيمان، تنظف الروح وتمنح حسن الطالع.

الكنيسة مقامة حيث ظل مالبيردي ملقى، عندما اخترقه الرصاص. كان ذلك منذ سنوات طويلة. منعوا مراسم الدفن، وهناك بدأ الرجم. من كل الأماكن توافد أناس لرمي حجارة. وكانت السلطة سعيدة وهي ترى كيف يرجم المواطنون قاطع الطريق. هرم عالٍ من الحجارة غطى مالبيردي.

ومتظاهراً بمعاقبته، قدم له الشعب بيتاً.

دفن فاخر

خورخي أغيلار، قائد طائرة، يحتل ضريحاً من ثلاثة طوابق، ويظل الضريح مضاء على الدوام. ألواح الزجاج المزخرفة تُظهر ديكوراً من جناحي ملاك يقدم تكريمه إلى المهنة، وإلى اسم شهيد حرية التجارة هذا.

ولا يعرفُ العتمةَ كذلك مدفنُ لوبيتو ريتاموثا، إنه ضريح بستة أعمدة، مضاء بالطاقة الشمسية.

الدكتور أنطونيو فونسيكا الذي اخترقه الرصاص في شوارع غوادالاخارا، مع زوجته حراسه، يرقد في مدفن فوسفوري هائل، محاطاً بصور كبيرة لأحبائه، وصورة زيتية بالألوان للمسيح في وضعية متأملة.

ومفعم بالضوء، وبملائكة من المرمر، وبدمى وألعاب بلاستيكية، مدفن أبناء غويرو بالما الصغار الذين أُلقي بهم من ارتفاع شاهق، في عمل انتقامي جائر.

تجار المخدرات وأفراد أسرهم يقيمون في حي فاخر، حدائق هومايا، في مقبرة كولياكان. وفي مدافنهم الضخمة جميعها يوجد هاتف، تحسباً لانبعاثهم.

أعياد ميلاد المتوفين يُحتفل بها على امتداد عدة أيام بلياليها، والفرق الموسيقية تعزف دون توقف، مرافقة تقديم الشراب. إنها حفلات مسالمة. مرة واحدة فقط دوى الرصاص، ولكن ذلك حدث لأن أحد الموسيقيين، متذرعاً بالتعب، رفض مواصلة العزف.

- ***منذ ذلك الحين، لم يعد هناك عازف تخور عزيمته*** - يوضح ذلك إرنستو بيلتران، حارس المقبرة وحفار القبور، بينما هو يجمع الزجاجات الفارغة.

الانضباط

الحقوقي والفيلسوف البريطاني جيرمي بينثام اخترع حساباً أخلاقياً يتيح قياس الخير والشر.

لقد أبدع، في العام 1787، تصميم السجن الكامل. وأطلق عليه تسمية بانوبتيك. إنه دائرة كبيرة من الزنازين، مصفوفة على شكل سوار حول برج مركزي. ومن البرج، تراقب عين المراقب، أما المراقَبون فلا يستطيعون رؤية العين التي تراهم. ويمكن لمشروع السجن أن يستخدم أيضاً كمستشفى للمجانين، أو مصنع، أو ثكنة عسكرية، أو مدرسة.

في بلدان كثيرة في العالم، وضع موضع التطبيق، في السنوات التالية، هذا التصميم الهندسي للسلطة الذي وضعه بينثام «لمعاقبة من لا سبيل إلى إصلاحهم، ومراقبة المجانين، وإصلاح الفاسدين، وعزل المشبوهين، وجعل الكسالى يعملون».

وعندما توفى، أُنجزت رغبته الأخيرة. فقد جرى تحنيط بينثام، مثلما أراد: جالساً على مقعده المعهود، مرتدياً السواد، وقبضة يده على العكاز. وهكذا استطاع مروض فوضى العالم هذا، أن يواصل، خلال سنوات طويلة، مراقبة اجتماعات مجلس إدارة اليونيفرستي كولج في لندن. ***حاضر ولكن لا يصوّت***. مثلما تبين محاضر تلك الجلسات.

الشيطان

في كولومبيا، يسميه العمال الزراعيون السيد شيطا. وهو يهدي إليهم مناجل ماتشيتي تقطع القصب من تلقاء نفسها، دون أن تعمل اليد. ويرافقهم في السُّكْر والقصف، فيقضون وقتاً رائعاً، ولا يشعرون برائحة الكبريت ولا بالخوف من الحكة.

وفي بوليفيا، يدعوه عمال المناجم **«العم»**، ومقابل السجائر والخمر، يقودهم في أحشاء الجبل، ويدلهم على أفضل عروق المعدن.

وفي الأرجنتين، تكون أراضي الشمال له طوال فترة الكرنفال. وفي أربعاء الرماد، يتحرر المتشيطنون من شيطانهم، ويدفنون سيد الاحتفال الذي لا يشرب الماء أبداً، ويودعونه باكين حتى العام التالي.

وفي البرازيل، في احتفالات الفقراء، تدعو الطبول هذا الضيف الخاص، المنتقم للمهانين، هذا الشخص سيئ السمعة؛ وترجوه أن يتلطف بالإقدام على شَرِّ المجيء للعيش في العالم، فهو مثل الجحيم، ولكن مناخه أفضل.

الخير

لقد صار قديساً، بل أقرب إلى ملاك. إنه خوسيه ماريا إسكريبا دي بالاغيير، الذي يسهر علينا في السماء.

في الحياة، دعا عبد الرب الورع هذا إلى محبة الحرب، وندد بالحمر والمتهتكين، وكره الشاذين جنسياً واليهود، وازدرى النساء، وأسس الأبوس دي[1].

وقبل أن يجعل منه البابا قديساً، كان الجنراليسمو فرانكو قد جعل منه مركيزاً، اعترافاً منه بخدماته. وبينما كان فرانكو يقضي على الجمهورية الإسبانية ويبيد الهراطقة، كان إسكريبا يرتل له أناشيد المديح ويحرس سلام روحه.

---

[1] الأبوس دي Opus Dei: باللاتينية في الأصل، وتعني «الخيار الإلهي»، وهو اسم حزب ديني يميني إسباني، تأسس في الخمسينات.

وفي الطريق إلى النعمة الربانية، حقق العديد من المعجزات.

أشد معجزاته إثارة للدهشة، حدثت عام 1996. كان إسكريبا متوفياً آنذاك، دون أن يكون قد صار قديساً بعد، ولكنه كان قد باشر التدخل في هذه الأمور، فكان يهرع من السماء لمد يد العون لضحايا انعدام الأمن المديني. ففي غوادالوبي، بالمكسيك، تضرع متدين ورع إلى رسم له، طالباً المساعدة، وفي اليوم التالي ظهرت شاحنته التي كان اللصوص قد سرقوها. وبعد وقت قصير من ذلك، صلت له بعض الراهبات تاسوعاً في ميلان، بإيطاليا، فعادت بمعجزة، إلى أصحابها، ست سيارات مسروقة، آخر موديلات ماركات مشهورة.

المحترف

كان عماد بيته، سند أمه، درع أخواته.

في عمق البيت، في نهاية الممر، هناك مذبح مكرس للسيدة العذراء. ومن هناك كان يأخذ رصاصاته، رصاصاته المصلى عليها، والمغطسة في جفنة الماء المبارك، ويعلق الكتفية على صدره، قبل أن يغادر لينجز العمل. وتظل هناك الأم والشقيقات، مسمرات على ركبهن قبالة المذبح. يقضين ساعات وساعات وهن يعددن خرزات المسابح، ويتوسلن مساعدة صغيرة من سيدة المعجزات، لكي يكتمل عمل الفتى على ما يرام.

أعماله منحته شهرة واحتراماً في شوارع كورينتو، وفي قرى ومدن أخرى في وادي كاوكا. ولكن ليس في كولومبيا بأسرها، لأن المنافسة كانت واسعة.

عاش على قتل الناس بالرصاص، وبالرصاص مات.

وباستثناء الرصاصات الأربع التي أطلقها على زوجته، لشأن خاص به، كان يقتل على الدوام لحساب آخرين. قتل بتكليف من رجال أعمال، وجنرالات، وورثة، وأزواج.

وكان يقول:

- لا يسيئن أحدٌ الظن بي. فأنا أفعل ذلك من أجل المال.

محترف آخر

الجنرال أرتورو دوراثو، وكان يقود الشرطة المكسيكية، كان يقبض في نهاية كل شهر رواتب ألفي شرطي ممن ماتوا أو ممن لم يولدوا قط. وكان يتقاضى كذلك عمولة عن كل غرام كوكائين أو هيروين يمر عبر البلاد؛ ومن يتظاهر بالغفلة يدفع بضاعته أو حياته ثمناً لذلك. ومن أجل مضاعفة موارده، كان قائد الأمن العام يبيع كذلك رتب الضباط، بمليون ونصف مليون بيزو رتبة الكولونيل؛ ولكنه يهدي رتبة كابتن للمغنين الذين يروقونه.

في عام 1982، تلقى لقب دكتوراه الشرف، وعرضته الصحف وهو يرتدي الرداء والقلنسوة الجامعيين.

في أثناء ذلك، وبمدخرات حياة كاملة مكرسة للعمل، تمكن الجنرال دوراثو من تحقيق حلم امتلاك بيوت خاصة. فكان له عدد من البيوت في مكسيكو والعالم. من بيوته المكسيكية، هناك واحد يزهو بأثاث فرنسي، وآخر فيه مضمار خيول إنكليزي، ومرقص نيويوركي، وآخر يحاكي شاليهات جبال الألب، ولا يمكن أن تغيب نسخة مطابقة تماماً للبارثينون، مع مسبح في الوسط.

انتهى سجيناً، بسبب المبالغة.

للتفوق في الحياة

في العام 1999، حسب ما أفادت به صحيفة ***ذي تايمز أوف إنديا***، كانت مؤسسة تعليمية جديدة قد بدأت عملها بنجاح في مدينة مزارفارناغر، غربي ولاية يوتار براديش.

هناك يُقدَّم للمراهقين تأهيل متخصص. أحد المديرين الثلاثة، المربي سيوشيل موتش، يتولى مسؤولية الصف الأكثر تعقيداً، وهو يتضمن، فضلاً عن مواد أخرى، عمليات الاختطاف، والابتزاز، والقتل. أما المديران الآخران فيهتمان بمواد أكثر تقليدية. وجميع المستويات

تتضمن أعمالاً عملية. فعلى سبيل المثال، من أجل تعليم السرقة من الحافلات على الطرق العامة، يلقي الطلبة المتريصون جسماً معدنياً على السيارة التي يختارونها: الصدمة توقف السائق المتفاجئ، وعندئذ تبدأ عملية السطو التي يشرف المربي على مراقبتها.

هذه المدرسة ظهرت استجابة لإحدى حاجات السوق، ولإنجاز وظيفة اجتماعية. وكما أوضح مسؤولو المؤسسة، فإن السوق تتطلب كل يوم مستويات أعلى من التخصص في هذا الميدان من الإجرام، والتربية الإجرامية هي التأهيل المهني الوحيد الذي يمكن له أن يضمن للشباب عملاً دائماً وجيد الدخل.

لقد سبب لي الخبر القلق. فمنذ أن قرأته، بقيت أفكر في المسألة. كم من معلمي المدارس التقليدية يمكن لهم أن يعيدوا تأهيل أنفسهم للتلاؤم مع متطلبات الحداثة هذه؟

المتسولون

من أجل الفوز في الحياة، المتسولون أيضاً يدرسون.

فبرصد ما يعرضه التلفزيون، في البارات وواجهات المحلات، يتلقى المتسولون دروساً من معلمي المهنة. فعلى الشاشة الصغيرة، يحضرون دروساً يلقيها الرؤساء الأمريكيون اللاتينيون الذين يمدون قبعاتهم في المؤتمرات الدولية، ويمارسون فن التسول في رحلات حجهم الدورية إلى واشنطن.

وهكذا، يتعلم المتسولون أن الحقيقة ليست مؤثرة ولا فعالة. فمحترف جيد لا يطلب أبداً منحه قطعة نقدية ليشرب نبيذاً. لا، لا: إنه يمد يده متوسلاً المساعدة كي يأخذ أمه المريضة إلى المستشفى، أو ليدفع ثمن نعش ابنه الصغير الذي مات للتو، بينما يعرض في اليد الأخرى الوصفة الطبية أو شهادة الوفاة.

ويتعلم المتسولون أنه لا بد من تقديم شيء أيضاً مقابل الصدقة. هؤلاء وطنهم الشارع، لا يملكون بلاداً؛ لا وجود لديهم لأرض ولا باطن

أرض، ولا مؤسسات عامة يمكنهم تسليمها. ولكنهم يستطيعون مكافأة الصدقة بمكان صغير في عالم الغيب، وهذا ما يفعلونه:

- لا تدفعني إلى السرقة.. يسوع أيضاً تسول، هذا يقوله الكتاب المقدس.. فليكافئك الرب.. ليحفظك الرب في فردوس المجد.. حضرتك تستحق الجنة...

زي العمل

بعد مئة وخمس وثلاثين سنة من موته، كان أبراهام لينكولن يجوب شوارع بالتيمور، وأنابوليس ومدن أخرى من ولاية ميرلاند.

يدخل لينكولن إلى أي متجر. يلمس طرف قبعته العالية، وينحني انحناءة احترام خفيفة. ويدرس المشهد بعينيه الكئيبتين المعروفتين، بينما هو يحك لحيته الشهباء التي بلا شارب، ثم يُخرج بعد ذلك من سترته الطويلة السوداء مسدس ماغنوم 357. وبأسلوبه المباشر كرجل يتجه إلى جوهر الأمور مباشرة، دون لف ولا دوران، يقول:

- صندوق نقودك أو حياتك.

خلال شهر أيار سنة 2000، سطا كيفن جيبسون على أحد عشر متجراً، وهو متنكر طوال الوقت بزي أبراهام لينكولن، إلى أن ألقت الشرطة القبض عليه وزجت به في السجن.

جيبسون يقبع في السجن منذ ذلك الحين. ولديه حكم بالسجن لوقت لا بأس به. وهو يسأل: لماذا. ألا يتنكر أشد السياسيين نجاحاً بزي لينكولن، ليفعلوا الشيء نفسه تقريباً؟

السارق المسروق

في أميركا اللاتينية، كانت الدكتاتوريات العسكرية تحرق الكتب الهدامة. والآن، في الديمقراطية، يجري إحراق دفاتر الحسابات. وكانت الدكتاتوريات العسكرية تخفي آثار الناس. أما

الدكتاتوريات المالية، فتخفي آثار الأموال.

في يوم من الأيام، رفضت بنوك الأرجنتين إعادة الأموال إلى المدخرين.

كان نوربيرتو روغليتش قد خبأ مدخراته في المصرف، كيلا تأكلها الفئران ولا يسرقها اللصوص. وعندما سطا عليه المصرف، كان دون نوربيرتو مريضاً جداً، لأن السنوات لا تتوالى وحدها، والمعاش التقاعدي لا يكفي لدفع ثمن الأدوية.

وهكذا لم تبق أمامه وسيلة أخرى: ففي يأسه، دخل إلى القلعة المالية، ودون أن يطلب إذناً من أحد، شق طريقه إلى مكتب المدير. وكان يشدّ، في قبضته، على رمانة يدوية:

- إما أن تعيدوا إليّ نقودي أو نطير جميعنا معاً.

الرمانة اليدوية كانت لعبة، ولكنها حققت المعجزة: فقد سلمه المصرف النقود.

بعد ذلك، اقتيد دون نوربيرتو سجيناً. طلب المدعي العام من ثماني إلى ست عشرة سنة سجناً. له، وليس للمصرف.

الشرطي سجيناً

لكي تكون التلميذة المثالية، التي تنجز واجباتها على أفضل وجه، لم تتورع الأرجنتين عن أن تبيع حتى أسود حديقة الحيوان وبلاط الأرصفة، وكانت مدينة لكل قديس بشمعة. عندئذ، في بدايات 2003، أرسل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي اللذان ساهما كثيراً في إفراغ أحشاء البلاد، أرسلا بعثة لمراجعة الحسابات.

أحد أعضاء هذه الشرطة المالية، المدعو جورج باكا كامبودونيكو، كان آتياً ليتولى مراقبة التهرب من الضرائب. لقد كان خبيراً بالموضوع. يعرف الكثير عن أساليب التحايل لأنه كان معتاداً على اقترافها. ما إن حطت به الطائرة في بوينس آيرس، حتى اقتاده الإنتربول سجيناً.

هذا الموظف كان مطلوباً القبض عليه.

أما أسياده، فلا.

لصوص الكلمات

حسب معجم زماننا، لم تعد ***الأسهم الطيبة*** تعني الإشارات التي يبعث بها القلب، وإنما الأسهم التي تقيّم جيداً في البورصة، والبورصة هي المكان الذي تحدث فيه ***أزمات القيمة***.

السوق لم تعد المكان الحميم الذي يشتري منه أحدنا الفواكه والخضار في الحي. فكلمة ***السوق*** تطلق اليوم على سيد مخيف بلا وجه، يدعي أنه سرمدي ويراقبنا ويعاقبنا. ومترجموه يعلنون: ***السوق هائجة***، ويحذرون: ***يجب عدم تهييج السوق***.

المجتمع الدولي هو اسم كبار المصرفيين والقادة العسكريين. خطط مساعداتهم تبيع أطواق نجاة من الرصاص الثقيل للبلدان التي يغرقونها هم أنفسهم، و***بعثات السلام*** التي يرسلونها تشيع السلام بين الموتى.

وزارة شن الحروب في الولايات المتحدة، تسمى ***أمانة الدفاع***، وتُطلق تسمية ***عمليات القصف الإنسانية*** على سيول الصواريخ ضد العالم.

أقرأ على جدار، ما كتبه أحدهم، ما كتبناه جميعنا: «***أنا يؤلمني صوتي***».

أحجيات

يزقزق الأطفال والصيصان في ما حول دونيا ماريا دي لوس ميرثيدس مارين، التي تقاقي بينما هي تمشي وتلقي حبوب الذرة لدجاجاتها الكثيرات. كانوا على تلك الحال في ذلك اليوم، مثلما هي الحال كل يوم، عندما ظهرت سيارة لامعة وسط سحابة غبار، على الطريق القادم من سانتو دومنغو.

ودون أن يحيي، ودون أن يقدم نفسه، سأل السيد ذو البدلة وربطة العنق والحقيبة دونيا ماريا دي لوس ميرثيديس:

- إذا ما أخبرتك كم هو عدد دجاجاتك بالضبط، هل تعطينني واحدة منها؟

لم تقل هي أي شيء.

شغّل السيد كومبيوتره البنتيوم III، سرعة 600 ميغاهرتز، وشغل نظام الـ GSP، نظام ياهو للصور الفضائية وفي الحال أعلمه الكمبيوتر:

- *أنت تملكين مئة ودجاجتين* – ثم اختطف واحدة منها وأمسك بها بين ذراعيه.

فسألته دونيا ماريا دي لوس ميرثيدس:

- *إذا ما أخبرتك في أي مجال تعمل حضرتك، هل تعيد إليّ الدجاجة؟*

ابتسم السيد:

- بالطبع.

ولكن الابتسامة تلاشت عن شفتيه عندما حزرت هي، دون أدنى تردد، أنه خبير من إحدى المنظمات الدولية.

- *كَـ... كيف عرفتِ ذلك؟* - تلعثم وهو يضع الدجاجة على الأرض.

فأوضحت له أن الأمر سهل جداً. فقد جاء دون أن يستدعيه أحد، واندس في قن دجاجاتها دون إذن، وأخبرها بشيء هي تعرفه من قبل، وتقاضى أجراً مقابل ذلك.

سلب ونهب

الكلمات تفقد معناها، بينما يفقد البحر لونه الأخضر والسماء لونها الأزرق اللذين لونتهما أجيال من الطحالب البحرية وهي تطلق الأوكسجين طوال ثلاثة آلاف مليون سنة.

والليل يفقد نجومه. وهناك ملصقات احتجاج معلقة في مدن العالم الكبرى:

إنهم يحولون دون أن نرى النجوم.

التوقيع: *الناس.*

وفي القبة السماوية ظهرت ملصقات كثيرة تعلن:

إنهم يحولون دون أن نرى الناس.

التوقيع: *النجوم.*

حالة عادية جداً

بسنوات عمرها، كانت دونيا تشيلا مونتي على الحد بين الأرض والسماء، وأقرب إلى القيثارة مما هي إلى الجيتار.

وابنها هوراسيو كان يعرف ذلك، ولكنه أصيب بالرعب عندما رآها. كانت عيناها تدوران، وقلبها يختنق، ويداها ترتجفان. وبالهواء القليل المتبقي لديها استطاعت دونيا تشيلا أن تدمدم:

- *لقد سطوا عليّ.*

وعندما سألها هوراسيو عن الأشياء التي سرقوها، استعادت على الفور الرؤية، والتنفس والنبض. والنطق كذلك، وقالت بسخط:

- أشياء؟ أنت تعرف جيداً أنه لا وجود هنا لأي شيء. وما هي الأشياء التي يمكن لهم أن يأخذوها؟ فأنا سأمضي بما أرتديه، عندما يستدعيني الرب.

ووضعت النقاط على الحروف:

- ***لم يسرقوا أشياء، لا. اللصوص سرقوا مني الأفكار.***

الذاكرة المسروقة

في 1921، انتفض عمال المراعي في باتاغونيا مضربين. عندئذ اتصل أصحاب مزارع تربية الماشية بالسفير البريطاني الذي اتصل بالرئيس الأرجنتيني الذي اتصل بالجيش.

وبرصاص الرشاشات، أنهى الجيش الإضراب والمضربين أيضاً. أُلقي العمال في قبور جماعية في المزارع؛ وفي الموسم التالي لم يكن قد بقي هناك من يعرف كيف يجز صوف الأغنام.

الكابتن بيدرو بينياس إيبارّا قاد العمليات في إحدى مزارع تربية الماشية. وبعد نصف قرن من ذلك، عندما كان الكابتن قد صار كولونيلاً متقاعداً، تحدث معه أوسفالدو بايير. وسمع القصة الرسمية:

- *آه، أجل* - تذكر العسكري - *مزرعة آنيتا. تلك المعركة.*

أراد بايير أن يعرف لماذا خلّفت تلك المعركة ستمئة قتيل من العمال،

دون أن يُقتل أو يُجرح أو يتأذى أحد من الجنود.

فأوضح له ذراع النظام المسلح بلطف:

- الريح هي السبب. نحن كنا في جهة هبوب الريح. ولهذا لم تكن طلقاتنا تنحرف. أما طلقاتهم، المعاكسة للريح، فكانت تنحرف.

الذاكرة المقارنة

في 1839 ، اشترى السفير الأميركي في هندوراس، جون لويد ستيفنس، مدينة كوبان الأثرية التي تعود إلى أزمنة المايا ، اشتراها بآثارها وآلهتها وكل ما فيها ، بخمسين دولاراً.

في 1892 ، على مقربة من نيويورك، باع زعيم من السكان الأصليين، من هنود إروكي، أربعة أحزمة مقدسة تحتفظ بها قبيلته منذ الأزل. ومثل الآثار المنتصبة بين آجام كوبان، كانت تلك الأحزمة الصدفية تروي القصة الجماعية. لقد اشتراها الجنرال هنري ب. كارينغتون بسبعة وخمسين دولاراً.

من أجل تبييض جمهورية الدومينيكان، عمد الجنرال رافائييل ليونيداس تروخييو إلى قتل ثمانية عشر ألف زنجي في العام 1937. وكانوا جميعهم من الهايتيين، مثل جدته لأمه. وقد دفع تروخييو إلى حكومة هايتي تعويضاً بلغ تسعة وعشرين دولاراً للقتيل الواحد.

في العام 2001، وبعد عدة محاكمات على جرائمه، انتهى الجنرال التشيلي أغسطو بينوشيت إلى دفع غرامة مقدارها ثلاثة آلاف وخمسمئة دولار. بمعدل دولار واحد عن كل قتيل.

الذاكرة المحروقة

في العام 1499 ، في غرناطة، ألقى الأسقف ثيسنيروس إلى النار الكتب التي تتحدث عن ثمانية قرون من الثقافة الإسلامية في إسبانيا ، بينما كانت تحترق، في الوقت نفسه، ثلاثة قرون من الثقافة اليهودية

في محارق محاكم التفتيش.

في العام 1562 ، في يوكاتان، أرسل الراهب دييغو دي لاندا إلى المحارق ثمانية قرون من آداب المايا.

كانت هناك حرائق سابقة في العالم، ذاكرات أُلقي بها إلى النار، وحرائق كثيرة أخرى تالية.

في العام 2003، عندما أنهت القوات الغازية احتلال العراق، طوّق المنتصرون بالدبابات والجنود آبار النفط، واحتياطيات النفط، ووزارة النفط. وكان الجنود، بالمقابل، يصفرون وينظرون في اتجاه آخر، عندما أُفرغت كل المتاحف، وسرقت كتب ألواح الطين المشوي التي تروي أول الأساطير، وأول القصص، وأول الشرائع المكتوبة في العالم.

وبعد ذلك مباشرة، أُحرقت الكتب الورقية. اشتعلت مكتبة بغداد الوطنية، وتحول أكثر من نصف مليون كتاب إلى رماد. كثير من أول الكتب المطبوعة باللغة العربية وباللغة الفارسية ماتت هناك.

تقاليد

كان يشكل وجع رأس لأسرته، وأسوأ تلميذ في صفه. وكان يبدو أنه لا مخرج من ذلك الوضع المخجل، إلى أن أقام أبو التلميذ الخائب مأدبة للمعلم. وبعد ليلة طويلة من المدائح وكرم الضيافة، من اللذائذ للأذن والفم، رجع المعلم إلى بيته محملاً بالهدايا. وفي اليوم التالي، تحول أسوأ طالب إلى أفضل تلميذ.

هذه القصة، بكلمة زائدة أو كلمة ناقصة، رُويت قبل أكثر من أربعة آلاف سنة، تدلل على أن الرشوة هي واحدة من أقدم عادات الحضارة.

لقد اكتُشفت القصة على ضفاف نهر الفرات. رواها السومريون، برموز تشبه آثار قوائم العصافير، مرسومة بقصبة مدببة على واحد من آلاف ألواح الطين التي اختفت من متحف بغداد.

الرائد

اختراعات كبرى للإنسانية: ليس معروفاً من الذي اخترع العجلة التي تحرك العربات والآلات، إنما معروف اسم مخترع العجلة التي تحرك الاقتصاد. إنه ماركو ليشنيو كراسو، المولود سنة 115 قبل الميلاد.

إنه من اكتشف أن حيوية السوق تعتمد على التحفيز المشترك للعرض والطلب على الثروات والخدمات.

وليضع قانون الدارة الاقتصادية هذا موضع التطبيق، أسس شركة في روما.

وهكذا ولدت أول شركة خاصة للإطفاء.

وقد لقيت نجاحاً كبيراً.

فالسيد ماركو ليشنيو كان يُشعل الحرائق، ثم يتقاضى أجر إطفائها بعد ذلك.

رائد آخر

بيبي آرياس هو مؤسس أول شركة افتراضية. فقبل نصف قرن من ولادة التجارة *أون لاين* ومؤشر ناسداك، عرض هو للبيع أرضاً من أربعة آلاف متر مربع، في وسط مدينة بوينس آيرس.

وكان بيبي يستقبل الراغبين في الشراء وعقد البيع في يده، جاهز للتوقيع. يستقبلهم واقفاً، لأن المكان لا يتسع ولو لإدخال كرسي واحد.

فكانوا يسألونه:

- *أين هي هذه الأرض؟*

- *هنا.*

- *ماذا؟*

- *أجل يا سيدي* - يوضح لهم بيبي وهو يرفع ذراعيه نحو السماء - *إنها أربعة آلاف متر مربع، ولكن إلى أعلى.*

قدوة

عندما كانت نهاية الألفية تقترب، نشرت صحافة الأروغواي سيرة حياة مواطن ناجح، يتألق بضوئه الخاص في سماوات الإنترنت. وقد كان عابراً جداً تألق نجمنا في الفضاء السيبرنيكي؛ ولكن، خلال تألقه، حثنا رئيس البلاد على أن نقتدي جميعنا بنموذجه.

رجل الأعمال المثالي هذا، كان منذ صغره طفلاً معجزة. ففي السادسة من عمره، كان يؤجر ما لديه من ألعاب لأصدقائه في الحي، بتعرفة محددة في الساعة أو اليوم. وعند بلوغه العاشرة، كان قد أسس شركة تأمين ومصرفاً: فهو يؤمّن على اللوازم المدرسية ضد السرقة والحوادث، ويقرض نقوداً، مقابل معدل فائدة معقول، لزملائه في المدرسة.

تكنولوجيا مدهشة

منذ نصف قرن تقريباً جاء ليفي فريزتاف إلى باتاغونيا.

جاء مصادفة أو فضولاً. وبينما هو يجوب هذه الأراضي وهذه الأجواء، اكتشف أن أبويه قد أخطأا الخريطة. وبقي هناك إلى الأبد.

كان حديث الوصول عندما حصل على عمل في مشروع زراعة مائية. إذ إن دكتوراً من المنطقة، كان قد قرأ، في مجلة ما، عن هذه الطريقة الجديدة في الزراعة، وصمم على وضعها موضع التنفيذ.

صار ليفي يحفر، يثبت، يتعرق وهو يركّب، يوماً بعد يوم، البنية المعقدة من الزجاج، والحديد، والأنابيب المتحولة إلى قنوات، والضرورية لزراعة الخس في الماء.

وكان الدكتور يقول: إذا كانوا يفعلون هذا في الولايات المتحدة، فلا بد أن يكون هناك سبب، هذا مؤكد، لا مجال للخطأ، فهؤلاء الناس يمضون في طليعة الحضارة، والتكنولوجيا هي مفتاح الثروة، إننا متخلفون عدة قرون، وعلينا أن نركض لنجاري الزمن.

في تلك الأزمنة، كان ليفي لا يزال رجل إسفلت، من أولئك الذين يظنون أن

البندورة تولد في الطبق، ويصابون بالحول عندما يرون دجاجة نيئة تمشي على الأرض. ولكنه في أحد الأيام، بينما هو يتأمل اتساعات باتاغونيا الشاسعة، خطر له أن يسأل:

- اسمع يا دكتور. أيستحق العناء؟ أيستحق ما نفعله العناء، مع وجود كل هذه الأراضي الشاسعة؟

ففقد عمله.

عروض

إنه يشبه كارلوس غارديل، ولكن بعد أن سقطت به الطائرة. كان يسعل، يضبط عقدة المنديل الذي يحمي حنجرته، وقد كان منديلاً أبيض في أحد الأيام.

كان يصيح بصوت مبحوح:

- أنا لا أبيع شيئاً!

كان يقف فوق مقعد، قبالة مبنى صندوق التقاعد في مونتيفيديو. وكان يحمل بين يديه علبة من الكرتون، مربوطة بأشرطة مهلهلة مثله.

دنا منه بعض الفضوليين. إنهم مسنون جميعهم، أو مسنون جداً. ودس أنفه كذلك بيبي برينتوس الذي يقضي الوقت متجولاً في المدينة. وشيئاً فشيئاً، راح الفضوليون يشكلون حشداً.

وكان الرجل يردد:

- أنا لا أبيع شيئاً!

وعندما حانت اللحظة، رفع علبة الكرتون عالياً بحركة تفخيم، وعرضها أمام السماء.

- أنا لا أبيع شيئاً، أيها السيدات والسادة! لأن هذا... هذا ليس له ثمن!

تزاحم المسنون، متلهفين، بينما تلك أصابعه المعروقة تفك، ببطء شديد، بشح عاشق يريد إطالة المتعة، الأشرطة التي تربط السر الغامض.

وفُتحت العلبة.

وكانت فيها قطع سوليفان ملونة، مربوطة على شكل فراشات.

كل قطعة سوليفان هي تبديل حياة. كانت هناك تبديلات خضراء، زرقاء، بنفسجية، حمراء، صفراء...

وصاح المنادي بصوته المبحوح:

- مثلما تشاء حضرتك! ادفع ما تستطيع دفعه، وخذ حياة جديدة! إنها هدية أيها السيدات والسادة! أقل من ثمن زجاجة نبيذ لا تجلب لكم إلا السمّ والسجن ومستشفى المجانين...!

تسويق

كان سليم هراري يحتفظ على الدوام بمسحوق فلفل حار في متناول يده، وهو سلاح شرقي مؤكد لقذفه نحو عيون اللصوص. ولكن، حتى اللصوص لم يكونوا يدخلون. فمتجر «*ليندا ليندا*» كان مقفراً من الزبائن مثلما هي مقفرة بطون أبنائه التسعة.

لم يستسلم سليم للهزيمة قط، منذ مجيئه من دمشق البعيدة ليبيع أقمشة في مدينة رافائيلا. فإذا لم تطرح شجرة الليمون ثماراً، فإنه يعلق حبات ليمون على الأغصان. وإذا لم يظهر أي زبون، فإنه يلقي بأمتار وأمتار من القماش من الشرفة:

- هنا نهدي كل شيء.

تأتيه أخبار عن غرق سفينة في نهر بارانا فيبلل أقمشة الساتان والكتان بالماء، ويعرضها منادياً:

- الأقمشة المستخرجة من السفينة الغارقة!

ولكن دون جدوى. لم تكن هناك طريقة نافعة. فالناس يمرون وينظرون إلى جهة أخرى.

طويلاً كان زمن الانتظار، وكل يوم يمر أسوأ من السابق وأفضل من التالي، إلى أن أضيء المصباح السحري لسليم في إحدى الليالي وهو نائم.

استيقظ مصمماً على أن يتقاضى رسم دخول. فلا بد من دفع رسم دخول من أجل التعرف على متجر «*ليندا ليندا*». ومن لا يدفع لا يدخل.

عندئذ تبدل حظه. فالقرية كلها اصطفت في الدور.

المصرفي المثالي

جون بيربونت مورغان الابن، كان يملك أكبر بنوك العالم سطوة، وثماني وثمانين شركة أخرى. وبما أنه كان مشغولاً جداً، فقد نسي أن يدفع ضرائبه.

لم يدفع طوال ثلاث سنوات، منذ اندلاع أزمة 1929. وعندما عُرف الأمر، تأجج غضب الجموع المفلسة في كارثة وول ستريت، وانفلتت فضيحة في البلاد.

من أجل تجميل صورة المصرفي المتلاعب، لجأ رجل الأعمال إلى خبير العلاقات العامة في سيرك رينغلين براذرز.

نصحه الخبير بالتعاقد مع أعجوبة طبيعية تدعى ليا غراف، وهي امرأة في الثلاثين، طول قامتها ثمانية وستون سنتمتراً، ولكن لا وجود في وجهها أو جسدها لما يشير إلى أنها قزمة.

وهكذا أطلق حملة دعائية ضخمة، مركزة على صورة. الصورة تُظهر المصرفي جالساً على عرشه، بوجه أب طيب، مع تلك المخلوقة البشرية المصغرة، جالسة على ركبتيه. رمز السلطة المالية يوفر الحماية للجمهور الذي انكمش بسبب الأزمة الاقتصادية: كانت هذه هي الفكرة.

ولكنها لم تنفعه.

درس في الاقتصاد السياسي

أنغام الأرغن كانت تعلن عن أن بائع رقائق البسكويت قد جاء إلى الحي. إنها مصنوعة من قمح وهواء، ومن موسيقى أيضاً، تلك الرقائق المقرمشة التي تجعل لعابنا يسيل.

كمية الرقائق تعتمد على الحظ. فمقابل قطعة نقد، تدير قرصاً، إلى أن تشير الإبرة إلى رقم الحظ: من الصفر حتى العشرين، إذا لم تخني الذاكرة. فتتلقى لا شيء أو قليلاً أو كثيراً أو قطعة بسكويت واحدة.

لن أنسى أبداً المرة الأولى. دفعتُ قطعتي النقدية، ورفعتُ نفسي على

رؤوس أصابعي، وأدرتُ القرص. وعندما توقف القرص، تمكنتُ من رؤية الإبرة تشير إلى الرقم عشرين. عندئذ دسّ بائع البسكويت إصبعه، وقرر:

ـ **صفر.**

لم يُجدِ اعتراضي.

لقد كنت قادراً في ذلك الحين على العدّ حتى عشرين بمساعدة يدي الاثنتين، ولكنني لم أكن أعرفُ ذرَّةً واحدة من الاقتصاد السياسي.

وكان ذاك هو درسي الأول.

العامل المثالي

مغلى الشراب «Z» ليس حدثاً تكنولوجياً جديداً في عصر عولمة الشغل، وإنما هو سر قديم في التقاليد الهايتية.

وهو يستخدم كما يلي:

في الليل، تغرس النحلات المغذاة بالشراب «Z » إبرها في جسد شخص نائم.

في الصباح، لا يتمكن الشخص الملقح من النهوض.

وعند الظهر، ينطفئ كشمعة.

وعند العصر، يحمله أحباؤه، على حمالة، إلى المقبرة.

وعند منتصف الليل، يفتح الميت قبره ويعود إلى الدنيا.

العائد، المتحول إلى «زومبي»، يكون قد فقد العاطفة والذاكرة. يعمل بلا مواعيد ثابتة ولا أجر، يطحن قصب السكر أو يبني جدراناً أو يحمل حطباً، عيناه شاردتان، وفمه صامت: لا يتذمر ولا يشكو أبداً، ولا يطالب بشيء، بل إنه لا يريد شيئاً.

المرأة المثالية

عاشت منصاعة للأوامر التوراتية والتقاليد التاريخية.

إنها تكنس، تلمعِ، تُصوبن، تمسح، تكوي، تخيط، تطبخ.

في الثامنة صباحاً بالضبط، تُقدم الفطور، مع ملعقة عسل من أجل

الحرقة الأبدية في حنجرة الزوج. وفي الثانية عشرة بالضبط، تقدم الغداء: مرق لحم وخضار، بوريه بطاطا، فروجاً مسلوقاً، دراقاً بالقطر. وفي الثامنة مساء بالضبط، تقدم العشاء، بترتيب قائمة الطعام نفسها.

لم تتأخر يوماً قط، ولم تتقدم. تأكل بصمت، لأنها ليست امرأة رأي ولا تساؤلات، بينما الزوج يعدد مآثره الحالية والسابقة.

بعد العشاء، تتأخر في غسل الأطباق ببطء، وتندس في الفراش متضرعة إلى الله أن يكون قد نام.

في أثناء ذلك، كانت قد شاعت الغسالة، والمكنسة الكهربائية، واللذة الجنسية الأنثوية، التي جاءت بعد قليل من البنسلين؛ ولكنها لم تكن تعرف شيئاً عن هذه المستجدات.

إنها تستمع إلى المسلسلات الإذاعية وحسب، ونادراً ما تخرج من الملجأ الآمن الذي تعيش فيه بمنجى من عنف العالم.

ذات عصر خرجت. ذهبت لزيارة أخت لها مريضة.

حين رجعت، عند الغروب، وجدت الزوج ميتاً.

بعد سنوات من ذلك، اعترفت المتفانية بأن نهاية القصة لم تكن هكذا بالضبط.

روت النهاية الأخرى لجار يدعى خيراردو مينديفي، رواها بدوره لجار، وهذا رواها لجار آخر رواها بدوره لآخر: حين رجعت من بيت أختها، وجدت الزوج مطروحاً على الأرض، يلهث، يَحْوِلُ عينيه، ووجهه بلون البندورة، مرت بجانبه دون مبالاة، دخلت إلى المطبخ، وحضَّرت مأدبة لا تنسى من حبَّارٍ بحبره، وسمك النازليّ على الطريقة الباسكية، مع حلوى مزينة ببرج عالٍ من الفواكه والمثلجات، وضمخت ذلك كله بنبيذ معتق كانت تخبئه، وفي الساعة الثامنة بالضبط، مثلما هو واجبها، قدمت العشاء، أُتخمت بالأكل والشرب، ثم تأكدت من أنه قد خمد نهائياً على الأرض، فرسمت إشارة الصليب، وارتدت السواد، واتصلت هاتفياً بالطبيب.

الرياضي المثالي

البطولة العالمية بكرة القدم التي جرت في آسيا، عام 2002، كانت اثنتان. في إحداهما لعب الرياضيون الذين من لحم وعظم. وفي الأخرى، وجرت في الوقت نفسه، لعبت الروبوتات.

مباريات الروبوتات الدولية تجري، كل سنتين، في مكان مختلف. منظموها يأملون، من الآن وحتى بعض الوقت، في المنافسة ضد المنتخبات التي من لحم وعظم. وهم يقولون إن حاسوباً قد تمكن، في نهاية المطاف، من هزيمة البطل غاري كاسباروف على رقعة الشطرنج، ولا يكلفهم جهداً كبيراً تخيل أن يتوصل الرياضيون الآليون إلى تحقيق مأثرة مماثلة في ملعب لكرة القدم.

الروبوتات التي يبرمجها مهندسون، صلبة في الدفاع، وسريعة في الهجوم. وهي لا تتعب أبداً، ولا تعترض، ولا تلهو بالكرة: إنها تنجز، دون أن تتبس، أوامر المدير الفني، ولا تقترف في أي لحظة جنون الاعتقاد بأن اللاعبين يلعبون. وهي لا تضحك مطلقاً.

تتويج

لم تكونا بطولتين. بل كانت ثلاث بطولات. في العام 2002، كانت هناك بطولة عالمية ثالثة.

وقد تلخصت تلك البطولة في مباراة واحدة، دارت المنافسة فيها على قمم جبال هيمالايا، في الوقت نفسه التي تكرست فيه بطولة البرازيل في طوكيو.

لم يعلم بتلك البطولة أحد.

لقد راز فيها قوتهما أسوأ منتخبين في العالم، المنتخب الأخير والمنتخب قبل الأخير، دولياً، في رياضة الـ *ranking*: مملكة بوتان وجزر مونسرات الكاريبية.

وكانت الجائزة كأساً كبيرة مفضضة، تنتظر عند حافة الملعب.

اللاعبون، وليس بينهم أي لاعب مشهور، بل هم مجهولون جميعهم،

أمضوا وقتاً رائعاً، دون أن يكونوا مضطرين إلا إلى الاستمتاع كثيراً. وعندما أنهى الفريقان المباراة، انفتحت الكأس، وكانت ملصقة، إلى نصفين وذهبت مناصفة إلى كليهما.

كان منتخب بوتان قد كسب، ومنتخب مونسرات قد خسر، ولكن لم تكن لهذا التفصيل أدنى أهمية.

المعزي المثالي

إنهم – في البرازيل كما في كل مكان آخر- متشابهون في شيء ما: أوسع السياسيين شعبية، وأشهر المليونيرين، وأبطال كرة القدم، ونجوم التلفزيون، وعباقرة الموسيقى، جميعهم لديهم شيء مشترك: إنهم جميعهم بشر فانون.

جيمي سابينو درس جيداً هذه المسألة. وفي كل مرة يحمّ فيها القضاء على أحد المشهورين، يكون هو أول من يعلم بالخبر، وأول من يصل. فبسرعة الضوء، يهرع جيمي إلى مأتم المتوفى أو المتوفاة، أينما كان، منطلقاً من ضاحية ريو دي جانيرو، حيث يعمل موظفاً بائساً في مكتب حكومي.

- ***أنا آت لأمثل مئتي ألف من قاطني نيلوبوليس.*** وبقوله هذا، يجتاز دون عقبات كل نقاط المراقبة وكل أحزمة الأمن، لأنه يمكن لأي كان أن يوقف شخصاً بمفرده، ولكن ليس هناك من هو قادر على منع مئتي ألف شخص من المرور.

وعلى الفور، يحتل جيمي المكان المناسب في اللحظة المناسبة.

وفي اللحظة التي تضاء فيها كاميرات التلفزيون وتومض فلاشات المصورين، بالضبط، يكون هو حاملاً نعش الشخصية الوطنية المجيدة التي خلّفت فراغاً من المستحيل ملؤه، أو يظهر وهو يمط رقبته، واقفاً على رؤوس أصابع قدميه، بين أقرب الأقرباء والأصدقاء الحميمين. لم يكن وجهه الحزين يغيب عن نشرات الأخبار والصحف.

وكان الصحفيون يطلقون عليه لقب ***«ببغاء القرصان»***. بدافع الحسد.

المتوفاة الإعجازية

العيش هو عادة مميتة، وليس هناك من هو قادر على مخالفة ذلك، ودونيا أسونثيون غوتيريث ماتت أيضاً، بعد أكثر من قرن من الحياة.

أقارب وجيران سهروا حول جثمانها في ماناغوا. وكانوا قد تحولوا منذ بعض الوقت من البكاء إلى الاحتفال، وكانت الدموع قد أفسحت المجال لكؤوس الشراب والضحكات، عندما اعتدلت دونيا أسونثيون في التابوت، في أفضل ساعات الليل، وقالت آمرة:

- *أخرجوني من هنا، أيها البلهاء.*

وجلست لتأكل وجبة تامال، دون أن تولي اهتماماً لأحد.

وبصمت، راح المعزون ينسحبون. لم يعد هناك للحكايات من يحكيها، ولا لورق اللعب من يلعبه، وفقدت كؤوس الخمر ذريعة شربها. فلا ظرافة في سهر على ميت دون ميت. تفرق الناس في الشوارع الترابية، دون أن يدروا ما الذي يفعلونه في ما تبقى من الليل.

أحد أبناء أحفادها علق بسخط:

- *إنها المرة الثالثة التي تفعل بنا العجوز هذا.*

التضخم

كان نحيلاً في حياته، ولكنه صار بالوناً عند موته.

من أجل تسمير غطاء النعش، اضطر الأقارب جميعهم إلى الجلوس فوقه. وكان هناك تنوع آراء حول هذه السمنة المفاجئة:

- *الموت ينفخ.*

- *إنه غاز الفحم.*

- *إنه الخبث.*

- *إنها الروح* — انتحبت الأرملة — *الروح التي تريد الخروج من البدلة.*

البدلة، وهي من جوخ إنكليزي، كانت البذخ الوحيد في حياة المتوفى. لقد أوصى عليها، على مقاسه، ليرتديها عند موته. وعندما

صارت البوم تحوم قريباً منه، رأى أن النهاية قد أتت.

لم يخلّف ميراثاً. لا شيء. الأسرة التي عاشت على الدوام في فقر، لم تلحظ الفرق.

بعد سنوات طويلة، حضرت نيكولا دي ساباتو نقلَ رفات عمها.

لم يكن قد بقي سوى القليل من المتوفى: العظام والبدلة المهترئة مزقاً.

وكانت البدلة محشوة بكاملها بالنقود.

والأوراق النقدية، وهي ملايين كثيرة، لم تعد تنفع في شيء.

المرشح المثالي

لم يكن يبكي وهو يستذكر طفولته البائسة، ولم يكن يقبّل الأطفال، ولا يوقع أوتوغرافات، ولا تُلتقط له صور إلى جانب المقعدين. لم يكن يعد بشيء. ولم يفرض على الناخبين سماع خطب لا تنتهي. لم يكن ذا أفكار يسارية، ولا يمينية، ولا أفكار وسط كذلك. كان غير قابل للرشوة، يزدري المال، وإن كان يتلمظ أمام باقات الأزهار.

في انتخابات 1996، كان يتصدر استطلاعات الرأي. كان المرشح المفضل لمنصب عمدة قرية بيلار، وكانت شهرته تتزايد في منطقة شمال شرقي البرازيل بأسرها. فالناس الذين ملوا السياسيين الذين يكذبون حتى عندما يقولون الحقيقة، يثقون بهذا الشاب ثنائي الأصابع، الذي يسميه العامة «التيس»، ذي اللون الأبيض واللحية البيضاء. وفي تجمعاته الانتخابية، كان فيدريكو يرقص، منتصباً على قائمتين، ويقوم بحركات وقفزات تيسية مقنعة على أنغام الجوقة التي ترافقه في الأحياء.

عشية انتصاره، طلع عليه الصباح ميتاً. كانت لحيته حمراء بدم متيبس. لقد جرى تسميمه.

الصوت والفيتو

كانت سنة 1916 تنقضي، وهي سنة انتخابات في الأرجنتين.

وفي قرية كامبانا، كان التصويت يجري في الحجرة الخلفية من متجر المواد العامة.

كان خوسيه خيلمان، ومهنته نجار، هو أول القادمين، فسوف يصوت لأول مرة في حياته، وكان واجب المواطنة يملأ صدره بالاعتزاز. في ذلك الصباح كان سينضم إلى الديمقراطية هذا المهاجر القادم من الجانب الآخر للعالم، والذي لم يعرف شيئاً سوى الاستبداد العسكري في أوكرانيا البعيدة.

عندما كان خوسيه يُدخل صوته في الصندوق، مصوّتاً للحزب الراديكالي، شلّ يده صوت أجش:

- *لقد أخطأت في الاختيار* – حذره الصوت.

ومن خلال قضبان النافذة، أطلت فوهة بندقية. الفوهة أشارت إلى الكومة الصحيحة، حيث قوائم الحزب المحافظ.

ثمن الديمقراطية

دوريس هادوك، عاملة متقاعدة، مشت من لوس أنجلوس حتى واشنطن: كسلحفاة اجتازت الولايات المتحدة من شاطئ إلى الشاطئ الآخر.

سارت الطريق لتندد ببيع الديمقراطية إلى المليونيريين الذين يدفعون تكاليف حملات السياسيين الانتخابية؛ وفي طريقها، مرحلة بعد أخرى، كان الناس ينضمون إليها.

كانت قد أمضت أكثر من سنة وهي تمشي، مشوية بالشموس، مجمدة بالبرد، مطيّرة بالرياح، عندما حطت رحالها على جبال غرب فرجينيا.

في قرية كومبيرلاند، احتفلت دوريس بعيد ميلادها. تسعون شمعة. وواصلت الرحلة تزلجاً على الجليد.

ومتزلجة سافرت، عبر الثلوج، طوال الشهر الأخير.

وبينما كان القرن الحادي والعشرون يولد، وصلت إلى مدينة واشنطن. حشد من الناس رافقها حتى الكابيتول. هناك يعمل المشرعون، اليد العاملة للشركات الكبرى التي تجازي خدماتهم.

ومن فوق أدراج الكابيتول، ألقت دوريس خطبة مقتضبة. ومشيرة إلى أعمدة بوابة الكابيتول، قالت:

- ***هذا المكان آخذ بالتحول إلى بيت عاهرات.***

وغادرت.

الحضارة والبربرية

بينما الآلهة نيام أو يتظاهرون بأنهم نيام، الناسُ يمشون. إنه يوم سوق شعبي في هذه القرية الضائعة في محيط مدينة توتونيكابان، وهناك حركة واسعة. من قرى أخرى تأتي النساء، محملات بالحزم، عبر دروب خضراء. إنهن يلتقين في السوق، اليوم هنا، وغداً هناك، في هذه القرية أو في قرية أخرى، ويتبادلن الحديث، ببطء، ليطلعن على آخر الأخبار، بينما هن يبعن، قليلاً قليلاً، هذا الشيء أو ذاك.

سيدة عجوز تفرش منديلها على الأرض، وتعرض عليه ما لديها: أوراق الكوبال للتبخير، أصبغة النيلة والكوتشيتيّا، وبعض الفلفل الحار جداً، وأعشاب ملونة، وعلبة عسل بري؛ ودمية من خرق، وأخرى من صلصال ملون؛ أحزمة، أربطة، شرائط؛ عقود من بذور، أمشاط من العظم، مرايا صغيرة...

سائح، حديث الوصول إلى غواتيمالا، أراد أن يشتري منها كل شيء.

وبما أنها لا تفهم كلامه، يقول لها بيده: ***كل شيء***. فتهز هي رأسها رافضة. يلح عليها: أخبريني كم تريدين، وأنا سأخبرك بما أستطيع دفعه. ويكرر: أريد شراء ***كل شيء***. صوته يزداد قوة في كل مرة. يصرخ. أما هي، فتمثال جالس، صامت.

السائح الضجر، يذهب. ويفكر: ***هذه البلاد لن تتوصل أبداً إلى أن تصير شيئاً.***

وتنظر هي إليه يبتعد، وتفكر: ***أشيائي لا تريد الذهاب معك.***

سوق العولمة

أشجار بلون القرفة، ثمار ذهبية.

أيدٍ من خشب المهاغوني تلف البذور البيضاء بلفافات من أوراق خضراء كبيرة.

البذور تختمر تحت الشمس. وبعد ذلك، بعد إخراجها من لفافاتها، تجففها الشمس، في العراء، وتلونها ببطء بلون نحاسي.

عندئذ تبدأ بذور الكاكاو رحلتها عبر البحر الأزرق.

من الأيدي التي تزرعه حتى فم من يأكلونه، يعالج الكاكاو في مصانع كادبوري، أو مارس، أو نستله، أو هيرشي، ويباع في متاجر العالم. ومن كل دولار يدخل إلى الصندوق، تذهب ثلاثة سنتات ونصف السنت إلى القرى التي يأتي الكاكاو منها.

صحفي من تورينتو، اسمه ريتشارد سويفت، كان في واحدة من هذه القرى، في جبال غانا.

جاب مزارع الكاكاو.

وعندما جلس ليستريح، أخرج من جعبته بعض ألواح الشكولاته. وقبل القضمة الأولى، وجد نفسه محاطاً بأطفال فضوليين.

فهم لم يتذوقوا هذا الشيء قط. وقد فتنهم.

حكومة العولمة

مع غسق القرن العشرين، وغسق حياته، تحادث جوليوس نيريري مع المجتمع الدولي. أي أن مسؤولي البنك الدولي استقبلوه في واشنطن.

كان نيريري هو أول رئيس لتنزانيا، بعد نضال طويل ضد السلطة

الاستعمارية؛ وكان قد آمن بالاستقلال، وأراد له أن يكون أكثر بكثير من مجرد تحية للعلم.

- *لماذا أخفقتَ؟* - سأله كبار الخبراء الدوليين.

وأجاب نيريري:

- *الإمبراطورية البريطانية خلّفت لنا بلاداً الجميع فيها أميون تقريباً، وكان هناك مهندسان واثنا عشر طبيباً. وفي نهاية حكمي، لم يعد هناك أميون تقريباً، وكان لدينا آلاف المهندسين والأطباء. أنا تركت الحكومة سنة 1985. وقد انقضت منذئذ ثلاث عشرة سنة. والآن، تقلص عدد الأطفال كثيراً في المدارس، حوالي الثلث، وصارت الصحة العامة والخدمات الاجتماعية في الحضيض. لقد فعلت تنزانيا خلال هذه السنوات الثلاث عشرة، ما طلبه منها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي أن تفعله لتحديث البلاد.*

وأعاد جوليوس نيريري إليهم السؤال:

- *لماذا أخفقتم؟*

مسؤولية الرجل الأبيض

كان الكابتن ليون روم يجمعُ فراشاتٍ ورؤوساً بشرية. الفراشات يسمرها على الجدار. والرؤوس يعرضها في حديقته. ضابط آخر من القوات الاستعمارية، يدعى وليم فان كيركهوفن، كان ينافسه ويقول إنه أكبر خبير في قطع الرؤوس.

الكونغو، وهي أكبر بعشر مرات من بلجيكا، كانت ملكاً شخصياً للملك ليوبولد: مصدر عجيب للمطاط والعاج، ومشهد فسيح من العبيد المقيدين بالسلاسل، والمعرضين للجلد، والتقطيع، والقتل.

في العام 1900، دُعي الدبلوماسي الإنكليزي روجر كاسيمنت

لتناول الطعام في القصر الملكي في بروكسل. وبين طبق وآخر، تحدث الملك ليوبولد عن المصاعب الرهيبة التي تواجهها بعثته التمدنية في كل خطوة تخطوها. فقد كانت مأثرة كبيرة أن يُفرض نظام العمل على عرق أدنى، يجهل ثقافة العمل، تحت تلك الشمس الإفريقية التي تذيب الحجارة.

واعترف الملك أن رجاله، وهم رجال طيبو النوايا، يقترفون بعض التعسف أحياناً. ولكن الذنب في ذلك يقع على المناخ:

ـ فالحر الذي لا يرحم، يسبب لهم الجنون.

أعاجيب العلم

في السادسة عشرة من عمره، دخل إلى قاعة العمليات الجراحية أول مرة.

ومنذ ذلك الحين، عاش ما بين غرفة العمليات ومنصة المسرح.

ما هو لون قمة العالم؟

إنه لون الثلج.

ولكي يصير ملك الملوك، الأعلى بين الأعلين، بدّل بشرته، أنفه، شفتيه، حاجبيه، وشعره.

صبغ بالأبيض بشرته السوداء، وشحذ أنفه العريض، وشفتيه الثخينتين، وحاجبيه الكثيفين، وزرع شعراً سبطاً على رأسه.

بفضل الصناعة الكيميائية وفنون الجراحة، ومن حقنة لحقنة، من جراحة إلى جراحة، صارت صورته بعد عشرين سنة، نظيفة من اللعنة الأفريقية. لم تعد تشوبها شائبة. لقد هزم العلم الطبيعة.

لكن بشرته صارت عندئذ، بلون الموتى، وأنفه المبتور مرات ومرات، اختُزل إلى ندبة فيها ثقبان، وصار فمه شقاً مصبوغاً بالأحمر، وحاجباه رسماً مرعباً، وصار يغطي رأسه بشعر مستعار.

لم يبق منه شيء. بقي اسمه فقط. فهو مازال يدعى مايكل جاكسون.

بيروقراطية عجيبة

سونيا بي دي داندري تنهض باكراً جداً، لأن العمل يضطرها إلى ذلك، ولأنه من الممتع أيضاً تنفس النهار عندما يكون حديث الولادة، وله رائحة طفل وليد.

في ذلك الصباح، مضت ماشية، وهي تغني بصوت خافت، في شوارع سانتو دومنغو المضمخة بالضوء الجديد، وكانت بين أول من يقفون في الدور، أمام المنضدة التي يُحصل منها على جوازات السفر. وعندما تلقت جواز سفرها، رأت أن هناك بين المعلومات ذكر للون البشرة. *سمراء*، هذا ما تقوله الوثيقة.

لكن سونيا زنجية، وهذا لا يبدو لها سيئاً بأي حال. طلبت أن يُصحح الخطأ.

خطأ؟

وأوضح لها الموظف الذي ملأ الاستمارات، وهو زنجي أيضاً:

- *في هذه البلاد لا يوجد زنوج.*

تطهر

رجعت ألكساندرا شخيلديروب من البرد.

كانت قد عاشت خمس عشرة سنة بعيداً.

وكان أول ما فعلته ألكساندرا، فور وصولها، هو تشغيل المذياع. أرادت أن تسمع الأخبار الجديدة وأصوات بلادها. بلادها بنما التي تدين للسكان الأصليين بأكلة التامال التي تجعل اللعاب يسيل، وأراجيح النوم التي تنام فيها قيلولتها، وتدين لهم كذلك بالألوان التي تعرضها، وبالذاكرة التي تخبئها.

كان المذياع يبث إعلاناً. تُسمع محادثة تلفونية متقطعة، مجرد ضجيج غير مفهوم؛ وامرأة غاضبة تسأل: «ولكن، من هو هذا الهندي الذي يتصل؟»، ثم صوت مذيع محترف ينصح: إذا كنتَ ترغب في ألا يظنوك هندياً، اشتر سيلولار كيبل أند ويرلس.

المسيح الصغير

كانت ***الطفلة ماريا*** تنام قليلاً أو لا تنام. منذ أن يطل أول ضوء من بين الجبال وحتى نهاية كل ليلة، كانت ***الطفلة ماريا*** مسمرة على ركبتيها قبالة المذبح، تهمس بصلواتها.

في منتصف المذبح، ينتصب تمثال مسيح صغير أسمر. المسيح اكتسب اللون القاتم من دخان الشموع، وكان له شعر مثل الناس، شعر أسود مثل شعور الناس هناك. وكان فلاحو وادي كونلارا يكثرون من التردد على ابن الرب هذا الذي يشبههم كثيراً.

الطفلة ماريا كانت تعيش عيشة سيئة، تأكل القذارة، ولكنها في كل يوم تغسل المسيح بماء من النبع، وتزينه بأزهار من الوادي، وتشعل الشموع التي تحيط به. هي لم تتزوج قط. في سنوات فتوتها، تولت مسؤولية أخويها الأصمين الأبكمين. وبعد ذلك كرست حياتها للمسيح. كانت تقضي الأيام في العناية ببيته، وفي الليل تسهر على نومه.

ومقابل كل تلك الأشياء، لم تطلب ***الطفلة ماريا*** شيئاً قط.

وفي السنة الثالثة بعد المئة من عمرها. طلبت. ولكنها لم تقل ما هو طلبها، وإنما أعلنت نذرها:

- ***إذا ما حقق لي المسيح ذلك*** - قالت - ***فسوف أصبغه باللون الأشقر.***

اليد الشافية

لم تكن لدى الدكتور سكرتيرة، وأظن أنه لم يكن يملك هاتفاً كذلك. والعيادة، بلا موسيقى تأثيرية، ولا سجادة، ولا صور لوحات لغوغان على الجدران. لم يكن لديه سوى محفة، وكرسيين، ومنضدة، وشهادة من كلية الطب.

وقد عرف كيف يكون المداوي الأكثر إعجازاً في حي لا بوكا. هذا العالم كان يداوي بلا أقراص أدوية، ولا أعشاب، ولا أي شيء آخر. كان يبدأ بسؤال المريض، وهو بملابسه البيتية:

- ***وحضرتك، ما هو المرض الذي تريد أن تكون مصاباً به؟***

علاج مقدس

منذ قرنين، في مدينة سلفادور دي باهيا، كانت الأسر المزهوة بنفسها تدعو قدر ما تستطيع من الأطباء القادرة على دفع أجورهم، كي يحيطوا بفراش مريضها المحتضر.

وكان الأقارب والجيران يتزاحمون في الغرفة، ليستمعوا إلى الأطباء. فبعد فحص المريض، يلقي كل طبيب محاضرة حول الحالة. وكانت محاضرات مهيبة، يعلق عليها الجمهور بأعلى صوت:

- تأييدا

- لالالا

- لقد أخطأ الدكتورا

- موافقا

- يا للبلاهةا

وبعد انتهاء الجولة الأولى، يعود العلماء لطرح وجهات نظرهم في خطابات جديدة.

وتتواصل المناظرة. ليس طويلاً.. إلى أن يتعجل أشدُّ المحتضرين صعوبة في الموت، بلفظ نفسه الأخير، حتى ولو كان من عدم اللياقة قطع عمل العلم.

علاج مقدس آخر

في أميركا، لم يزرع أحد شجرة جوز الهند. لقد زرعت نفسها بنفسها. أفلتت من شجرة في ماليزيا، وتدحرجت على الرمل، وأسلمت نفسها للماء. وطافية في بحار العالم، وصلت ثمرة جوز الهند المبحرة إلى الشواطئ الأمريكية. أعجبتها هذه الشواطئ، وهي تقدم لنا منذ ذلك الحين رحيقها الشافي.

كانت أندريا دياث تهرول، ذات مساء، على شاطئ المحيط الهادي، عندما فقدت ركبتيها، اللتين خرجتا من موضعهما. وفي ميناء

كيبوس، قدموا لها ماء جوز الهند:

- *تناولي هذا* - أمر رجل طيب حملها من الطريق.

وأوضح أنه لا وجود لدواء أفضل منه:

- ***لم يكن آدم وحواء يشربان شيئاً سوى هذا الشراب، ولم يصبهما أي داء.***

انصاعت هي لطلبه، ولكنها لم تستطع إسكات فمها:

- ***وكيف عرفت ذلك؟***

نظر إليها الرجل بأسى:

- ***إنه موجود في الكتاب المقدس يا ابنتي. ألا ترين أنه لم يكن هناك أطباء في الجنة؟ والأمراض تأتي بعد الأطباء.***

المعجزات

في المنعطف الأخير من شارع موفتيررد في باريس، وجدتُ كنيسة القديس ميدارد.

فتحتُ الباب، ودخلت. كان يوم أحد، والوقت بعد الظهر.

كانت الكنيسة خاوية، وقد انطفأت فيها أصداء آخر الصلوات. كانت هناك عاملة تنظيف، تكنس القداس، وتنفض الغبار عن القديسين، ولا أحد سواها.

جبتُ الكنيسة، من أولها إلى آخرها. وفي العتمة الخفيفة، بحثت عن الأمر الملكي الصادر سنة 1732: ***بأمر الملك، يحظر على الرب تحقيق معجزات في هذا المكان.***

كان كارليتوس ماتشادو قد أخبرني بأن أمر الحظر محفور على أحد الأحجار، عند مدخل هذه الكنيسة المكرسة لقديس كثير المعجزات. بحثتُ عنه، ولم أجده:

- ***آه لا، لا يا سيدي! لا! ولكن لا!*** - ثارت حفيظة عاملة التنظيف، المسلحة بالمكنسة، والمكللة بلفافات الشعر، بينما هي تواصل عملها، دون النظر إليّ.

ـ ولكن ذلك الأمر الملكي... ألم يكن موجوداً قط؟

فواجهتني عاملة التنظيف:

ـ أما عن وجوده، فكان موجوداً. ولكنه لم يعد.

على طرف المكنسة كانت تسند يديها، وإلى اليدين، تسند ذقنها.

ـ مثل ذلك الأمر لم يكن جيد الوقع على المؤمنين. أنت تفهم ما أعنيه.

شكر المعجزة

عند حافة المذبح، في كنائس المكسيك، تتراكم النذر. إنها صور وكتابات، مرسومة على قطع صفيح، تقدم *الشكر للسيدة عذراء غوادالوبي، لأن قوات بانتشو بيّيا اغتصبت ابنتي ولم تغتصبني؛*

والشكر لطفل أتوتشا المقدس، لأن لي ثلاث أخوات، أنا الأقبح بينهن، وكنت أول من تزوجت؛

والشكر لعذراء الآلام، لأن امرأتي في الليلة قبل الفائتة، ضاجعت صديقي أنسيلمو، وهو بهذا سيدفع وزر كل الأضرار التي سببها لي؛

والشكر لشيطان روسترو دي أكابولكو، لأنني قتلت زوجي، ولم يفعلوا بي شيئاً.

هكذا كان الأمر، ولا يزال. ولكن هناك مستجدات أيضاً، مثل النذر التي تُقدّم *الشكر إلى سيدنا يسوع المسيح لأنني عبرت النهر ووصلت إلى الولايات المتحدة دون أن أغرق ودون أن يقتلوني.*

ألفريدو بيلتشيس، المعروف باسم ليوناردو دا بيلتشيس، يرسم نذراً بالتوصية في سوق لاغونيّا. يسوعاته، جميعهم، لهم وجهه. وكثيراً ما يرسم أيضاً ملائكة يرتدون ملابس لاعبي كرة القدم، ليُرفقهم بعبارات الشكر. وكثيرون هم الزبائن الذين قدموا طلباتهم إلى السماء عشية المباريات الحاسمة، وقد منحتهم السلطة الربانية نعمة تسجيل الأهداف لصالح ناديهم المحبوب أو للمنتخب المكسيكي.

الغيب

في نهاية صيف 1996، حقق خوسيه لويس تشيلابيرت هدفاً تاريخياً في بوينس آيرس. فحارس مرمى البارغواي الذي كان يمنع الأهداف، ويسجلها كذلك، «شاط» الكرة من بعيد جداً، من منتصف الملعب تقريباً: حلقت الكرة في السماء، واخترقت الغيوم، وسقطت فجأة، بصورة عمودية، على المرمى المقابل، ودخلت فيه.

أراد الصحفيون أن يعرفوا سرّ رميته: كيف حققت الكرة تلك الرحلة التي لا تصدق؟ ولماذا سقطت بصورة عمودية من أعلى؟

- *لأنها اصطدمت بالملاك* - أوضح لهم تشيلابيرت.

ولكن لم يخطر لأحد أن ينظر إذا ما كانت الكرة ملطخة بالدم. لم يدقق أحد في ذلك. وهكذا أضعنا فرصة أن نعرف إذا ما كان الملائكة يشبهوننا، ولو في هذا الأمر.

الجحيم

أصاب الإفلاس شركة **شيطان تور** السياحية التي تنظم زيارات برفقة مرشدين سياحيين إلى مملكة الظلمات.

أعمالها لم تسر على ما يرام. فبعد نزول طويل وشاق، من هاوية إلى هاوية، حتى أعماق بئر الكون، كان السياح يرجعون إلى العالم مستنفدي القوى، تعبق في أنوفهم رائحة الكبريت الكريهة، ومقتنعين بأن تلك الرحلة لا تستحق العناء الذي تكبدوه ولا النفقات التي دفعوها.

فقد كانوا ينتظرون أن يروا خفافيش كبيرة بحجم الطائرات، وأنهاراً تغلي وتفور، وتنانين بسبعة رؤوس تنفث لهيب النار الأبدية، وأفاعي تبيع تفاحات مشوية، وخطأة مقيدين إلى سفافيد ملتهبة؛ ولكن لا شيء من هذا. فالاستعراض هناك يقتصر على رتل طويل لأناس ينتظرون، وهذا هو كل شيء.

وكان الرتل الذي تضيع نهايته في مضايق يتصاعد منها البخار، مؤلفاً من حشود من كل الأعمار ومن كل العصور التاريخية، ابتداء من

الصيادين ساكني الكهوف حتى رواد الفضاء. بعضهم موجود هناك منذ آلاف وآلاف السنين؛ وآخرون وصلوا قبل أسبوع أو قبل عشر دقائق.

فكان السياح يسألون:

- *ولكن، الجحيم؟ أين هو الجحيم؟*

فيكتفي موظفو الشيطان الأحمر المعمرون بالإشارة إلى المحكومين بالانتظار الأبدي.

العذراء

الماضي مأثرة ذكور: لا وجود لنساء في التاريخ الرسمي لجزر الكناري.

ولا أي امرأة؟ هناك واحدة.

منذ قرون، وقبل أن تغزو إسبانيا الجزر، جاءت هي من شواطئ تينريفي.

جاءت طافية على الماء، نائمة على الزبد، وقد التقطها الصيادون. عندما كلموها، لم تجبهم. أخذها الصيادون إلى ملك الجزيرة. وفي حضرة الملك، ظلت صامتة. وعندما تصارع الأمراء من أجلها، وتنازعوا على أفضالها، اقتتلوا فيما بينهم، وقد حضرت هي المشهد دون أن تحرك ساكناً.

المرأة الوحيدة في تاريخ الجزر ما زالت هناك. تدعى ماريا، ويسمونها ذات القناديل، بسبب القناديل التي تضيئها. إنها عذراء، وهي من الخشب. الرجال يتعبدون أمامها راكعين.

الأخريات

حسب ما هو وارد في إنجيل متى، كان للمسيح ستة وأربعون من الأسلاف: واحد وأربعون رجلاً، وخمس نساء.

إحدى النساء الخمس، مريم، حبلت دون خطيئة، مثلما هو معروف.

أما الأخريات الواردات في السلالة فهن:

ثامار التي تنكرت كعاهرة، من أجل أن تحبل بابن من حميها.
راحاب، وكانت تمارس تلك المهنة في مدينة أريحا.
بيتسابيه، وكانت متزوجة من آخر عندما حبلت بسليمان في فراش الملك داود.
راعوث، لم تكن تنتمي إلى الجنس المختار، ولم تكن، بالتالي، جديرة بديانة شعب إسرائيل.
ثلاثُ خاطئاتٍ ومزدراة... جدّات ابن السماء كنّ ملعونات على الأرض.

أحد الفصح

1973، مونتيفيديو، ثكنة كتيبة الفرسان التاسعة: ليلة لعينة. زمجرة شاحنات، أزيز رشاشات، المعتقلون على الأرض، وجوههم إلى أسفل، أيديهم مقيدة، بندقية مغروسة في ظهر كل واحد منهم، صرخات، ركلات، ضربات بأعقاب البنادق، تهديدات...
في صباح اليوم التالي، تذكر أحد السجناء، ممن لم يضيعوا بعد حسابات التقويم:
- *اليوم هو أحد الفصح.*
كان التجمع ممنوعاً.
ولكن ذلك حدث، في منتصف العنبر، حدث.
قدم المساعدة من هم ليسوا مسيحيين. بعضهم حرس بوابات القضبان الحديدية، وتابعوا تحركات جنود الحراسة. وآخرون شكلوا حلقة بشرية تذهب وتجيء، وكأنهم يمشون دون قصد أو انتباه، حول المحتفلين.
همس ميغيل برون ببعض الكلمات. ذكر قيامة المسيح التي تبشر بخلاص كل السجناء. لقد لوحق المسيح، وسُجن، وعُذب، واغتيل، ولكنه في يوم أحد مثل هذا جعل الجدران تتصدع، قوضها، كيما يكون لكل سجن حرية، ولكل توحد لقاء.
لم يكن لدى السجناء أي شيء. لم يكن لديهم خبز، ولا نبيذ، ولا

حتى كؤوس. كان قربان الأيدي الخاوية.

وقدم ميغيل نفسه القربان:

- ***فلنأكل*** - قال هامساً - ***هذا هو جسده.***

ورفع المسيحيون أيديهم إلى أفواههم، وأكلوا الخبز غير المرئي.

- ***فلنشرب. هذا هو دمه.***

ورفعوا اللاكؤوس، وشربوا النبيذ غير المرئي.

قصة الخوف

كان لدى القمر أمر يريد قوله للأرض، فبعث الجُعَلَ رسولاً.

وكانت قد مضت على الجعل بضعة ملايين من السنين في الطريق، عندما التقى في السماء بأرنب بري.

- ***بمثل هذه المشية لن تصل أبداً*** - حذره الأرنب البري، وعرض أن يحمل له الرسالة.

نقل إليه الجعل الرسالة: يجب إخبار النساء والرجال بأن الحياة تتجدد، مثلما يتجدد القمر.

وانطلق الأرنب البرّي بأقصى سرعة إلى الأرض.

وبسرعة البرق حطّ في أدغال جنوبي أفريقيا، حيث كان يعيش البشر في ذلك الزمان، ودون أن يلتقط أنفاسه، نقل كلمات القمر. والأرنب البري، المعتاد دائماً على المغادرة قبل أن يصل، تكلم بأسلوبه المتعثر. وفهمت النساء والرجال أنه يقول لهم:

- ***القمر يتجدد، أما أنتم فلا.***

منذ ذلك الحين، صرنا نخاف الموت، أبا كلِّ المخاوف.

فن إصدار الأوامر

أحد أباطرة الصين، لا يُعرف اسمه، ولا سلالته، ولا عصره، استدعى في إحدى الليالي مستشاره الأكبر، وأسرَّ له بالكرب الذي

يمنعه من النوم:

- *لا أحد يخافني* - قال.

ولأن رعاياه لا يخافونه، فإنهم لا يحترمونه كذلك، ولا يطيعونه أيضاً.

- *لا بد من العقاب* - أعرب المستشار عن رأيه.

فقال الإمبراطور إنه يأمر بجلد من لا يدفع الضرائب، وبالتعذيب البطيء لمن لا ينحني لدى مروره، وبالشنق لمن يتجرأ على انتقاد أعماله.

- *ولكن هؤلاء هم المذنبون* - قال المستشار. ثم أوضح:

- *السلطة بلا خوف تفش مثل الرئة دون هواء. وإذا جرت معاقبة المذنبين وحدهم، فإن المذنبين وحدهم هم الذين يخافون.*

فكر الإمبراطور، بصمت، وقال:

- *لقد فهمت.*

وأمر الجلاد بقطع رأس المستشار، وفرض على كل أهالي بكين حضور المشهد في ميدان السلطة السماوية.

وكان المستشار هو الأول في قائمة طويلة.

تشريح الخوف

يولد النهار، بلمسة من أصابع الشمس.

وفي أرياف السلفادور، تشعل النساء المواقد، ويبدأن مشاغلهن.

- *كيف أشرقتِ؟* - لأنهن يشرقن أيضاً، مثل الصباح.

من أجسادهن يعرفن ما الذي سيقدمه لهن اليوم الجديد.

في سنوات الحرب، كان جسد كل امرأة، عند الفجر، خريطة للخوف. فإذا ما ضغط الخوف على الصدور، فإن أحد الأبناء لن يرجع. وإذا ما وخز البطن، فإن الجيش يقترب. وإذا ما كان وجعه في الكليتين، فإن الماء سيُفتقد من البئر؛ وسوف يقامر بحياته كل من يخرج للبحث عنه.

البعبع

يلعبون دون توقف، الجميع مختلطون بالجميع، كان الصغار يعيشون في اختلاط سعيد مع الحيوانات والنباتات.

ولكن في يوم شؤم، جاء أحدهم، عابر سبيل، وصل إلى بقايا ذلك البيت في أرياف بايساندو، وأحضر معه الرعب:

- *حذار، سيأتي البعبع!*
- *سيأتي البعبع ويأخذك!*
- *سيأتي البعبع ويأكلك!*

انتبهت أولغا هوغيس إلى أول أعراض الوباء. فالمرض الذي لا دواء له انقض على أبنائها الكثر. وعندئذ اختارت أشد كلابها الكثيرين وداعة، وأكثرها مسالمة وتودداً، وعمدته باسم «**بعبع**».

الناي السحري

في الشوارع يمضي الطبيبُ مداوي الآلات التي فقدت حدّها أو قدرتها على القطع.

قَدَمُ المجلخ تدير عجلة حجر الشحذ التي تنتزع وابل شرار من شفرات الأمواس والسكاكين والمقصات. ونحن أطفال الحي، حشد المعجبين، كنا جمهور ذلك الاستعراض.

ومثلما يعلن الأرغن عن حلوى رقائق البسكويت، كان الناي هو المعلن عن المجلخ.

الجيران يقولون إذا كان أحدهم يفكر في شيء خبيث، وسمع صوت الناي، فإنه يبدل رأيه في الحال.

لم يبق تقريباً مجلخون في شوارع المدن، ولم تعد ناياتهم تتسل من النوافذ. إيقاعات أخرى تدوي، موسيقى رعب، وكثيرون هم الناس الذين يبدلون رأيهم في لحظة واحدة.

الجائحة

انزلقت السفينة باتجاه الجنوب، في البحر الهادئ، على امتداد الساحل السويدي.

كان يوماً صيفياً بديعاً. وكان المسافرون الجالسون على السطح، يستمتعون بالشمس وبالنسمات الرقيقة، بينما هم ينتظرون موعد الفطور.

وفجأة، ركض صبي نحو الحاجز وتقيأ.

عندئذ حذت حذوه السيدة التي إلى جانبه. وعلى الفور، نهض رجلان وقلداها. وواحداً بعد آخر، راح يتقيأ المسافرون الآخرون الذين على مقاعد المقدمة.

ركاب المؤخرة، كانوا يضحكون من المشهد المضحك؛ ولكن سرعان ما دسّ بعضهم أصابعهم في حلوقهم، وهم ينحنون باتجاه البحر الهادئ، وتبعهم آخرون.

لم يكن بإمكان أحد عدم التقيؤ.

كان فيكتور كليمبرير على أحد آخر المقاعد. ولكي يحمي نفسه من التقيؤ العام، كان يركز تفكيره على فطوره القادم: القهوة بالكريما، ومربى البرتقال...

ووصل الدور إلى من هم في المؤخرة. تقيؤوا جميعهم. وهو أيضاً.

لقد نسي كليمبرير هذه القصة. ولكن أعادها إلى رأسه بعد سنوات من ذلك، في ألمانيا، صعود هتلر المندفع باطراد.

إنذار أحمر

يصيب هلعُ الغزو البلدَ الذي لا يغزوه أحد، والمعتاد على غزو الآخرين.

في الثمانينات، كان الخطر يسمى نيكاراغوا. فعقم الرئيس رونالد ريغان الرأي العام بغاز الخوف. بينما هو يتكلم في التلفزيون للإبلاغ عن التهديد، كانت الخريطة وراء ظهره تصطبغ بالأحمر. سيول الدم والشيوعية تتقدم من أميركا الوسطى، وتصعد عبر المكسيك،

وتدخل عن طريق تكساس إلى الولايات المتحدة.

لم تكن لدى مشاهدي التلفزيون أدنى فكرة عن مكان وجود نيكاراغوا. وما كانوا يعرفون كذلك أن تلك البلاد قد دُمرت بدكتاتورية صُنعت في واشنطن، واستمرت نصف قرن؛ وبزلزال محا عن الخريطة نصف مدينة ماناغوا.

لقد كان لدى مصدر الخوف، نيكاراغوا، ما مجموعه خمسة مصاعد، وسلّم كهربائي واحد معطل.

مصانع

كان العام 1964 يمضي، وتنين الشيوعية العالمية يفتح أشداقه السبعة ليأكل تشيلي.

كانت الدعاية تقصف الرأي العام بصور كنائس محروقة، ومعسكرات اعتقال، ودبابات روسية، وجدار برلين ينتصب في وسط سنتياغو، ورجال عصابات ملتحين يخطفون الأطفال.

وكانت هناك انتخابات.

انتصر الخوف. وهُزم سلفادور ألليندي. في أيام الألم تلك، سألته ما هو أشد ما آلمه. وروى لي ألليندي ما جرى هناك بالذات، في بيت مجاور، في حي بروفيدينثيا. فالمرأة التي ينكسر ظهرها هناك وهي تعمل طاهية، ومنظفة، ومربية أطفال، مقابل أجر بائس، دسّت في كيس بلاستيكي كل ملابسها، ودفنتها في حديقة أسيادها، كي لا يسلبها إياها أعداء الملكية الخاصة.

المُقَنَّع

بعد ست سنوات من ذلك، وبالرغم من الرعب، كسب اليسار الانتخابات في تشيلي. قال هنري كيسينجر محذراً.

ـ لا يمكننا السماح...

بعد ألف يوم، قصف انقلاب عسكري قصر الحكومة، ودَفع سلفادور ألليندي إلى الموت، وأَعدم كثيرين آخرين رمياً بالرصاص، وأنقذ الديمقراطية القاتلة.

في مدينة سنتياغو، جرى تحويل ستاد كرة القدم إلى سجن.

وكان مُقَنَّعٌ يجوب المدرجات. لا أحد يرى وجهه؛ بينما هو يرى وجوه الجميع. كانت تلك النظرة تطلق رصاصاً: المُقَنَّع، وهو اشتراكي تائب، كان يمشي، يتوقف، ويشير بإصبعه. الرجال الذين يشير إليهم، وقد كانوا رفاقه من قبل، يُؤخذون إلى التعذيب أو إلى الموت.

الجنود يقتادونه مقيداً، بحبل حول عنقه.

ـ ***هذا المُقَنَّع يبدو كلباً*** ـ يقول السجناء.

ـ ***ولكنه ليس كذلك*** ـ تقول الكلاب.

البروفيسور

في الفناء، ضجة جزمات بمهاميز. ومن أعلى الجزمات، أرعد صوت ألثيبياديس بريتس، قائد شرطة البارغواي، خادم الوطن الذي يتقاضى رواتب وجعالات رجال الشرطة الميتين.

عارياً، مطروحاً على بركة دمه ووجهه إلى الأرض، تعرف المعتقل إلى الصوت. لم تكن تلك هي إقامته الأولى في الجحيم. فقد كانوا يستجوبونه، أو بكلمة أدق، يُدخلونه في آلة فرم اللحم البشري، في كل مرة يقوم فيها الطلاب أو الفلاحون الذين بلا أرض بأعمال شغب، وفي كل مرة تظهر فيها مدينة أسونثيون ممتلئة بلافتات ليس فيها شيء من اللطف تجاه الدكتاتورية العسكرية.

الجزمة طرحته أرضاً. وصوت قائد الشرطة أعلن:

ـ ***أيها البروفيسور بيرنال... يجب أن تشعر بالعار. انظر المثل الذي تقدمه إلى الشباب. الأساتذة لم يوجدوا لإثارة المشاكل. الأساتذة موجودون لتأهيل مواطنين.***

ـ ***هذا ما أفعله*** ـ تلعثم بيرنال.

ردّ بمعجزة. فقد صار فضلة ما كانه.

الطاحونة

اجتازت نيللي ديلوسي أسلاكاً شائكة ومروج أعشاب بحثاً عن معسكر اعتقال يدعى «المدرسة الصغيرة»، لكن الجيش الأرجنتيني لم يُبقِ هناك قطعة آجر واحدة منتصبة.

أمضت المساء كله في البحث دون جدوى. وعندما كانت في أشد لحظات ضياعها في أرض خلاء، رأت نيللي الطاحونة. اكتشفت وجودها من بعيد. وعندما اقتربت، سمعت أنين الطاحونة التي تصفعها الريح، ولم يبق لديها أي شك:

ـ *إنه هنا*.

لم يكن هناك سوى عشب في ما حولها، ولكن هذا هو المكان. وبينما هي واقفة قبالة الطاحونة، تعرفت نيللي على الأنين الذي رافقها، ورافق السجناء الآخرين، قبل خمس عشرة سنة، يوماً بعد يوم، وليلة بعد ليلة، عندما كانوا يُسحقون في التعذيب.

وتذكرت: أحد الكولونيلات ضجر من رتابة الطاحونة، فأمر بتقييدها. رُبطت أذرع مروحة الطاحونة بعدة لفات من السيور. ولكن الطاحونة واصلت الأنين.

أصداء

ذهب، ولكنه بقي. الراهب فراي تيتو كان حراً، منفياً في فرنسا، ولكنه ظل معتقلاً في البرازيل. كان الأصدقاء يقولون له ما تقوله الخرائط: إن بلاد جلاديه بعيدة، في الجانب الآخر من المحيط، ولكن هذا لم يكن ينفع في شيء: فقد كان هو نفسه البلاد التي يعيش فيها جلادوه.

كان محكوماً بالتكرار اليومي لجحيمه. فكل ما حدث، يعود للحدوث. خلال أكثر من ثلاث سنوات، لم يمنحه معذبوه لحظة راحة. في أي مكان يكون فيه، سواء أكان في أديرة باريس، أو ليون، أو

في أرياف جنوبي فرنسا، كانوا يوجهون الركلات إلى بطنه، وضربات أعقاب البنادق إلى رأسه، ويطفئون السجائر في جسده العاري، ويدسون المنخس الكهربائي في أذنيه أو في فمه.

ولم يكن يصمت أبداً. لقد فقد فراي تيتو الصمت. وعبثاً يتجول باحثاً عن مكان ما، عن ركن في المعبد أو في الأرض، لا تدوي فيه تلك الصرخات الرهيبة التي لا تتيح له النوم، ولا تتيح له ترتيل الصلوات التي كانت من قبل مغنطيسه إلى الله.

ولم يستطع تحمل المزيد. *من الأفضل الموت على فقدان الحياة*، كان هذا هو آخر ما كتبه.

حارس المرمى

عند الظهر، قبالة أرصفة ميناء هامبورغ، كان هناك رجلان يشربان ويتبادلان الحديث، في مشرب للبيرة. أحدهما هو فيليب أغي، وكان قد تولى منصب مسؤول الـ CIA في الأروغواي، والآخر هو أنا.

كانت الشمس، وهي ليست كثيرة الظهور في تلك الأنحاء، تحمم المائدة بالنور.

وبين بيرة وبيرة، سألتُ عن الحريق. فقبل سنوات من ذلك، اندلعت ألسنة اللهب في جريدة *إيبوكا* التي كنت أعمل فيها. وقد أردت أن أعرف إذا ما كان ذلك الحريق لفتة كرم من جانب الـ CIA.

لا، قال لي أغي. فقد كان الحريق هدية من العناية الإلهية. وروى لي:

- تلقينا أخباراً رائعة لتخريب مطبعة الجريدة، ولكننا لم نتمكن من استخدامها.

فالـ CIA لم تتمكن من دس أي عميل لها في مطابع الجريدة، ولم تتمكن كذلك من تجنيد أي عامل من عمال مطبعتنا. فرئيس مطبعتنا لم يكن يسمح بأي تمريرة. لقد كان حارس مرمى عظيماً. وقد اعترف أغي بذلك: *A great goalkeeper*.

أجل، قلت له، لقد كان كذلك.

فقد كان خيراردو غاتي، بوجه الطيبة المزمنة ذاك الذي لا علاج له، حارس مرمى عظيماً. وكان يتقن اللعب في الهجوم أيضاً.

عندما التقينا في هامبورغ، كان أغي قد قطع علاقته بالـ CIA، وكانت تحكم الأروغواي دكتاتورية عسكرية، وكان خيراردو قد اختُطف، وعُذب، وقُتل، واختفى أثره.

خسارة

في غواتيمالا، في أوج الدكتاتورية العسكرية، ألقي القبض على ابنة دون فرانثيسكو في جبال تشواكوس. وعند الفجر، جرجرها ضابط في الجيش حتى بيت أبيها.

استجوب الضابط دون فرانثيسكو:

- ***أليس سيئاً ما يفعله مقاتلو حرب العصابات؟***

- ***أجل، إنه سيئ.***

- ***وماذا يجب أن نفعل بهم؟***

لم يجب دون فرانثيسكو.

- ***هل يتوجب قتلهم؟*** - سأله الضابط.

وظل دون فرانثيسكو صامتاً، ينظر إلى الأرض.

كانت ابنته جاثية على ركبتيها، معصوبة العينين، مكبلة اليدين، ومسدس مثبت على رأسها.

- ***ألا يتوجب قتلهم؟*** - ألح الضابط.

ثم مرة أخرى. ودون فرانثيسكو لا يقول شيئاً.

وقبل أن تهشم الرصاصة رأسها، بكت الفتاة... من تحت العصابة التي تغطي وجهها، بكت.

- ***لقد بكت عليه*** - روى لي ذلك كارلوس بيريستاين.

غياب

بألف لون يتلألأ الموت في مقبرة تشِتشِكاستنانغو. ربما تحتفل الألوان، على القبور الزاهرة، بنهاية الكابوس الأرضي: هذا الحلم الخبيث عن الآمرين والمأمورين الذي يضع له الموت حداً عندما يعرينا بضربة واحدة، ويساوي بيننا.

ولكن ليس هناك في المقبرة لوحات قبور من العام 1982، ولا من العام 1983، حين كان زمن المذبحة الكبرى للسكان الأصليين في غواتيمالا. فقد ألقى الجيش بتلك الجثث في البحر، أو في فوهات البراكين، أو أحرقهم في حفر جماعية لا تُعرف أماكنها.

الألوان البهيجة على قبور تشِتشِكاستنانغو تحيي الموت، المساوي، الذي يعامل، بتأدب مماثل، الشحاذ والملك. ولكن لا وجود في المقبرة لمن ماتوا من أجل أن تكون الحياة مساواة أيضاً.

لقاءات

كان قد مضى عليه زمن قصير في المصنع، عندما عضت الآلة يده. لقد أفلت خيط منها؛ وحين أراد إمساكه، أُمسك هو.

ولم يَعتبر. فقد أمضى هيكتور رودريغيث حياته في البحث عن خيوط مفلتة، وفي تأسيس نقابات، وجمع شمل المتفرقين، والمجازفة بيده وبكل شيء فيه من أجل نسج ما يفكك الخوف نسجه.

وبينما هو ينمو في العقاب، اجتاز سنوات القوائم السوداء، وسنوات السجن، وكل الأشياء الأخرى.

عندما حلّ يومه الأخير، كنا كثيرين من ذهبنا لانتظاره عند أبواب المقبرة. كان مقرراً أن يُدفن هيكتور في الرابية المطلة على شاطئ بوثيو. وقد وقفنا ننتظر هناك وقتاً طويلاً، في تلك الظهيرة الرمادية ذات الرياح الشديدة، عندما جاء بعض عمال المقبرة وهم

يحملون نعشاً بلا أزهار ولا معزين. ودخل وراء هذا النعش، في موكب، بعض من كانوا ينتظرون هيكتور.

أكان خطأ؟ هل أخطؤوا بالنعش؟ من يدري. فمن طبع هيكتور أن يقدم أصدقاءه لمرافقة الميت الوحيد.

الباب

كان كارلوس فاسانو قد أمضى ست سنوات في تبادل الحديث مع فأر ومع باب الزنزانة رقم 282.

لم يكن الفأر شديد المواظبة، كان يهرب ويرجع عندما يشاء، أما الباب فكان هناك دائماً.

فيما بعد، تحول السجن إلى مركز تسوق في مونتيفيديو. مركز الاعتقال تحول إلى مركز استهلاك، ولم يعد سجانوه يحبسون أناساً، وإنما بدلات أرماني، وعطورات ديور، وفيديوهات باناسونيك.

وانتهى المطاف بأبواب زنازينه إلى مخزن الأنقاض الذي اشتراها.

وهناك وجد كارلوس بابه. لم يكن عليه الرقم، ولكنه تعرف عليه في الحال. فتلك هي الخدوش التي أحدثها بالملعقة. وهذه هي البقع، بقع الخشب القديمة، خرائط البلدان السرية التي كان يسافر إليها على امتداد كل يوم من أيام حبسه.

الباب ينتصب الآن في العراء، في أعلى رابية حيث يُمنع إغلاقه.

الذاكرة

قاتَلَ، جُرِح، وقع أسيراً.

وكان قد مات بما فيه الكفاية في حجرات التعذيب، عندما حكمت عليه محكمة عسكرية بالموت نهائياً.

عرف أنه وحيد. وأن ما بقي منه قد نُسي من رفاقه.

ومهجوراً من الجميع، راح ينتظر أن ينجز الموت عمله.

وفي عزلة زنزانته، كان يتحدث إلى الجدار.

ولكن، قبل مجيء الموت جاءت نهاية الحرب؛ وأطلق سراحه.

وفي شوارع سان سلفادور، واصل التحدث إلى الجدران، وكان يوجه إليها اللكمات وضربات الرأس لأنها لا ترد عليه.

انتهى به المطاف إلى مستشفى المجانين. وهناك كانوا يبقونه مقيداً إلى السرير. ولم يعد بإمكانه التحدث حتى إلى الجدران.

نورما، التي كانت صديقته قبل سنوات، ذهبت لزيارته. فكوا قيوده. قدمت هي إليه تفاحة. ودون أن ينطق بكلمة، استغرق في النظر إلى التفاحة بين يديه، هذا العالم الأحمر المشع، وعلى الفور قطّع التفاحة بأسنانه، ونهض ووزع القطع على الآخرين جميعهم، سريراً فسريراً.

وهكذا عرفت نورما:

ـ لويس صار مجنوناً، ولكنه لا يزال لويس.

تِك Tik

في صيف 1972، سمع كارلوس لينكرسدورف هذه الكلمة أول مرة.

كان قد دُعي إلى اجتماع لهنود تزيلتال، في قرية باتشاخون، ولم يكن يفهم شيئاً. فهو لا يعرف اللغة، ويبدو الجدل المتحمس لمسمعه مثل مطر مجنون.

وكانت كلمة *تِك* تختلط بذلك المطر. الجميع يقولونها ويكررونها، *تِك، تِك، تِك*، ووقعها يفرض نفسه وسط سيل الأصوات. لقد كان اجتماعاً كلمة السر فيه *تِك*.

كان كارلوس قد تجول كثيراً في العالم، وهو يعرف أن كلمة *أنا* هي الأكثر استخداماً في كل اللغات. أما *تِك*، الكلمة التي تتألق في كلام وحياة جماعات المايا تلك، فتعني *نحن*.

الكوليبري

في بعض الدساكر النائية في جبال الأنديز، يتذكر ذوو الذاكرة الحافظة الزمنَ الذي كانت فيه السماء مركّبة فوق الدنيا.

كانت السماء قريبة فوقنا إلى حد أن الناس كانوا يمشون منحنين، ولا يستطيعون الانتصاب بقاماتهم دون أن تُشج رؤوسهم. تندفع الطيور لتحلق، ومع أول خفقة من أجنحتها ترتطم بالسقف. يحاول النسر والكندور الانطلاق بكل اندفاعهما، ولكن السماء لا تبدي اهتماماً بجهودهما.

انتهى زمنُ سحقِ الدنيا عندما شق برق متراقص طريقه في الفضاء القليل الذي كان. فقد ثقب عصفور كوليبري مؤخرة السماء بمنقاره الذي كالإبرة، فأجبرتها الثقوب على الصعود والصعود والصعود إلى الارتفاعات التي هي فيها الآن.

النسر والكندور، طائران قويان، يرمزان إلى القوة والطيران. ولكن أصغر العصافير حجماً هو الذي حرر الأرض من ثقل وطأة السماء.

سكس سيمبل

البرغوث لا يتباهى. لا يرفع صواري عالية، ولا أبراجاً، ولا مسلات، ولا ناطحات سحاب. وهو لا يصنع كذلك بنادق طويلة، ولا مدافع، ولا صواريخ.

البرغوث، عاشق البرغوثة، لا يحتاج إلى أن يخترع أي رمز للعضو الذكري، لأن الرمز في عضوه: فطوله لا يقل عن ثلث جسمه، وهو أضخم حجم في مملكة هذا العالم كلها، كما أنه مزين بريش ناعم.

البشر الذكور، محبو إصدار الأوامر والقتل، يخفون منذ آلاف السنين هذه المعلومة المذلة.

الأسد والضبع

الشعراء وفنانو الريشة والإزميل يحبون الأسد منذ الأزل، فهو يخفق في الأناشيد الوطنية، ويرفرف في الرايات، ويحرس قلاعاً ومدناً؛ لكن لم يخطر لأحد قط أن يغني للضبع، ولا أن يخلده في لوحة على القماش أو في نحت من البرونز. الأسد يمنح اسمه لقديسين وباباوات وأباطرة وملوك وأناس عاديين، ولكن ليس هناك خبر بأن شخصاً واحداً سمى نفسه أو سُمي «ضبع».

وحسب ما يقوله دارسو حياة الحيوانات، فإن الأسد هو لبون لاحم من فصيلة السنوريات. ينصرف الذكر إلى الزئير. وتتولى الإناث الحصول على الطعام، وجبة من حمير الوحش أو الغزلان، بينما الذكر ينتظر. وعندما يحضر الطعام، يأكل الذكر أولاً. وما يتبقى تأكله الإناث. وأخيراً، إذا ما بقي شيء في الطبق، يأكل الأشبال. أما إذا لم يبق لهم شيء، فليتخوزقوا.

وأما الضبع، فهو لبون لاحم من فصيلة الضبعيات، وله عادات أخرى مختلفة. فالسيد الشهم هو من يجلب الطعام، ويكون هو آخر من يأكل، بعد أن يأكل الأطفال والسيدات.

من أجل مدح شخص نقول: ***إنه أسد***. ولكي نشتمه نقول: ***إنه ضبع***.

الضبع يضحك. لماذا يضحك يا ترى؟.

الخفاش

الكونت دراكولا أكسبَهُ سوءَ السمعة.

ومع أن الوطواط باتمان قد فعل كل ما بوسعه لتحسين صورته، إلا أن الخفاش ما زال يثير الخوف أكثر من الحمد.

غير أن رمز مملكة الظلمات لا يجوب الليل بحثاً عن رقاب بشرية ليمص دمها. الواقع أن الخفاش يقدم إلينا الجميل بمكافحة الملاريا، عندما يصطاد ألف بعوضة في الساعة، وهو من الشهامة بحيث يلتهم

الحشرات التي تقتل النباتات.

وعلى الرغم من افتراءاتنا، فإن مبيد الحشرات هذا لا يسبب لنا السرطان ولا يتقاضى منا أي شيء مقابل خدماته.

سمك القرش

في السينما وفي الأدب، يبحر هذا المسخ المحتال الدموي في بحار العالم، بشدقين مفتوحين على الدوام، وبفكين فيهما ألف خنجر: يفكر فينا ويلحس شفتيه.

خارج السينما والأدب، لا يبدي القرش أي اهتمام باللحم البشري. نادراً ما يهاجمنا، اللهم إلا للدفاع عن النفس أو نتيجة خطأ ما. وعندما يخطئ قرش ضعيف البصر، ويظننا دلفيناً أو ذئب بحر، يقضم قضمة ثم يبصقها بقرف: إننا قليلو اللحم كثيرو العظم، وللحمنا القليل طعم مريع.

الخطرون هم نحن، وأسماك القرش تعرف ذلك جيداً؛ ولكنها لا تصنع أفلاماً، ولا تكتب روايات.

الديك

لم يكن ديك مورون الشهير بشيراً بالنهار الجديد ولا رمزاً له.

بل كان، يقال إنه كان، قاضياً، أو محصل ضرائب، أو مبعوثاً من الملك. وكان اسمه الديك، تلك هي كنيته، وما إن تطأ قدماه قرية حتى يقول:

ـ *حيث يصدح هذا الديك، يصمت الآخرون.*

كان متملقاً ومتعجرفاً، فهو يلحس إلى أعلى، ويبصق إلى أسفل.

طوال سنوات صمتَ الصامتون، إلى أن اقتحموا في أحد الأيام الدار الكبيرة التي يمارس منها تعسفه، فأمسكوا بالظالم، ونزعوا عنه ثيابه، وجعلوه يركض عارياً، وهم يرجمونه، في الشوارع.

حدث ذلك، يقال إنه حدث، منذ حوالي مئة قرن، في مدينة مورون دي

لافرنتيرا، ولكن كل من يزور المدينة، يمكنه أن يرى هذا الديك منزوع الريش، منحوتاً من البرونز، ولا يزال يركض حتى الآن. إنه تحذير: لكي تتوخى الحذر أنت، يا من أفقدتك صوابك السلطة أو السُّليطة، بأنك ستصير إلى ما صار إليه ديك مورون، تقوقئ بلا ريش، في أفضل فرصة مواتية.

الدجاجة

بمقارنة معطيات منظمة ***بيطريين بلا حدود*** مع معطيات القوات الجوية للولايات المتحدة، نتوصل إلى أنه لا وجود لتشابه كبير بين الدجاجة والطائرة الحربية.

فالدجاجة لها شكل الدجاجة واسمها دجاجة، أما الطائرة الحربية 2A-B فلها شكل الخفاش، وتسمى الروح؛

ثمن الدجاجة لا يزيد على خمسة أو ستة دولارات، بينما يبلغ ثمن الطائرة ألفين ومائتي مليون دولار؛

يمكن للدجاجة أن تقطع كيلومتر واحد، عندما تكون في أحسن حالاتها، أما الطائرة فتنطلق بضعف سرعة الصوت، وتقطع اثني عشر ألفاً وثمانمئة كيلومتر دون إعادة التزود بالوقود؛

الدجاجة لا تحلق ولو على ارتفاع شبر عن الأرض، أما الطائرة فتحلق على ارتفاع يزيد على خمسة عشر ألف متر؛

والدجاجة تضع بيضة واحدة كل يوم، أما الطائرة فتضع ثمانية عشر طناً من القنابل الموجهة بالأقمار الاصطناعية.

الحمائم

كانت سيلفيا مورنينكاس ترسم على شاطئ مونتيفيديو، في أمسية أنوار هادئة، بسماء دون غيوم، وهواء بلا رياح، عندما سمعت دوي حرب.

المعركة كانت تدور في فندق رامبلا. فالطابق السفلي، وهو في أوج عملية إصلاح وترميم، كان يغص بالأنقاض، وفوق قمامة الحطام

والخشب المكسر، كانت هناك سجادة من الريش الأبيض.

تراجعت سيلفيا مذعورة. فرموز السلام كانت تقتل بعضها بعضاً بمناقيرها: كانت تندفع منقضّة، وتشتبك في الفضاء، وتصطدم بالنوافذ، وتطير، مضرجة بالدماء، لتنقضّ من جديد.

أبطال

من بعيد، يصدر الرؤساء والجنرالات أوامرهم بالقتل. هم لا يقاتلون إلا في الشجارات الزوجية. لا يريقون من الدم إلا ما يسببه جرح أثناء الحلاقة. لا يشمون من الغازات السامة إلا ما تنفثه السيارات. لا يغوصون في الوحل، مهما هطل المطر في الحديقة. لا يتقيؤون من رائحة الجثث المتعفنة تحت الشمس، وإنما من تسمم ما في الهمبرغر. لا تصم آذانهم الانفجارات التي تمزق بشراً وتقوض مدناً، وإنما الأسهم النارية احتفالاً بالانتصار. ولا تعكر أحلامهم عيون ضحاياهم.

المحارب

في العام 1991، قامت الولايات المتحدة، الخارجة من غزو بنما، بغزو العراق لأنه غزا الكويت.

كان تيموثي ماك فيغ مُصَمَّماً للقتل، مُبرمجاً لهذه الحرب. لقد دربوه في الثكنات. والمراجع التعليمية تأمره بأن يصرخ:

- ***الدم يجعل العشب ينمو!***

ومن أجل هذا الهدف الإيكولوجي، رويت أرض العراق بالدم. ألقت الطائرات قنابل كما في خمس هيروشيمات، وبعد ذلك دفنت الدبابات الجرحى وهم أحياء. الرقيب ماك فيغ هرس عدداً من الناس على تلك الرمال... أعداء بالزي العسكري، وأعداء بلا الزي:

- ***إنها أضرار جانبية*** - قالوا له أن يقول.

وقلدوه وسام النجمة البرونزية.

عندما رجع، لم يُفصل من التيار الذي يغذيه. فقتل في أوكلاهوما 168 شخصاً. وكان بين ضحاياه نساء وأطفال:

- *إنها أضرار جانبية* - قال.

ولكنهم لم يعلقوا ميدالية أخرى على صدره. بل غرسوا حقنة في ذراعه. وجرى تعطيله نهائياً.

أرض تحترق

في فجر الثالث عشر من شباط 1991، مزقت قنبلتان ذكيتان قاعدة عسكرية تحت الأرض في أحد أحياء بغداد.

ولكن القاعدة العسكرية لم تكن قاعدة عسكرية. كانت ملجأ، يغص بأناس نائمين. وفي ثوان قليلة تحول الملجأ إلى محرقة هائلة. أربعمئة وثمانية مدنيين ماتوا متفحمين. كان بينهم اثنان وخمسون طفلاً، واثنا عشر رضيعاً.

جسد خالد محمد كله كان قرحاً ملتهباً. ظن أنه ميت، ولكن لا. شق طريقه متلمساً، وتمكن من الخروج. لم يكن يرى. فقد ألصقت النار جفونه.

والعالم لم ير أيضاً. فقد كان التلفزيون مشغولاً بعرض نماذج جديدة من آلة القتل التي أطلقتها تلك الحرب في السوق.

سماء ترعد

بعد العراق، جاء دور يوغسلافيا.

من بعيد، من مكسيكو، كان ألكسندر يسمع بالهاتف دوي الحرب على بلغراد. فعندما كانت الهواتف تعمل، أحياناً نعم، وأحياناً لا، كان يتلقى صوت سلافا لاليشي، أمه، الذي يكاد لا يُسمع وسط دوي انفجار القنابل وعويل صفارات الإنذار.

كانت الصواريخ تهطل على بلغراد، وكل انفجار يتكرر مرات كثيرة في رأس سلافا.

ليلة إثر ليلة، على امتداد ثمان وسبعين ليلة من ربيع 1999، لم تستطع النوم.

وعندما انتهت الحرب، لم تستطع النوم أيضاً.

- ***إنه الصمت*** - كانت تقول - ***هذا الصمت الذي لا يطاق.***

المحاربون الآخرون

بينما كانت يوغسلافيا تعاني من الصواريخ، المحتفى بها في التلفزيون، والتي تباع في محلات الألعاب في العالم، قام صبيان اثنان بتحقيق حلم شن حربهما الخاصة.

ولعدم وجود أعداء، اختارا من هم أقرب إلى متناول أيديهما. إيريك هاريس وديلان كليبولد قتلا ثلاثة عشر، وخلفا سلسلة طويلة من الجرحى، في كافيتريا المدرسة، حيث يدرسان. حدث ذلك في ليلتاون، مدينة تعيش على مصنع الصواريخ التابع لشركة لوكهيد. لم يستخدم إيريك وديلان صواريخ. استخدما مسدسات، بنادق، ذخائر، اشترياها من السوبر ماركت. وبعد القتل، قتلا نفسيهما.

وقالت الصحافة إنهما قد وضعا، كذلك، قنبلتي غاز، لنسف المدرسة بكل من فيها، لكن القنبلتين لم تنفجرا.

والصحافة لم تكد تشير إلى خطة أخرى وضعاها، لأنها خطة بالغة السخافة: هذان الصبيان المغرمان بالموت، كانا يفكران في اختطاف طائرة والاصطدام بها ببرجي نيويورك.

أهلاً بكم في الألفية الجديدة

بعد سنتين ونصف من ذلك الرصاص في المدرسة، انهار برجا نيويورك التوءمين كقلعة من رمل جاف.

هذا الهجوم الإرهابي قتل ثلاثة آلاف عامل.

الرئيس جورج دبليو بوش تلقى، بذلك، إذناً بالقتل. أعلن الحرب اللانهائية، حرباً عالمية ضد الإرهاب، وبعد قليل غزا أفغانستان.

هذا الهجوم الإرهابي الآخر قتل ثلاثة آلاف فلاح.

حرائق، انفجارت، ولولات، لعنات: كانت تنفجر على شاشات التلفزيون. كل يوم يكررون مأساة البرجين، التي تختلط بانفجارات القنابل المتساقطة على أفغانستان.

في قرية ضائعة، بعيداً عن مستشفى المجانين الكوني، كان نويل أوخيدا يجلس على الأرض إلى جانب حفيده ذي الثلاث سنوات. قال الطفل:

ـ***العالم لا يعرف أين هو بيته***.

كانا ينظران إلى بعض الخرائط.

وكان يمكن لهما أن يكونا أمام الشاشة يشاهدان الأخبار.

أخبار

صناعة التسلية تعيش على سوق العزلة.

صناعة العزاء تعيش على سوق الغم.

صناعة الأمن تعيش على سوق الخوف.

صناعة الكذب تعيش على سوق البلاهة.

أين يقيسون هذه النجاحات؟ في البورصة.

وكذلك صناعة الأسلحة. سعر أسهمها هو أفضل خبر في أي حرب.

إعلام العولمة

بعد شهور من سقوط البرجين، قصفت إسرائيل جنين.

مخيم اللاجئين الفلسطينيين هذا، تحول إلى حفرة هائلة، ممتلئة بموتى تحت الأنقاض.

حفرة جنين لها حجم حفرة برجي نيويورك نفسه.

ولكن، كم من الناس رأوها، غير أولئك المتبقين على قيد الحياة الذين يقلّبون الأنقاض بحثاً عن ذويهم؟

الحرب اللانهائية

كما هي العادة، أعمل رئيس كوكب الأرض عقله.

وفكر كما يلي:

من أجل القضاء على حرائق الغابات، لا بد من قطع كل الغابات؛

ومن أجل القضاء على الصداع، لا بد من قطع رأس الموجوع؛

ومن أجل تحرير العراقيين، سنواصل قصفهم حتى نحولهم إلى هريسة.

وهكذا، بعد أفغانستان، جاء دور العراق.

العراق مرة أخرى.

أما كلمة بترول فلم تُذكر قط.

الإعلام الموضوعي

العراق كان خطراً على الإنسانية. بسبب صدام حسين سقط البرجان، ويمكن لهذا الطاغية أن يلقي، في أي لحظة، قنبلة ذرية عند زاوية بيتك.

هذا ما قالوه. وبعد ذلك عُرف الأمر. تبين أن أسلحة التدمير الشامل الوحيدة هي الخطابات التي اخترعت وجودها.

كذبت هذه الخطابات، وكذب التلفزيون، وكذبت الصحف والإذاعات.

ولم تكذب، بالمقابل، القنابل الذكية التي بدت بالغة الحمارية. لقد مزقت مدنيين عزلاً، تطايروا أشلاء في الحقول وفي شوارع البلد المغزو، وقالت القنابل الذكية الحقيقة عن هذه الحرب.

أوامر

حدث هذا في الحادي عشر من أيلول 2001، عندما اصطدمت الطائرة الثانية التي اختطفها الإرهابيون، بالبرج الثاني في نيويورك.

ما إن بدأ البرج يطقطق، حتى هرب الناس نزولاً على الأدراج مسرعين.

وفي ذروة الهروب، لعلعت فجأة مكبرات الصوت.

أمرت مكبرات الصوت الموظفين بالعودة إلى مواقع عملهم.

وقد نجا من لم ينصاعوا للأوامر.

المدفعي

رئيس وزراء إسرائيل اتخذ القرار. وزير دفاعه نقله. رئيس الأركان أوضح أن علاجاً كيماوياً سيُستخدم ضد الفلسطينيين، لأنهم سرطان. الجنرال أعلن منع التجول. والكولونيل أمر بتدمير البيوت والحقول المزروعة. قائد الفرقة أرسل الدبابات ومنع دخول سيارات الإسعاف. أصدر الكابتن الأمر بإطلاق النار. وجّه النقيبُ الأمر إلى الرامي بإطلاق الصاروخ الأول.

ولكن المدفعيّ، هذا المدفعيّ، لم يكن موجوداً. لأن يغال برونير، الحلقة الأخيرة في سلسلة الأوامر، كان قد أُرسل إلى السجن لأنه رفض المشاركة في المجزرة.

مدفعي آخر

كان بنّاءً منذ طفولته. وعندما أكمل الثامنة عشرة من عمره، اضطرته الخدمة العسكرية إلى قطع العمل في مهنته.

أُلحق بقوات المدفعية. وفي أحد الأيام، في تدريب رماية من المدفع، أمروه بإطلاق النار على بيت فارغ.

كان بيتاً عادياً، بيتاً وحيداً في الحقل. وكان هو قد تدرب على التسديد، وعلى كل شيء؛ ولكنه لم يستطع فعل ذلك. كررت الصرخات إصدار الأمر إليه؛ ولكن لا، لم تكن هناك استجابة. لم يطلق النار.

لقد عمّر بيوتاً كثيرة مثل هذا البيت. وكان بإمكانه أن يوضح أن لكل بيت أرجلاً، مغروسة في الأرض، وأن له وجهاً، مثل البيوت التي يرسمها الأطفال، له عيون في النوافذ، وفم في الباب، وفي داخله الروح التي خلّفها فيه من بنوه، وذاكرة من سكنوه.

كان يمكن له توضيح ذلك، ولكنه لم يقل شيئاً. فلو قاله لأعدموه بتهمة البلاهة. وقف متاهباً، دون أن ينطق فمه بكلمة؛ وانتهى إلى السجن.

حول موقد في سلسلة الجبال الأرجنتينية، بين حلقة من الأصدقاء، روى كارلو بارباريسي هذه القصة عن أبيه. وقد حدثت في إيطاليا، في أزمنة موسوليني.

وآخر

كان ذلك مساء يوم أحد عادي من عام 1967.

كانت أمسية مباراة من مباريات الدوري. نادي سانتا فيه يلعب ضد نادي ميّوناريوس، ومدينة بوغوتا بأسرها كانت على مدرجات الستاد. وخارج الستاد لم يكن هناك أحد، إلا إذا كان مشلولاً أو أعمى.

وكان يبدو أن المباراة ستنتهي بالتعادل، عندما وقع على الأرض عمر لورينثو ديفاني، هداف فريق سانتا فيه، مدفعي الفريق. وأطلق الحكم صفارة ضربة جزاء.

أصيب ديفاني بالحيرة: ثمة خطأ، لأن أحداً لم يلمسه، وإنما هو وقع متعثراً. أراد أن يقول ذلك للحكم، ولكن لاعبي سانتا فيه رفعوه بين أيديهم، وأخذوه محمولاً إلى النقطة البيضاء التي تحدد موقع ضربة الجزاء. لم يكن هناك مجال للتراجع. فالستاد يضج بالدوي، ويكاد أن ينهار.

بين العوارض الخشبية الثلاث، عوارض المشنقة، كان حارس المرمى ينتظر متأهباً.

عندئذ وضع ديفاني الكرة على البقعة الصغيرة البيضاء.

كان يعرف جيداً ما سيفعله، ويعرف الثمن الذي سيدفعه لفعل ما سيفعله. اختار دماره، اختار مجده: تراجع متخذاً مسافة اندفاع، وبكل قوته أطلق الكرة خارجاً، بعيداً جداً عن المرمى.

ثقل الزمن

قبل أربعة قرون ونصف قرن، جرى إحراق ميشيل سيرفت حياً، على حطب أخضر، في جنيف. كان قد وصل إلى هناك هارباً من محاكم التفتيش. ولكن كلفينو أرسله إلى المحرقة.

كان سيرفت يرى أنه يجب عدم تعميد أحد قبل بلوغه سن الرشد، وكانت لديه شكوكه حول الثالوث المقدس، وكان عنيداً إلى حد إصراره على التعليم، في دروسه الطبية، بأن الدم يمر من القلب ويتنقى في الرئتين.

هرطقاته أودت به إلى حياة تشرد غجرية. فقبل القبض عليه، بدّل كثيراً من البلدان، والبيوت، والمهن، والأسماء.

احترق سيرفت، في تعذيب بطيء، ومعه الكتب التي ألفها. وعلى غلاف واحد من تلك الكتب، هناك رسم يمثل شمشون يحمل، على كاهله، بوابة ثقيلة جداً. وتحتها كتابة تقول: ***أحمل حريتي معي.***

مرور الزمن

بعد ستة قرون من تأسيسها، قررت روما أن تكون بداية السنة في الأول من كانون الثاني.

حتى ذلك الحين، كانت السنة تبدأ في الخامس عشر من آذار.

كان لا بد من استبدال التاريخ، لأسباب تتعلق بالحرب.

كانت إسبانيا تحترق. فالتمرد الذي يتحدى القوة الإمبراطورية ويلتهم آلافاً ومزيداً من آلاف الجنود الرومان، أجبر روما على استبدال

حساب أيامها ودورة شؤونها كدولة.

سنوات طويلة استمر التمرد، إلى أن تمت أخيراً محاصرة مدينة نومانثيا، عاصمة المتمردين الهسبان، وأُحرقت، ودُمرت.

على رابية محاطة بحقول قمح، على ضفاف نهر الدويرو، ترقد رفاتها.

لم يبق تقريباً أي شيء من تلك المدينة التي غيرت التقويم العالمي إلى الأبد.

ولكن في منتصف ليل كل حادي وثلاثين من كانون الأول، عندما نرفع الكؤوس، فإنما نرفع نخبها، وإن كنا لا نعرف ذلك، كي تتواصل ولادة الأحرار والسنين.

الزمن

إننا أبناء الأيام:

- *ما هو شخص في الطريق؟*

- *إنه زمن.*

أبناء المايا، وهم معلمون قدماء في هذه الأسرار، لم ينسوا أن من صاغنا هو الزمن، وأننا مصنوعون من زمن يولد بين موت وموت.

وهم يعرفون أن الزمن يسود ويتحكم، ويسخر من المال الذي يريد أن يشتريه،

ومن الجراحات التجميلية التي تريد محو آثاره،

ومن أقراص الدواء التي تريد إسكاته،

ومن الآلات التي تريد قياسه.

ولكن، عندما بدأ السكان الأصليون في تشياباس، الذين انتفضوا بالسلاح، مفاوضات السلام، وضع أحد موظفي الحكومة المكسيكية النقاط على الحروف. أشار إلى معصمه، وأشار إلى معاصم الهنود، وأصدر حكمه:

- ***نحن نستخدم ساعات يابانية، وأنتم أيضاً تستخدمون ساعات يابانية. الوقت بالنسبة لنا هو التاسعة صباحاً، وبالنسبة لكم أيضاً هو التاسعة صباحاً. فدعكم من الإزعاج بمسألة الزمن هذه.***

أزمنة معاكسة

عندما يكون المناخ معادياً، والسماء سوداء، وتكون الأيام أيام ثلج وعواصف، يبقى البرسيم حديث الولادة ساكناً، وينتظر. البراعم الخجولة تستسلم للنوم، وفي نومها تنجو، ما دام الجو السيئ مستمراً، مهما طال أمد الزمن السيئ.

وعندما تأتي الشموس في نهاية المطاف، وتزرق السماء، وتدفأ الأرض، يستيقظ البرسيم. وعندئذ، عندئذ فقط، يبدأ النمو. ينمو بسرعة، حتى إن أحدنا ينظر إليه ويراه ينمو مدفوعاً، من الجذر، بريح لا تأتي من الفضاء.

طيران النور

في أعلى جبال كاخامركا، وهي آخر من استيقظ وانتصب من الجبال عند ولادة العالم، هناك أشكال كثيرة مرسومة بأيدي فنانين بلا أسماء.

تلك الوشوم الملونة ظلت حية على الجروف الصخرية، منذ آلاف السنين، على الرغم من ضربات العواصف.

الرسوم موجودة وغير موجودة، حسب التوقيت. بعضها يشتعل عندما يتفتح النهار، وتنطفئ عند الظهيرة. وأخرى يأخذ شكلها وكل ألوانها بالتبدل على امتداد طريق الشمس، من الفجر حتى الليل. وأخرى لا تظهر إلا عند مجيء الغسق.

الرسوم ولدت بأيدٍ بشرية، ولكنها من عمل الضوء أيضاً، الضوء الذي يرسله الزمن، يوماً بعد يوم، وهي رهن أمره. فهو، الضوء، الفنان الآخر، الملك والسيد، يُظهرها، ويخفيها، ويعرضها مثلما يشاء ومتى يشاء.

التحدي

أكبر الطيور في العالم تطير على الأرض، وليس في السماء.

لقد رسم تلك الطيورَ سكانُ منطقة نازاكا القدماء الذين عرفوا

كيف يحفرون تلك الأشكال البديعة في الصحراء القبيحة.

رؤية تلك الخطوط من أسفل، لا تعني شيئاً؛ فهي ليست سوى قنوات طويلة من الحجر والتراب، تضيع في قفر من التراب والحجر.

أما عند رؤيتها من أعلى، من طائرة، فإن خطوط الصحراء تلك تشكل طيوراً عملاقة مبسوطة الأجنحة.

عمر تلك الرسوم ألفان أو ألفان وخمسمئة سنة. ومن المعروف أنه لم تكن توجد آنذاك طائرات. فمن أجل من، ولمن، صنعت تلك الأشكال؟ من أجل أعين من؟ الخبراء لم يتوصلوا إلى اتفاق.

أما أنا فأقول، أتساءل: تلك الخطوط المتقنة، التي تتلألأ بالجفاف، ألا تكون ولدت من أجل أن تراها السماء؟

السماء تقدم لنا تصميماتها البديعة، المرسومة بنجوم أو بغيوم، وهو أمر جدير بالشكر. ولكن الأرض قادرة أيضاً. ربما هذا هو ما أراد قوله أولئك الناس الذين حولوا الصحراء إلى عمل فني بارع؛ أرادوا أن يقولوا إن الأرض قادرة على الرسم أيضاً، مثلما ترسم السماء؛ وإنها قادرة على الطيران، دون أن تنفصل عن اليابسة، على أجنحة الطيور التي تبدعها.

تأسيس النهارات

إنه الأول. عندما تدنو نهاية الليل، يكسر صوت ناشز الصمت. النشاز الذي لا يتعب أبداً يوقظ معلمي الغناء. وقبل الضوء الأول، تبدأ كل طيور العالم سيرنادها عند النافذة، محلقة فوق الأزهار التي تروقها.

بعضها يغني حباً بالفن. أخرى تُرسل أخباراً، أو تروي تقولات ونمائم ودعابات، أو تطلق خطابات، أو تعلن أفراحاً. لكن الجميع، الفنانين، الصحفيين، الثرثارين، اللعوبين، المضجرين، المجانين، يجتمعون في رطانة واحدة لأوركسترا متكاملة.

هل تعلن الطيور عن انبلاج الصبح؟ أم أنها تصنعه مغنية؟


محمد خطاب



أفـواه الـزمـن

مثل طائر يهبط الى الارض بسرعة ليلتقط شيئا لانراه ، كذلك يفعل إدواردو غاليانو في كل كتاباته يلتقط صوراً نادرة من حياتنا اليومية ، ويعيد تلوينها بأقلامه الساحرة ، في صور مدهشة وغريبة كأنها من عالم آخر .



ISBN:2-84305-870-X

9 782843 058707